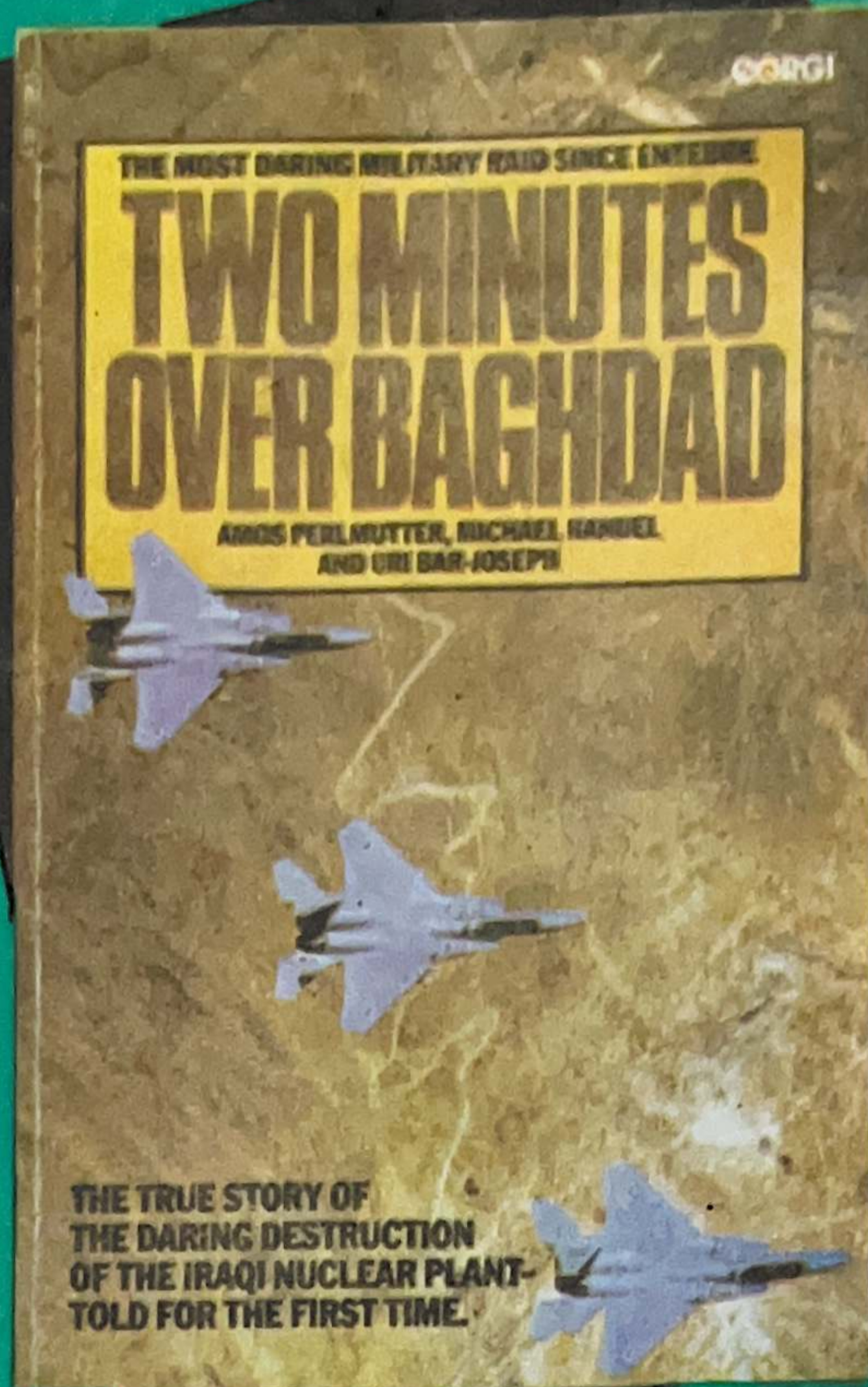
وزارة الاعلام - القاهرة
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة رقم (٧٦٢)



تأليف
عاموس بيرلماتر
ميشيل هاندل
يورى بارجوزيف

دقيقتان فوق بغداد

وزارة الاعلام - القاهرة
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة رقم (٧٦٢)

دقيقتان فوق بغداد

تأليف

عاموس بيرلماتر

ميشيل هاندل

يوري بارجوزيف

كتاب (دقيقتان فوق بغداد)

بقلم : عاموس بيرلموتر
ومايكل هاندل
ويورى جوزيف

نبذة عن المؤلفين :

يعمل « عاموس بيرلموتر » أستاذا للعلوم السياسية وعلم الاجتماع بالجامعة الامريكية ، وقد سبق أن صدر له كتاب « العسكرية والسياسة فى اسرائيل ومصر » · وهو أستاذ زائر بجامعة هارفارد وبمعهد بروكنجز وجامعة حيدر آباد بالهند · وعمل عضوا فى الوفد الاسرائيلى لدى الأمم المتحدة وفى لجنة الطاقة الذرية الاسرائيلية ، ومستشارا للشئون العسكرية لحكومات عديدة ·

اما « مايكل هاندل » فقد تلقى درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام ١٩٧٤ ، ويعمل باحثا بمركز هارفارد للشئون الدولية .

وثالث المؤلفين « يورى بارجوزيف » فقد عمل فى السلاح الجوى الاسرائيلى فى مجال التخطيط التدريبى والتكنيكى ، وذلك قبل أن يلتحق بالجامعة العبرية بالقدس ليدرس السياسة ·

دقيقتان
فوق بغداد

بقلم :

اموسي بيرلموتر

مايكل هاندل

يوري بار جوزيف

مقـــــــــدمة

هناك احداث معينة تعتبر نقاط تحول فى التاريخ العالمى ، مثل اجتياح سجن (الباســتيل) ، الأمر الذى فجر الثورة الفرنسية ، أو قصف مدينتى (هيروشيما) و (نجازاكى) بالقنــابل الذرية . وعنــدئذ يمكن على الفور ادراك ان التــاريخ قــد غير مساره ، وأن كل شىء لم يعــد كما كان من قبل قط . غـير ان احداثا اخرى ذات مغزى تاريخى قد لاتبدو (دراميــة) هكذا ، بيد انهــا لاتزال تعد احداثا لامثيل لهــا من قبل .. احداثا تكون بداية لعهد جديد ، او لمستوى جديد من الصراع ، أو لتطورات تكنولوجية جديدة ، او ان من شأنها ان تغير مسار تطورات الأحــداث ، وهو الأمر الذى كان يبدو محتما قبل وقوعها . والواقع ان الهجــوم الاسرائيلى على المفاعل النووى العراقى الذى يقع شرقى جنوب بغداد وتدميره بعــد ظهر يوم ٧ يونيو ١٩٨١ يعد واحدا من هذه الأحداث .

ذلك انه لأول مرة فى التاريخ الحديث يقع هجوم وقائى ناجح على منشأة نووية . وهو لم يكن بالهجــــوم الاول من نوعه على مفــاعل نووى فحســب (بالرغم من ان المفاعل لم يكن قــد جرى تشــغيله تشغيلا كاملا) بل كان المحاولة الأولى من نوعها التى استخدمت فيها القوة لارجاء الفعاليــة ومنع الانتشار المحتمل ، لأسلحة نووية .

وقد جرت مناقشة احتمال شن مثل هذه الهجمات النووية الوقائية قبل ذلك فى بلاد أخرى . ففى اواخر الاربعينيات واوائل الخمسينيات ، بحثت الولايات المتحدة ، مثلا ، خططا عديدة للهجوم وتدمير قدرة الاتحاد السوفيتى على ان يصبح قوة نووية وذلك قبل ان يترجم العلماء السوفيت ما لديهم من معرفة محتملة الى قوة نوويه لامثيل لها وعندئذ يكون الوقت متأخرا لتدميرها . غير أن بالنســبة للبعض ، كان مجرد تأمل مثل هــذه الأفكار أمرا لا يمكن التفكير فيه ، اما بالنسبة لمعظم صانعى القرار فان ما ينطوى عليه مثل هذا الهجوم الوقائى على برنامج الاتحاد السوفيتى الخاص بالأسلحة النووية التى لم تكن قد تطورت بعد كان ينظر اليه باعتباره أمرا يثير الفزع للغاية وتكتنف الشكوك انتهاجه . ومن ثم ، نجد أن الاتحاد السوفيتى قد أصبح قوة نووية مساوية للولايات المتحدة ، وغدا ميزان الرعب النووى احدى حقائق الحياة ، مما غير مسار التاريخ على نحو لا يمكن اعادته الى ما كان عليه من قبل .

ومن المثير للسخرية ، ان التــاريخ قد أعاد نفســه على نحو مماثل فى منتصف وأواخر الستينات ، وذلك عندما بحث الاتحــاد السوفيتى نفســه

احتمال شن غارة نووية وقائية على برنامج جمهورية الصين الشعبية الخاص بابحاث الاسلحة النووية غير انه اقلع عن ذلك . بل ان الاتحاد السوفيتى قد وصل فى ذلك الى حد توجيه تلميحات الى الولايات المتحدة بشأن شن مثل هذا الهجوم الوقائى — سواء كان ذلك بقصد الحصول على تأييد ضمنى من جانب الولايات المتحدة او للتعرف ببساطة على كيفية استجابة ورد فعل امريكا تجاه ذلك . وقد اعرب الدبلوماسيون الأمريكيون على الفور عن اعتراضهم على مثل هذه الغارة الوقائية . وعلى حين لا تعرف سوى القليل عما دار من مناقشات بعد ذلك بين زعماء الكرملين ، نجد أننا نعرف تماما ان الاتحاد السوفيتى قد قرر عدم شن هجوم وقائى ، وان الصينيين قد حققوا وحوروا برنامجا واسع النطاق للتسليح النووى ومما لا شك فيه أن كلا من باكستان والهند قد بحثتا كذلك احتمال شن هجوم وقائى على مراكز البحث النووى لكل منهما ليدمر البعض قدرة البعض الآخر على تطوير اسلحة نووية .

وفى ضوء هذه الأحداث السابقة ، نجد الهجوم الاسرائيلى (الدرامى)، وما ينطوى عليه من معنى تاريخى ، يكتسب منظورا اكثر حدة . ومع ذلك تختلف ملابسات وخلفية الهجوم الاسرائيلى اختلافا كبيرا عن الحالات سالفة الذكر .

ذلك أن العراق ، التى تقع على بعد ٣٥٠ ميلا تقريبا من اسرائيل ، قد لعبت دورا اساسيا فى الحروب العربية الثلاثة ضد اسرائيل ، فقد اشتركت فى كل من غزو الجامعة العربية لفلسطين عام ١٩٤٨ ، وفى حرب ١٩٦٧ . وخلال عام ١٩٧٣ ارسلت قواتها للقتال الى جانب السوريين والاردنيين فى الجبهة الشرقية . ومن ثم ، وعلى عكس اية دولة عربية اخرى ممن تشترك اشتراكا مباشرا فى الحرب ضد اسرائيل ، نجد أن العراقيين قد رفضوا باصرار وعناد حتى مجرد ابرام اتفاق وقف اطلاق النار ، او عقد هدنة مع اسرائيل ذلك أنه فى نهاية كل نزاع من نزاعاتهم ، كان العراقيون يسحبون ببساطة قواتهم الى داخل اراضيهم ، ثم تظهر هذه القوات مرة اخرى حيثما تندلع حرب جديدة . ولذا تعد العراق من الناحية العملية والقانونية الدولة العربية الوحيدة التى تعتبر فى حالة حرب دائمة مع اسرائيل .

كما ان الاسرائيليين كانوا يخشون من ان العراق — التى تتصرف فيما يبدو على نحو غير عقلى ويتسم بالتهور — قد تعطى قنبلة نووية الى احدى الجماعات الارهابية التى ربما تستخدمها بدورها فى ابتزاز اسرائيل او اية دولة عربية اخرى بقصد ممارسة الضغوط على اسرائيل . والواقع أن العراق لم تكن فى حالة حرب دائمة مع اسرائيل فحسب بل انها كانت تقدم علانية المساندة لبعض الجماعات العربية الارهابية المتطرفة للغاية من

الفلسطينيين وغيرهم . ولما كان الأمر كذلك ، فان الولايات المتحدة قد اعلنت ان العراق بلد ينتهك القانون الدولى ودولة تساعد الارهاب . ومن ثم قررت فرض حظر على تزويد العراق باية اسلحة امريكية ، وفى ذلك بيع طائرات من طراز بوينج ٧٤٧ .

ويشتهر النظام العراقى — وخاصة منذ الانقلاب العسكرى الذى اطاح خلاله عبد الكريم قاسم بالملكية العراقية — بالتطرف فى العدوانية وعدم التعقل وقد زادت شهرة العراق فى هذا الصدد تحت زعامة الرئيس صدام حسين فى أواخر السبعينيات . فقد دخلت العراق فى صراعات عديدة لا مع اسرائيل فحسب بل مع حكم البعث السورى كذلك وواصلت حربها العدوانية ضد الأقلية الكردية ، واخيرا وفى خريف ١٩٨٠ شنت هجوما مفاجئا على ايران ، ومما يدعو الى الغرابة أن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لم يدن هذا الهجوم ادانة مباشرة .

وهكذا ، كانت الحكومة الاسرائيلية تجد ان لها من وجهة نظرها ، واستنادا الى تصرف العراق فى الشئون الخارجية — حقا شرعيا فى ان تخشى من تعجيل الحكومة العراقية بتنفيذ برنامجها النووى . ذلك ان هذا البرنامج يعد تهديدا مباشرا لا لاسرائيل فحسب ، بل للبلاد الاخرى المجاورة كذلك مثل ايران التى تشتبك معها العراق فى حرب حول شط العرب واقليم كردستان (عربستان) ، وسوريا التى تشتبك معها فى نزاع عقدى فضلا عن المسالة الاكثر تفجرا وهى مستقبل المشاركة فى مياه نهرى دجلة والفرات وقد شعرت الكويت بتهديد العراق لها اكثر من مرة . ولم ينقذها فى الواقع من غزو العراق لها فى أوائل الستينيات سوى البريطانيين . كما كانت السعودية تشعر بخوف واضح من القوة العراقية وتوسعها فى اتجاه الشمال ومن التهديد العراقى بالتدخل فى شئونها الداخلية وكانت مصر تشعر بتوجس وقلق من اشتراك الزعامة العراقية فى الحملة ضد اتفاقات كامب ديفيد ، ومن تطلع العراق الى ان تصبح قوة مهيمنة فى العالم العربى — وهو تطلع كان من المؤكد ان يعززه أن تصبح العراق أول بلد عربى يمتلك اسلحة نووية .

كما أن مصالح الدول الكبرى ربما كانت مهددة على نحو غير مباشر من جراء الخط المائل فى الشرق الأوسط ، مما يهدد كذلك الاستقرار العالمى . وكانت الدول العظمى تخشى دائما من جرها الى مواجهة نووية وحربية ، من جراء سوء التقدير ، أو تصعيد مفاجىء لمواجهة نووية بين الدول الصغرى . ومن ثم ، باتت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى تعارضان بوضوح الانتشار النووى ، ويتصرفان حتى الآن على نحو يتسم بالمسئولية فى جهودهما المبذولة لمنع الانتشار النووى .

ومع ذلك ، لم يكن هذا هو الحال بالنسبة للفرنسيين والايطاليين اذ ان كلا البلدين كان تواقا الى زيادة حجم تعاملها مع العراق (وقد عقدت كلاهما صفقات أسلحة ضخمة جدا مع العراق) والى ضمان امدادات منتظمة من البترول العراقى بأسعار ملائمة (وهو جهد بدده نشوب الحرب العراقية الايرانية) . غير انه على نحو او آخر نجد الحكومة الفرنسية وحاجة الحكومة الاشتراكية بزعامة فرانسوا ميتران التى انتخبت حديثا — كان لديها سبب مقبول لأن تشعر بالذنب وان تجد مبررا معقولا للتراجع عن دعم المشروع النووى العراقى قبل فوات الأوان .

والواقع ان الايرانيين انفسهم ، حاولوا بالطبع قصف المفاعل النووى العراقى يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٨٠ وقد اصابوا فيما يبدو المفاعل ، بيد ان الاصابة كانت سطحية غير ان الهجوم الايرانى هذا لم يثر هذا القدر الضخم من الاهتمام الذى أثاره الهجوم الاسرائيلى ، كما لم يتعرض لمثل هذا النقد الخبيث الذى تعرض له الهجوم الاسرائيلى ومن الأهمية بمكان ان نتذكر — مع ذلك — ان الايرانيين انفسهم ، رغم اخفاقهم قد وضعوا سابقة بالهجوم على مفاعل نووى غير انه لم يوجه اليهم اى لوم (ويعزى هذا الى النفاق والمعايير المزدوجة للراى العام العالمى) نظرا لانهم لم يعترفوا رسميا بذلك ، ولأن العراق هى التى بدأت بشن الحرب عليهم ، ولكنهم فى حالة حرب معها — وذلك مماثل تماما للحال مع اسرائيل من وجهة نظر القانون الدولى .

ولذلك نجد ان الاسرائيليين فى ضوء مخاوفهم وتجربتهم مع العراق — وضعوا فى اعتبارهم حروبهم العديدة مع العالم العربى ، متمثلين فى اذهانهم تجربة المذبحة الجماعية ، وقرروا تدمير المفاعل النووى العراقى الذى كان مما لا شك فيه يستهدف — كما سنبين — انتاج أسلحة نووية .

كما سنتحدث عن الأسباب الأقل ذيوعا والتى كانت وراء هذه الغاره التى لم تكن قرارا اتخذ بين ليلة وضحاها ، وكذا الجهود النووية الاسرائيلية التى بدأت فى أواخر الخمسينيات والتى كانت تعد وسيلة لحماية الدولة اليهودية ولتغيير المواقف العربية تجاه اسرائيل . كما درسنا المواقف المختلفة العديدة للدول العربية ازاء المشروع النووى الاسرائيلى ، ووضعنا بالتفصيل مشروع تموز العراقى الذى كان يستهدف اعطاء العراق خيارا نوويا — بمساعدة الفرنسيين والايطاليين خلال الثمانينيات .

ان مناحيم بيجين رئيس وزراء اسرائيل المعقد والمثير للجدل ، يعد شخصية غير عادية فى السياسة العالمية فى الوقت الحاضر . وقد قام بدور

حاسم فى القرار الخاص بتنفيذ « عملية بابل » كما عرفت بذلك الغارة . وقد قال بيجين : هذه ستكون عتيبتى الخاصة بى . وبينما وقعت الغارة فى منتصف الحملة الانتخابية الاسرائيلية وحسنت الى حد كبير من شعبية بيجين بالنسبة لاستطلاعات الراى العام السابقة على الانتخابات وجدنا اصواتا عديدة ارتفعت داخل اسرائيل وخارجها تعارض الغارة فى حد ذاتها ، وتعارض توقيتها كذلك .

ولن نتناول فحسب القرار والتوقيت وشبه الاجماع بين زعماء اسرائيل السياسيين والعسكريين على ان لهذا الهجوم ما يبرره ، وانما سنحلل كذلك مانعتبره الخوف المرضى ، الاسرائيلى المزمن — وهو الخوف من محرقة أو مذبحة جماعية اخرى — وذلك من خلال بيجين نفسه ، خلال شبابه كصهيونى كان يعيش فى بولندا حيث كان اليهود لا يتعرضون للتهديد من جانب المانيا النازية فقط ، وانما من موجة المعاداة للسامية بين شعبهم ذاته .

وفى اعتقادنا ان بيجين كان يخشى حقيقة من انه اذا لم يكن قد امر بشن هذه الغارة وخسر انتخابات ١٩٨١ ، فان شيمون بيريز زعيم المعارضة العمالية لن يجرؤ على اتخاذ قرار بقصف مشروع تموز وكان بيجين يرى مثله فى ذلك مثل كثيرين آخرين احتمال وقوع محرقة جماعية اخرى ، ليس بالنسبة ليهود الشتات فى أوروبا هذه المرة ، وانما بالنسبة لدولة اسرائيل .

وسوف نتناول كذلك الدور السياسى والشخصى لبيريز ، وكذا دور شخصيه رئيسية اخرى فى التاريخ العسكرى والسياسى الاسرائيلى خلال ما يربو على العقدين الماضيين وهى شخصية الجنرال البارع والرجل القوى الوحيد فى حكومة بيجين الا وهو اريل شارون ويشغل شارون الآن منصب وزير الدفاع ، بيد انه وقت الغارة كان يشغل منصب وزير الزراعة ، وكان احد كبار المستشارين العسكريين لبيجين ، وكان يدعو باستمرار لشن غارة وقائية على المفاعل النووى العراقى . ونحن نتكهن بأنه من المؤكد أن يصبح شارون الشخصية القيادية فى السياسة الاسرائيلية خلال الثمانينات .

بيد ان جوهر القصة هو الغارة ذاتها . ولذلك سنكشف عن تفاصيل حول عملية بابل ، ونحلل المشكلات العسكرية التى واجهت رئيس الأركان الاسرائيلى بشأنها ، ونشرع لماذا جرى اختيار شن هجوم جوى على المفاعل النووى العراقى لقد استغرق الاعداد للغارة شهورا من التخطيط ، وسوف نورد تفاصيل قصف المفاعل ولماذا وكيف تمكن الفريق الاسرائيلى من الافلات من أن يعترضهم معترض ، سواء خلال طيرانهم الى العراق أو خلال رحلة عودتهم .

كما حللنا ردود الفعل تجاه الغارة ، لا داخل اسرائيل ومنطقة الشرق الأوسط عامة فقط ، بل فى أنحاء العالم ومن ذلك ردود الفعل الانتقادية التى

تتسم بالنفاق — كما نرى — والتى بدت من خلال أجهزة الاعلام وحكومتى فرنسا وامريكا وعنـد مناقشة تأثير الغـارة على ميزان القوى فى الشرق الأوسـط ، سـوف نبحث اثرها المحتمل علـى الانتشار النووى فى العالم ، ونتكهن بمستقبل الأسلحة النووية فى الشرق الأوسط .

والواقع ان التاريخ قد انعطف انعطافا حادا — ولايزال من الصعب التحدث عن مسار واتجاه هـذا الانعطاف . ولعل افضل وجه للمقارنة فى هذا الصدد ان نتساءل عما كان يمكن ان يحـدث لو ان المخابرات الفرنسيه او البريطانية قـد دبرت عمليـة اغتيال ناجحـة لادولف هتلر عام ١٩٣٨ او عام ١٩٣٩ . مما لا شك فيه ، أن الكثيرين من الليبراليين كانوا سيحتجون بشدة بدعوى أن مثل هذا العمل يتنافى مع قواعد اللعبة والسلوك النزيه بين الدول المتحضرة . ولكن لو ان عملية الاغتيال هذه كانت قد نفذت ، فربما حال ذلك دون اندلاع الحرب العـالمية الثانية ، وربما تم تجنب المعـاناة التى تعرض لها ملايين من البشر .

ومع ذلك ، فكيف يتسنى لأى شخص فى الوقت الحاضر أن يبرهن على أن حياة ملايين الأشخاص قد جرى انقاذها عن طريق حرب لم تندلع ؟ فبالرغم من كل شىء نجد ان الطبيعة الفظة والاجرامية للحرب العالمية الثانية كان لامثيل لها من قبل فى التاريخ الحديث (كما لم يكن من الممكن التكهن بها) . ذلك انه من المتعذر بالطبع اثبات حتمية شىء لم يحدث .

وفيما يتعلق بالهجوم الاسرائيلى على برنامج الأسـلحة النـووية العراقية . فأن القرار قد اتخذ بشـأن الهجوم ، والعملية كللت بالنجـاح ، ولكننا لا يمكن أن نصف ماذا كان سيحدث اذا لم يكن الاسرائيليون قد اتخذوا قرارهم هذا ، وكيف كان يمكن ان يتحول تاريخ الشرق الأوسـط والنزاع العربى الاسرائيلى بل والعالم بأسره .

تقـــــديم

فى الساعة الثالثة بتوقيت جرينتش ، وبعد ظهر يوم ٧ يونيو ١٩٨١ الذى كان يبدو يوما عاديا يتسم بالخمول ، التقطت اجهزة الاستشعار فوق الحمراء الحساسة للغاية المزود بهـا قمر التجسس الأمريكى فى مداره فوق الشرق الأوسـط اشارة غير عادية جاءت من فوق الرمال الساخنة بالصحراء العربية وعلى الفور اصدرت هـذه الأجهزة اوامرها لعـدسات الكومبيوتر التلسكوبية بالقمر الصناعى أن تركز على مصادر حرارية بستعشرة طائرة تتحرك بسرعة ، وتطير فى مجموعتين على ارتفاع اقدام قليلة من سطح الصحراء — والواقع ان اجهزة الاستشعار الحساسة بالقمر الصناعى قد صممت لتجيب تلقائيا لاى عـدد من مثل هـذه المصادر الحراريـة التى تتحرك فى الجـو . وكان هذا القمر الصناعى من بين الأقمار التى صممت لتكتشف وتحذر من اى هجوم محتمل من الجو ضد اى هدف فى المنطقة .

وقد تمكنت العدسات التلسكوبية على الفور من التمييز والتعرف على الاشـكال الكلاسـيكيهلا المتحركة فى الجـو للسـت عشرة طائرة من (طراز اف — ١٦ واف — ١٥) وهى تطير فى تشكيلين فوق الصحراء . وعندما استوعبت العدسات تماما هذا المشهد من مشاهد حـرب الكواكب جرى بثـه على الفور على الشاشات التليفزيونية الموجودة بمقر قيـادة المخابرات الامريكية . لقد كانت الطائرات الست عشرة المتطورة للغاية تخفى نفسها بالوان الصحراء الصفراء ، وتطير على ارتفاع منخفض عبر الصحراء العربية . وكانت تقودها ، فيما يبدو طائرة من طراز اف — ١٥ ، وكانت مجموعة منظمة ومنضبطة انضباطا عاليا وفى مهمة لم تعرف بعد . وقـد استمرت فى تقدمها الغامض فى اتجاه الشرق . وبينما كانت مجموعتا الطائرات تواصلان تقدمهما ، جرت ملاحظة حقيقية غريبة أخرى — فقد استمرتا فى طيرانهما فى ظل صمت (لاسلكى) كامل فلم يدر بينها اى اتصال بالراديو ، وهو أمر غير مألوف بالنسبة لأى مهمة تدريبية .

وكان الستة عشر طيارا يجلسون مائلين بزاوية قدرها ٣٠ درجـة مئوية فى كبائنهم المكيفة الهواء (والتى صـممت لتجنب تعتيم الرؤية عن السرعة العالية) وهم ينظرون مباشرة الى الامام من خلال الغطاء الشـفاف ويفحصون الارض التى يرونها أسـفلهم ، وكانوا يطيرون بسرعة هائلة كما لو كانوا قـد وقعوا فى شراك السرعة .

وكانت الرمال والصخور الصفراء اللامعة الموجودة اسفلهم تومض فى عيونهم فى مقابل السـماء الزرقاء الرتيبة الخالية من السحب ولم تكن ايه شجرة او اى مظهر آخر من مظاهر الحياة موجودا ، وحتى يتجنب الطيارون

الوقوع تحت تاثير الشعور بأنهم منومون مغناطيسيا من جراء الرؤية غير المتناهية للسماء الصافية والرمال الصفراء فى الأفق البعيد — كانوا ينظرون الى لوحة الآلات المثبتة امامهم داخل الطائرة .

وعلى الرغم من تكييف الهواء ، كان الطيارون يعرقون بغزارة وكان كل منهم يركز على لوحة الآلات المثبتة امامه : شاشات الرادار ، ومؤشرات اوضاع الأفق ، واجهزة الملاحة الجوية ، ومؤشرات الارتفاع ، والآلات الحاسبة (الكومبيوترات) المعقدة والأجهزة المضادة للالكترونيات . وكان كل منهم يرقب عن كثب ظهور اية أضواء حمراء تحذيرية . فقد كانوا يدركون ان حياتهم تعتمد على مهاراتهم كطيارين ، وعلى امكانية اعتمادهم على مجموعة الآلات المعقدة ، وعلى الوقود والأسلاك الكهربائية ونظم الأسلحة وكل مؤشر موجود فى اللوحة المثبتة امامهم ذلك ان اى خطأ انسانى او عطل يصيب احدى الآلات من الممكن أن يعنى الموت الأكيد . ففى ضوء الارتفاع والسرعة التى يطيرون بها مع ما تقله طائراتهم من كميات ضخمة من الوقود والقنابل — قد يكون اى خطأ خطأهم الاخير اذ يؤدى هذا الخطأ الى اختفائهم والى أن تبتلعهم الصحراء الحارقة .

وبعد ساعة ونصف ساعة من الطيران ، غير قائدهم مسار طائرته الى الاتجاه ، الشمالى الشرقى . وكفريق مدرب تدريبا عاليا اتجهوا بطائراتهم المحملة بقدر ضخم من القنابل وراءه . وبينما استمروا فى تقدمهم الى الشمال ، كانت الضوضاء الفظيعة لمحركات طائراتهم قد امتدت أميالا عبر الصحراء غير انه لم يكن فى الصحراء اى انسان — أوحتى حيوان ليسمع هذه الضوضاء .

وفى الساعة ٢ر٢٨ بتوقيت جرينتش اتجه قائدهم بطائرته الى اعلى ، وتبعته ٧ طائرات اخرى ، اختفت معه بين السحب .

اما الثمانى الطائرات الأخرى فقد استمرت فى طيرانها وزادت من سرعتها تدريجيا . وفى الساعة ٢ر٣٥ بتوقيت جرينتش اقتفوا اثر نهر فضى يلمع فى الأفق ، واراضى صغيرة خضراء وحقول مهجورة ومهملة ، ثم فجاة ظهر هيكل صناعى ضخم . وعند مركزه كان فى وسعهم أن ينتشروا على شكل قبة وقد بدأ لوهلة كما لو كان الهيكل الصناعى يطير فى اتجاههم وعندئذ كسرت مجموعة الطائرات التشكيل واتجهت نحوه . وتبعتها الطائرات الأخرى الواحدة تلو الأخرى الى ان شكلوا مرة اخرى خطا مستقيما : سهما مصوبا فى قلب القبة .

وعندما انقضوا عليه ، وظهرت فوق القبة الدفعة الاولى من النيران والحطام والدخان لم يستطع قائدهم — الذى كان آخر من قصف — ان يبعد خاطرا طاف بذهنه وهو ان هذا الهجوم الذى لا مثيل له من قبل قد يغير تاريخ الشرق الاوسط والعالم ومع ذلك وكما يعرف جيدا كان ذلك الطلقة الأخيرة فقط فى سلسلة الأحداث التى بدات منذ ربع قرن مضى تقريبا .

الجـــــزء الاول
الدعـــوة الى التســــليح
والســـــباق النـــــووى

١ ـ ورطة بن جوريون

١٩٥٧

كان ديفيد بن جـوريون يذرع مكتبه بعصبية مثل اسـد حبيس ويحملق فى خريطة كبيرة للشرق الاوسـط على الحائط ، ثم اتجه مرة أخرى الى مساعديه المقربين ويتذكر اسحق نافون رئيس دولة اسرائيل الحالى ـ هـذه اللحظة جيدا .

وتنهد بن جوريون وهو يقول « لم أستطع أن أنام طوال الليل . ما هى اسرائيل ؟ » انها نقطة صغيرة فقط : نقطة واحدة : كيف يمكنها أن تعيش فى هذا العالم العربى ؟ ان المحارب القديم ذا الشعر الابيض الذى يشغل منصب رئيس الوزراء وكذا وزير الدفاع طوال الفترة منذ مولد اسرائيل فى أعقاب حرب ١٩٤٨ قد أصبح ملما الماما كبيرا بالأمن القومى لبلده . وعلى الرغم من انه ليس خبيرا عسكريا محترفا كانت لديه أفكار محددة بشأن الاستراتيجية الطويلة المدى التى ينبغى على اسرائيل تنفيذها .

فقد كان يرى أن مصير اسرائيل على المدى الطويل قد يكون نفس مصير المملكة الصليبية التى اقيمت فى الأرض المقدسة ، والتى اختفت فى أواخر القرن الثالث عشر . ومن المؤكد أن الظروف ليست متماثلة ، غير أن الدروس التى تعلمها الصليبيون كانت ولا تزال تشغل تفكيره ـ وخاصة فى ضوء وجود عدوه فى العالم العربى ، جمـال عبد النـاصر .

فقد كان الرئيس المصرى يحب من حين الى آخر أن يقارن اسرائيل بالمملكة الصليبية ، ويشبه نفسه بصلاح الدين المحارب المسلم الذى قضى فى النهاية على الوجود المسيحى فى الشرق العربى . وكان ناصر يذكر شعبه بأن العرب قد وهبهم الله نعمة الصبر الذى لا ينفد . لقد انتظروا ٢٠٠ عام حتى قضوا على معقل الصليبيين فى العالم الاسلامى واذا ما حسبوا خطواتهم حسابا صحيحا ، فان فى وسعهم أن يخرجوا اليهود من المنطقة فى مدى أقل وكان بن جـوريون يخشى من انه يوجد ما هو أكثر من ظل الحقيقة فى كلام الرئيس المصرى هذا . فكيف كان يمكنه (أى يمكن بن جوريون) اصابة هذا التهديد الدائم لوجود دولة اسرائيل بالشلل ؟

كان بن جوريون واقعيا : فبعد أن حاول من خلال العديد من القنوات اجراء حوار مع زعماء العالم العربى ، أقنعته التجربة أنهم ليسوا مستعدين بعد لأن يطرأ تغير أساسى فى مواقفهم تجاه الدولة اليهودية ، وكان يعرف الشخصية العربية ، كما يعرف أنه طالما أن العرب مقتنعون بأن فى امكانهم « أن يلقوا باسرائيل فى البحر » فانهم لن يقبلوا وجود دولة اسرائيل ككيان حى قائم بين بلاد الشرق الاوسط .

وكان احد البدائل للتوصل لاقرار السلام الذى من شأنه ان يجعل اسرائيل آمنة من عداء «العالم العربى» هو ابرام حلف عسكرى بين اسرائيل وبين دولة كبرى أو أكثر من دولة ومع ذلك ، لم تكن الولايات المتحدة وبريطانيا مستعدتين فى ذلك الوقت لبحث مجرد اقامة علاقات عسكرية غير رسمية مع اسرائيل – ناهيك عن ابرام تحالف عسكرى كامل معها . وكان سبب ذلك يرجع الى رغبتهما فى انشاء ما يسمى بالحلف الشمالى (الذى عرف باسم حلف بغداد) الذى أبرم فى ٢٤ فبراير ١٩٥٥ ، وهو ائتلاف من دول اسلامية (تركيا والعراق وايران وباكستان) وبريطانيا العظمى والذى كان من المفترض أن يتصدى لاحتواء الاندفاع السوفيتى فى اتجاه الشرق الاوسط للخليج الفارسى وكانت هذه المعاهدة مع هذا العدد من الدول الاسلامية المعادية لاسرائيل تستبعد امكانية اقامة علاقات عسكرية معها .

وكان الاتحاد السوفيتى يعد حليفا محتملا ، وذلك باعتباره من الدول الاولى التى اعترفت باسرائيل – الدولة الجديدة – عقب اعلان الاستقلال يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ ، وباعتباره مورد الاسلحة عن طريق تشيكوسلوفاكيا للجيش الاسرائيلى الذى كان يقاتل من أجل وجوده ورغم ذلك ، وعقب انسحاب البريطانيين من فلسطين وعند نهاية حرب الاستقلال ، أجرى الاتحاد السوفيتى – فى ظل زعامة ستالين – اجرى تحولا جذريا فى سياسته تجاه الشرق الاوسط ، ولم يعد ينظر الى اسرائيل على انها قادرة على دعم المصالح السوفيتية فى المنطقة . لقد تحول الآن الاتحاد السوفيتى الى جانب العرب .

وفى سبتمبر ١٩٥٥ اعلن ناصر أمام الملأ عن ابرام صفقة اسلحه تشكيلية (أى روسية) مصرية . وقد أصيبت اسرائيل بصدمة من جراء ذلك فقد كانت الصفقة تتضمن من بين أسلحة أخرى ٢٠٠ مقاتلة قاذفة حديثة ، و ٢٣٠ دبابة و ٢٠٠ حاملة جنود وحوالى ٦٠٠ قطعة مدفعية . ولقد كان هذا يعنى فى ذاك الوقت زيادة كمية ونوعية لا مثيل لها من قبل فى مستوى التسليح فى الشرق الاوسط . ففى ضربة واحدة انهار توازن القوى الاقليمى .

وعند هذه النقطة الحرجة فى تاريخ اسرائيل ، كانت فرنسا هى الامل الوحيد فلقد أسهمت الحرب فى الجزائر والمساعدة التى يقدمها ناصر لجبهة التحرير الجزائرية والتعاطف الطبيعى تجاه نضال اسرائيل البطولى والمنفرد من جانب المقاومة الفرنسية وأزمة السويس – أسهم كل هذا فى تنمية علاقات وثيقة بين اسرائيل وفرنسا . فلقد كانت فرنسا هى التى زودت اسرائيل سرا بالاسلحة الضرورية لهزيمة الجيش المصرى فى حملتها الخاطفة فى سيناء فى أكتوبر ١٩٥٦ . وفضلا عن ذلك ، كانت فرنسا تؤيد باستمرار

اسرائيل فى الساحة الدبلوماسية الدولية ، وكذا تساندها اقتصاديا ورغم ذلك وفى أعقاب انسحاب فرنسا من الهند الصينية وقناة السويس ، أصبح واضحا أنها قد أصبحت قوة من الدرجة الثانية فقط . وقبل ذلك بشهور قلائل حسب ، وخلال احتدام حملة السويس ، أرسل بولجانين رئيس الوزراء السوفيتى رسائل لرئيس وزراء بريطانيا وفرنسا أوهمهما فيها بحرب نووية .

ولقد أظهرت ضغوط التهديدات الامريكية والسوفيتية التى مورست فى آن واحد على كل من البريطانيين والفرنسيين، والتى أرغمتهما على وقف عملية السويس ، انحدرت اهمية هذين البلدين بالنسبة للدول العظمى ولم يغب ذلك عن رئيس الوزراء بن جوريون الذى تلقى رسالة شخصية من رئيس الوزراء السوفيتى كانت تحتوى – ضمن تهديدات أخرى – الآتى :

« ان الحكومة الاسرائيلية التى تنفذ ارادة الآخرين وتتصرف بناء على تعليمات تتلقاها من الخارج ، تتصرف – على نحو اجرامى وغير مسئول – بمصير السلام وبمصير شعبها نفسه . انها تبذر بذلك الكراهية لدولة اسرائيل بين شعوب الشرق ، الامر الذى من شأنه أن يؤثر على مستقبل اسرائيل والذى يضع وجود اسرائيل كدولة ، موضع المخاطرة (٥ نوفمبر ١٩٥٦) .

وكان بن جوريون يعلم جيدا أن التهديد السوفيتى لا يعدو كونه خدعة . ورغم ذلك وبعد مضى عام ، كان بن جوريون لايزال يشعر بالرجفة عند التفكير فى خطاب بولجانين وحتى بعد انتصار اسرائيل فى حملة سيناء – وهى هزيمة اكبر جيش عربى خلال اقل من عقد – لم تتلاش عداوة العرب لاسرائيل .

وقد كان بن جوريون مقتنعا بأنه فى ظل غياب تغير حاسم فى الصراع العربى الاسرائيلى ، لمن ستستمر هذه الكراهية لسنوات قادمة . ان أيا من الدول الكبرى لا يمكنها ان تضمن أمن اسرائيل فى المدى الطويل ومن ثم كان بن جوريون يرى ضرورة أن تتحرك اسرائيل تحركا مستقلا بدرجة ما ، وصولا الى ضمان وجودها دون عون خارجى .

وقد اقترح هذا الحل اثنان من أقرب مساعدى بن جوريون فى شئون الأمن وهما : الجنرال موشى ديان رئيس أركان جيش الدفاع الاسرائيلى . وشيمون بيريز نائب بن جوريون المقرب منه فقد اقترح هذان المستشاران الكبيران للأمن القومى أن تبنى اسرائيل مفاعلا نوويا مستقلا ، وذلك لتعويض امكانية تعرضها للاصابة الاقليمية ولنقص القوى المحاربة ، واوضحا ان شأن هذا اتاحة مجال أوسع للمناورة الدبلوماسية فى العالم العربى وبين الدول الكبرى . ولقد بلغ هذا القرار الكبير من الحساسية درجة أن بن جوريون

ابقاء فى طى الكتمان ، ولم يطلع عليه معظم أعضاء مجلس وزرائه غير أنه كان قرارا لا رجعة فيه . وطالما انه لا توجد أى وسيلة أخرى مضمونة لضمان وجود اسرائيل وأمنها فان اسرائيل ستتجه الى فرنسا — حليفتها الوثيقة الوحيدة — طلبا للمساعدة فى تنمية مركز أبحاث نووى اسرائيلى .

وفى أوائل أكتوبر ١٩٥٧ ، وافقت الحكومة الفرنسية على مساعدة اسرائيل فى ارساء أساس المعرفة والقدرة النووية ، التى اعتبرها بن جوريون بمثابة الضمان النهائى لوجود اسرائيل فى المدى الطويل . وقد أبلغ شيمون بيريز الذى كان مسئولا عن المفاوضات السرية بين اسرائيل وفرنسا بن جوريون أنه قد توصل الى اتفاق .

وعندئذ بدأ السباق النووى فى الشرق الاوسط .

٢ — الأسد والحملان :

مولد المناقشة النووية فى اسرائيل

فى ١٦ ديسمبر ١٩٦٠ نشرت صحيفة « الديلى اكسبريس » عناوين مثيرة تعلن أن اسرائيل تضطلع بعملية تطوير أسلحة نووية . وكان تقرير الصحيفة يستند الى مصادر المخابرات الامريكية والبريطانية ، ويناقش القلق الضخم الذى يسود الغرب من جراء احتمال تطوير أسلحة نووية فى اسرائيل ثم نشرت صحيفة « واشنطن بوست » بعد ذلك بيومين ، أن التقديرات الرسمية فى واشنطن (أى وكالة المخابرات المركزية الامريكية) ترى انه سيكون فى وسع اسرائيل انتاج أسلحة نووية فى غضون السنوات الخمس القادمة . وذكرت صحيفة « النيويورك تايمز » فى نفس اليوم أن الجهود النووية الاسرائيلية تبذل بالتعاون مع فرنسا .

وقد سبب كشف هذه الانباء قلقا عميقا لبن جوريون . فلقد ضاعت سدى الجهود التى بذلها لابقاء ستار من السرية على مشروع الابحاث النووى. ذلك أنه فى الفترة من أكتوبر ١٩٥٧ الى ديسمبر ١٩٦٠ اشترك مئات المهندسين والفنيين الاسرائيليين فى بناء مركز الابحاث النووية الاسرائيلية فى ديمونا .

غير أن تغيير الحكومة فى فرنسا — واقامة الجمهورية الفرنسية الخامسة برئاسة ديجول — قد تمخض عن وقوع أزمة مؤقتة فى العلاقة الخاصة بين فرنسا واسرائيل . ففى ١٤ مايو ١٩٦٠ استدعى كوف دى مورفيل وزير خارجية فرنسا السفير الاسرائيلى والتر ايتان وأبلغه ان فرنسا لن تزود اسرائيل باليورانيوم اللازم للأبحاث النووية والذى كانت الحكومة الفرنسية السابقة قد وعدت بتزويد اسرائيل به . وفضلا عن ذلك ، رأى كوف دى مورفيل انه يتعين على اسرائيل أن تعلن على الملأ عن وجود مركز ابحاثها النووى . وكان من الممكن الافتراض بأن هذا التغير العميق قد اتخذه الرئيس ديجول الذى كان يريد انهاء العلاقة الخاصة بين الدولتين ، ويريد تحسين علاقات فرنسا مع العالم العربى .

ولهذا ، وصل بن جوريون — الذى كان هذا الأمر ليس خيبة أمل شخصية خطيرة بالنسبة له فحسب ، وانما كان كذلك يخشى أن يتعرض امن اسرائيل للمساومة والتدمير ، وصل بن جوريون الى باريس فى ١٣ يونيو ١٩٦٠ للاجتماع مع الرئيس الفرنسى . وقد بدت هذه الزيارة الرسمية ناجحة للغاية ، باستثناء مشكلة التعاون النووى بين فرنسا واسرائيل غير أنه تم التوصل الى حل وسط بين الزعيمين حول هذه المشكلة ، ويقضى

بان تعطى اسرائيل ضمانات بانها لا تعتزم انتاج اسلحة نووية ، وانهـا لن تنشىء مصـنعا خاصـا لانتاج البولوتونيوم ، بينما وعـدت فرنسا بامداد اسرائيل بما تبقى من الأجزاء اللازمـة لاستكمال اقامة المفـاعل النـووى الاسرائيلى . كمـا اتفق عـلى ان تعلن اسرائيل عن انشـاء مركز نووى للأغراض السلمية فى ديمونا .

غير انه كان من المفترض ان الفرنسيين لن يأخذوا تعهـدات اسرائيل ماخذ انجد بشأن هذا الموضوع الحساس للغـاية ، ولذلك سربوا بعض المعلومات الخاصة بالمركز النووى الاسرائيلى فى ديمونا للولايات المتحـدة . ومع ذلك ، كانت المخابرات المركزية الأمريكية تعلم بالفعل ، فيما يبدو ، عن المشروع الاسرائيلى الجـديد . وليس ادل على ذلك ، من أنـه فى مارس ١٩٥٨ ، وبعد اشهر قلائل من قرار باريس والقدس ، الخـاص بالتعـاون النووى فيما بينهما ، سجلت شاشات الرادار الاسرائيلى طـائرة تحلق على ارتفاع كبير فوق النقب ، ومن المرجح انها كانت فى مهمة استطلاعية . وقـد انطلقت على الفور طائرتان اسرائيليتان من طراز ستير ٤٠ لاعتراض هـذه الطائرة المجهولة . وعندما فشلا فى اعتراضها ، أطلقت لأول مرة المقـاتلة المتقدمة للغاية وهى السوبر مستير ب ــ ١١ لاعتراضـهـا . غير ان كافه الجهود الاسرائيلية ذهبت سدى . ولم يستطع الطيارون الاسرائيليون سوى التعرف على ان طائرة الاستطلاع هى الطائرة الامريكية الشـهيرة ى ــ ٢ وكانت محصـلة ذلك بالنسبة لصانعى القرار الاسرائيلى هى أن المخـابرات المركزية الامريكية قد علمت بشأن المشروع السرى الجـديد . ويبـدو ان الفرنسيين ، قرروا بعد زيارة بن جوريون لباريس ان يضـموا الضغوط الأمريكيه الى جانب ضـغوطهم ضـد اسرائيل ، ولذلك تسربت أنبـاء المفـاعل للصـحف .

واصـبح بن جوريون مضطرا الى الاعتراف بأن اسرائيل تبنى مركزا للأبحاث النووية فى ديمونا . وفى ٢١ ديسمبر ١٩٦٠ أعلن فى الكنيست أن اسرائيل تبنى مفاعلا نوويا فى النقب بقصد المسـاهمة فى تنمية المنطقة . واشار الى أن قوة المفاعل ستكون ٢٤ ميجاوات وانه يهدف الى تدريب العلماء اللازمين للزراعة وتصـنيع الدواء والصـناعة والعلوم ، وذلك حتى يمكن لاسرائيل أن تصمم وتنتج مفاعلها النـووى فى غضون عشر سنوات أو خمس عشرة سنة . وأكد على أن اسرائيل لا تعتزم انتاج أسلحة نووية . غير أن هذا الاعلان لم يخفف ، فيما يبدو ، مخاوف المخابرات والحكومة الامريكيـه تجاه النوايا الحقيقية لاسرائيل .

ففى ٣ ينـاير ١٩٦١ قدم السـفير الامريكى فى اسرائيل لجولدا مائير وزيرة خارجية اسرائيل رسالة تضم مجموعة من المطالب الانذارية حثت فيها

اسرائيل على شرح خططها ونواياها تجاه البولوتونيوم الذى سينتجه المفاعل ، والموافقة على اجراء تفتيش على منشآتها النووية ، وأن تعلن على نحو قاطع انها لن تنتج أية أسلحة نووية . وقد شعر بن جوريون باهانة بالغة من جراء اللهجة الآمرة التى تنطوى عليها الرسـالة ، وأجرى مناقشـات مطولة مع السفير الامريكى الجـديد فى اسرائيل . وأكد للسفير أن التعـاون الفرنسى الاسرائيلى فى هذا المجال الدقيق سيكون على غرار التعاون القائم بين كندا والهند ، أو أى اتفاق بشأن تعاون نووى آخر من جانب واحد واشار الى أن البلوتونيوم الذى سينتجه المفاعل سيعاد الى البلد الذى زودنا باليورانيوم المخصب . وفى الوقت نفسه ، أعرب بن جوريون عن اعتراضه على اخضاع المفاعل الاسرائيلى للتفتيش الاجنبى وقال شارحا للسفير الشاب « اننا لا نولى اى اهتمام تجاه أية دولة معادية تريد التدخل فى شئوننا الداخلية » غير انه كان ، من ناحية أخرى ، مستعدا لان تقوم أمريكا أو أية دولة أخرى صديقة بزيارة المنشآت النووية الاسرائيلية ــ على ألا تجرى الزيارة فى المسـتقبل القريب ــ وانما بعد أن تخف حدة الاثارة الناجمة من جراء كشف أنباء المشروع النووى الاسرائيلى .

وقد أحيا الضغط الامريكى المتصاعد ، المناقشات ، داخل اسرائيل . حول امكانية الرغبة فى تحقيق استقلال نووى . وبدأ مجلس الوزراء وأعضاء الاحزاب ــ الذين كانوا لا يزالون يجهلون البـرنامج النـووى الاسرائيلى ــ فى التعبـير عن آرائهم الخاصة بشأن هـذا الموضوع وكان أن تعـرض بن جوريون للنقد من جانب خصومه داخل اسرائيل ، وكذا من جانب أصدقائه وأعدائه فى الخارج . فقد أعرب أعضاء الحزب الحاكم ماباى ، مثـل أشكول وجولدا مائير وسابير عن اعتراضهم على تطوير خيار نووى بالنسبة لاسرائيل وكان أشكول وسابير وكلاهما خبير اقتصادى ، يخشيان من التكاليف الهائلة لهذا المشروع أما جولدا مائير التى كانت لسنوات عديدة عدوة لبيريز ، فقد أقامت اعتراضها تجاه المشروع على أسباب شخصية أكثر منها موضـوعية أو منطقية .

وهكذا ، وفى أوائل الستينيات انقسمت الصفوة السياسية فى اسرائيل حول السياسات النووية الاسرائيلية وكان السؤال المطروح آنذاك هو : على أى شىء يمكن لاسرائيل أن تعتمد خلال العقد القادم ، أتعتمـد على جيش تقليدى قوى يستند أساسا الى الدبابات ، والطائرات التكتيكية ؟ أو تعتمد على اسـتخدام التكنولوجيات المتوقعة خلال السـبعينيات على نحو ما تثير حماس « الاعضاء فى مجموعة الامن الاسرائيلى » الى ضرورة تنفيذ البرنامج النووى .

وقد وجد ديان وبيريز انهما قد اصبحا ضمن الاقلية فى هذه المناقشة المثارة واستخدام ايجال الون القائد السابق « للبالماخ » والذى يعد واحدا من اكثر العقول العسكرية الاسرائيلية اصالة وذكاء ، ضد ديان وبيريز حججا دامغة .

ويبدو ان بن جوريون ، الذى واجه هذه الضغوط الخارجية ، وكذا المشاكل الداخلية الاخرى ، قد قرر التقاعد وترك المهمة لجيل اكثر شبابا . لقد كان قرارا صعبا بالنسبة له . فقد ظل طوال سنوات عديدة يقود اسرائيل خلال الازمات والعواصف السياسية مستخدما براعته السياسية فى ذلك . وكان هدفه دائما ان ترسو اسرائيل على شاطىء الامان غير انه مثل (النبى موسى لم يصل ارض الميعاد . وعلى الرغم من ان السلام مع العرب كان بأى حال امرا منشودا . كان بن جوريون لا يزال يأمل فى ان يكون الهيكل الاساسى النووى الذى أرساه مع مساعديه ضمانا أكيدا ضد سعى العرب لتدمير اسرائيل ، وانه بايجاد خيار نووى ، سوف ينشأ ميزان الرعب فى الشرق الاوسط مما يؤدى الى اقرار السلام .

غير أن التطورات التى أعقبت ذلك وضعت حدا لهذه الآمال .

٣ ـ كابوس ناصر

وحل السادات

اصبحت المسالة النووية بالنسبة لناصر فى مصر ، وكذا بالنسبة لبن جوريون فى اسرائيل (مثل أى عناصر أخرى فى المواجهة العربية الاسرائيلية) مسالة حاسمة فقد كان طموح ناصر يستهدف تصفية الدولة اليهودية ومحو اسمها من خريطة الشرق الاوسط ، كوسيلة لتحقيق الوحدة العربية فى ظل سيطرته واذا ما استطاعت اسرائيل الحصول على القنبلة فانه سيكون فى وسعها القضاء على ذلك . ومن ثم ، وحتى يتسنى شل فعالية هذا التهديد بالنسبة لاهدافه (ناصر) حاول ناصر اتخاذ اجراءات مضادة معينة .

ففى بداية عام ١٩٦١ ، واثر تسرب أنباء الجهود الاسرائيلية الخاصة بانشاء المفاعل النووى ، دعا ناصر اللجنة العربية الاستشارية للشئون العسكرية للانعقاد . وكانت تتألف من رؤساء أركان الجيوش العربية . وكان هدفها تزويد ناصر بمشروع شن غارة وقائية على المفاعل النووى الاسرائيلى فى ديمونا . وقد اعترف ناصر نفسه بأن الاجتماع فى ذاك الوقت كان يرجع الى انه يشعر بقلق بشأن انتاج أسلحة نووية اسرائيلية .

بيد أن هذا الاجتماع لم يكن يكفى بالنسبة للرئيس المصرى الطموح فقد كان يدرك ان « الحرب العربية الباردة سوف تستغرق العالم العربى المنقسم سنوات عديدة اخرى قبل ان يكون مستعدا لأن يتوحد لخوض حرب ضد اسرائيل . وشعر ناصر بأن عليه أن يعمل على الفور لايجاد تهديد مضاد يمكنه ـ تبعا لفلسفته ـ أن يشل فعالية التهديد النووى الاسرائيلى الجديد .

وفى نهاية عام ١٩٥٩ بدات بالفعل جهود مصرية لبناء طائرات أسرع من الصوت وصواريخ أرض ـ أرض . فقد جرى تعبئة مئات من العلماء الألمان ، معظمهم من قدامى النازيين ، للعمل فى مصر فى ثلاثة مشروعات سرية للغاية . أولها كان يدعى المشروع ٣٦ وفى هذا المشروع كان « ويلى ميسير شميدت » الأب الشهير لطائرة الحرب العالمية طراز ام . اى . ١٠٩ ـ مشغولا فى بناء طراز جديد من الطائرات للدكتاتور المصرى ، تسمى الطائرة طراز اتش ـ ايه ـ ٣٠٠ أما فى المشروع الثانى الذى كان يطلق عليه ١٣٥ ، فكان « فرديناند براندنير » يرأس مجموعة من المهندسين والفنيين الألمان والمصريين الذين كانوا يحاولون تطوير محرك طائرة نفاثة للمقاتلة التى تصنعها المجموعة الأولى . أما المشروع الأكثر سرية فكان يسمى ٣٣٣ أو (الثلاث ثلاثات) كما

يطلق باللغة العربية . ففى هذا المصنع كان يجرى بناء صواريخ ارض ارض متوسطة المدى . وكان من المفترض أن يتراوح مداها ما بين ٢٨٠ الى ٥٨٠ كيلو مترا ، او ان يمكنها ، كما قال ناصر فى احدى خطبه ، ان تصيب اى هدف فى جنوب بيروت .

ويبدو أنه عندما اكتشف ناصر نشاطات اسرائيل فى ديمونا ، قرر ان يجرى تغييرات قليلة فى خططه فقد كان قبل ذلك يعتزم ان يزود رؤوس صواريخه بشحنات متفجرة تقليدية ، ثم قرر أن يشرع فى تنفيذ مشروعات جديدة من شأنها أن تزود برؤوس غير تقليدية وكان المشروع الأول يسمى ايزيس ، أما الثانى فكان يسمى كليوباتره .

وكان من المفترض أن يزود مشروع ايزيس رؤوس الصواريخ بمواد خطيرة جديدة هى كوبالت ٦٠ وهى وحدة نظائر مشعة يمكنها أن تنشر اشعاع مهلكا فوق مساحات شاسعة من اسرائيل . وكانت البدائل الأخرى مثل الغاز والمواد الكيماوية أو البيولوجية يجرى بحثها باعتبارها مواد ملائمة لتحقيق هذا الهدف .

أما المشروع الثانى فكان يهدف الى انتاج رؤوس نووية باعتبارها تهديدا مضادا للقنبلة الذرية الاسرائيلية المفترضة . ولما كانت مصر لا تملك فى ذلك الوقت أية مفاعلات نووية أو أنه لا يوجد لديها على الأقل مفاعلات فى قدرتها توفير المواد اللازمة للاسلحة . فقد اعتزمت مصر شراء يورانيوم ذى درجة منخفضة من السوق العالمى الحر ثم تخصيبه باستخدام اساليب فنية خاصة جرى تطويرها فى المانيا الغربية وهولندا .

بيد انه لم تنجح الجهود المصرية المستقلة ، ولا جهود ناصر فى توحيد العالم العربى . وعلى الرغم من أن الحكام العرب كانوا يشعرون بالقلق من جراء القنبلة الاسرائيلية ، الا انهم لم يكونوا مستعدين لوضع جيوشهم تحت القيادة المصرية . فقد كانوا يعرفون الرئيس الطموح ، وكانوا واثقين من ان اول شئ سوف يفعله هو الاطاحة بنظمهم ، ثم يتجه بعد ذلك الى التصدى للاسرائيليين .

وكانت اسرائيل ، من جانبها ، قد بدأت عملية سرية ضد العلماء الالمان الذين يعملون من اجل ناصر . ففى نهاية عام ١٩٦٢ بدأت الرسائل الناسفة تنفجر فى ايدى كبار مهندسى المشروع ٣٣٣ . وقد اختفى الدكتور كروج ، وهو واحد من المنظمين الاساسيين لمصنع محركات الطائرات النفاثة ، ولم يعثر له على أثر حتى اليوم . ومن ثم ، عم الخوف كل الذين يشتركون فى المشاريع المصرية السرية من ان ينقوا حتفهم . وكان جهاز المخابرات الاسرائيلى (الموساد) ذو الخبرة الطويلة ، فى أوج نشاطه

مرة اخرى ، مع اقتران ذلك بالجهود السرية من جانب رئيس الوزراء الاسرائيلى — بن جوريون — لاقناع المستشار الالمانى الغربى اديناور بضرورة كف العلماء الالمان عن العمل من اجل مشروعات ناصر المهلكة .

وقد أثمرت عملية المخابرات الى جانب الجهود الدبلوماسية الاسرائيلية فى المانيا الغربية . وكان المصريون قد انشأوا فى منتصف الستينيات عددا من نماذج صواريخ طواز « اس . سى » مثل (القاهر) و (الظافر) و (الناصر) . ورغم ذلك ثبت أنها غير موثوق من عملياتاطلاقها وانها غير دقيقة للغاية بالنسبة لتصويبها . ولم يصل المصريون منذ ذلك الحين الى مرحلة وضع الرؤوس فى الصواريخ نفسها .. فقد اثبتت خطة ناصر الطموحة على انها خطة غير ناجحة بعد سنوات من العمل الشاق والاستثمارات الباهظة جدا .

غير أن هذا الفشل لم يمنع ناصر من محاولة وقف المشروع النووى الاسرائيلى . ففى منتصف الستينيات ، وبينما كانت مناقشة سرية تجرى فى اسرائيل حول الاستثمارات الضخمة اللازمة لتمويل المشروع السرى ، حاول ناصر تنفيذ البديل الثالث . فقد ذكر محمد حسنين هيكل رئيس تحرير صحيفة « الاهرام » والصديق المقرب من الرئيس المصرى ، فى مذكراته ، كيف حاول ناصر الحصول من بعض كبار زعماء العالم ومن بينهم ماوتسى تونج وليونيد بريجنيف على أسلحة نووية جاهزة . غير ان جهوده هذه باءت بالفشل كذلك . ومن ثم اصبح ناصر اكثر شعورا بالاحباط من ذى قبل .

أما البديل الاخير الذى كان لديه فكان أكثر نجاحا . فقد طلب من بريجنيف وغيره من زعماء الكرملين اعطاء مصر ضمانات نووية اذا حصلت اسرائيل على قنبلتها . وذكرت صحيفة « نيويورك تايمز » فى ١٤ فبراير ١٩٦٦ فى تقرير لها من القاهرة أن (اندريه جريشكو) نائب وزير الدفاع السوفيتى قد أعطى مصر ضمانات نووية معينة ، ولكن لم يكن فى وسع أحد آنذاك أن يعرف نوع هذه الضمانات .

والواقع انه لم يعرف بعد ، بوضوح السبب وراء تحريك ناصر قواته فى صحراء سيناء فى مايو ١٩٦٧ هل حركها كخطوة نحو شن غارة وقائية ضد المنشآت النووية الاسرائيلية أو حركها لأسباب أخرى ؟ بيد أنه لا يوجد أى منطق على الاطلاق فى اعماله هذه ، مالم يكن هذا هدفه الأساسى . ومن المعروف انه قبل يوم أو يومين فحسب من بدء الحرب ، كان ناصر قد بدأ يبتز اسرائيل ويطالب بالجزء الجنوبى من النقب الذى يصل اسرائيل بالبحر الأحمر . ومن المرجح أن هدفه كان ابتزاز اسرائيل فى الميدان النووى كذلك ، ودون أن ندخل هذا الامر فى الحسبان ، لا يستطيع أحد أن يشرح على نحو منطقى ، سلوك ناصر ، عشية حرب الايام الستة .

وسيكون من الخطأ اعتبار ناصر انه الحاكم العربى الوحيد الذى شعر بالقلق تجاه التهديد النووى الاسرائيلى . وذلك ان كافة الحكام السياسيين العرب تناولت خطبهم وبياناتهم مرات ومرات هذا الموضوع . بل ان منظمة التحرير الفلسطينية التى كانت آنذاك لا تزال منظمة صغيرة تعتمد على حسن النية المصرية والسورية والاردنية كانت قلقة ازاء هذا التهديد.

ففى مايو ١٩٦٦ ، القى احمد الشقيرى — زعيم منظمة التحرير الفلسطينية آنذاك خطبة فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الثالث للجنة الوطنيه الفلسطينية . وقد تناول فيها ، ضمن موضوعات اخرى ، الجهود التى تبذلها اسرائيل فى ديمونا . وقال الزعيم الفلسطينى انه ينبغى على العرب ان يستعدوا لشن حرب وقائية ضد اسرائيل قبل ان تصبح الدولة اليهودية دولة نووية . وكان ضمن البيان الختامى لهذا المؤتمر فقرة تحذر الدول العربية من القنبلة الذرية الاسرائيلية . وكانت هذه الفقرة تشير الى أن هدف اسرائيل هو خلق الانقسام بين العالم العربى وأن تغزو المزيد من الاراضى العربية .

ومن الممكن للمرء أن يفهم (السيكولوجية) التى حدت بناصر الى انتهاج مقاومة عنيفة خاصة تجاه المشروع النووى الاسرائيلى . ذلك ان معظم سكان بلاده يتركزون فى وادى النيل ودلتا النيل . ومن ثم تكون اى اصابة لمياه النيل بنشاط اشعاعى من شأنها أن تضع حدا للتاريخ الطويل لمصر . كما ان انفجار قنبلة ذرية اسرائيلية فوق سد اسوان من شأنه ان يسبب انسياب سائل مدمر يصل الى كافة قرى منطقة الدلتا وكذا الى القاهرة نفسها كما يمكن المرء ان يفهم قلق الفلسطينيين . ذلك ان حصول اسرائيل على قنبلة ذرية سيجعلها دولة امر واقع وسيحول دون اخراجها من الشرق الاوسط . غير أن بن جوريون لم يكن يعتزم توسيع الاراضى الاسرائيلية . وأن جهود اسرائيل لم تكن بقصد تغيير الوضع الراهن ، وانما من اجل الحفاظ عليه ، ولذلك كان الفلسطينيون يشعرون بالقلق اساسا من جراء ذلك .

ولم يكن لدى القوات العربية التقليدية ، فى منتصف الستينيات ، اية قدرة على مهاجمة المنشآت الاسرائيلية فى ديمونا . فمن المرجح ان هزيمتهم فى يونيو ١٩٦٧ قد لقنت ناصر وحسين وباقى الزعماء العرب بعض الدروس القاسية . وكان اهم هذه الدروس ان اية محاولة للفوز فى الحرب ضد اسرائيل باستخدام الوسائل التقليدية من المحتم أن تبوء بالفشل . وكان البديل الآخر هو شن حرب استنزاف طويلة فى مناطق الحدود الجديدة على قناة السويس ومرتفعات الجولان ووادى الاردن . وفيما يتعلق بالحدود المصرية والسورية فقد قامت القوات النظامية اساسا بهذه الحرب . اما فى

وادى الاردن ، وكذا فى الاراضى العربية المحتلة ، فان منظمة التحرير الفلسطينية كانت العدو الاساسى لجيش الدفاع الاسرائيلى . غير ان العرب لم ينجحوا سواء بالحرب التقليدية أو بحرب الاستنزاف لم ينجحوا فى تحقيق هدفهم . لقد منى جيش الدفاع الاسرائيلى بخسائر كثيرة فى الارواح ، بيد ان اسرائيل لم تتخل عن الاراضى الجديدة التى استولت عليها فى حرب ١٩٦٧

وقد أدت نهاية حرب الاستنزاف وموت ناصر فى صيف ١٩٧٠ الى خلق وضع جديد فى النزاع العربى الاسرائيلى . فلقد كان للسادات خليفة ناصر — وجهة نظر مختلفة ازاء العلاقات فى الشرق الاوسط . فهو لم يكن يريد استئناف حرب الاستنزاف على ضفاف قناة السويس على النحو الذى كانت عليه بين ١٩٦٩ واغسطس ١٩٧٠ . فلقد كان يفضل ، بدلا من ذلك، شن هجوم شامل مفاجىء قد يؤدى الى تحقيق انجازات عسكرية محدودة ، ويسفر عن مكاسب سياسية قصوى .

ومنذ تولى السادات السلطة كانت تجرى داخل مصر مناقشة جادة حول : كيفية وامكان التصدى للتهديد النووى الاسرائيلى . وكانت الجماعه الموالية السوفييت — ومنها على صبرى وعزيز صدقى وحسنين هيكل واخرون من الشخصيات العسكرية والشخصيات ذات النفوذ — تطالب بانتهاج سياسة نووية مصرية مستقلة نشطة ، أو بالحصول على الاقل على ضمانات نووية سوفيتية أكيدة .

وكانت وجهة نظر أنور السادات مختلفة عن ذلك . فقد كان يرى أنه لا توجد سوى فرصة ضئيلة لتحقيق مظلة نووية مستقلة لمصر ، وانه لن يكون قادرا على الحصول على أجهزة نووية سوفيتية توضع على التراب العربى تحت اشراف سوفييتى مصرى مشترك . وعلى العكس من ذلك ، كان يقرأ قراءة جيدة الاشارات التى كانت تأتى من اسرائيل منذ يوم توليه السلطة فقد كان ديان وغيره فى اسرائيل يلمحون بان أية محاولة عربية للهجوم على اسرائيل فيما وراء خطوط ١٩٦٧ داخل قلب البلاد سوف تواجه بهجوم اسرائيلى مضاد . ومن ثم ، خلص الرئيس الى أن التهديد النووى الاسرائيلى لا ينطبق على أية محاولة عربية لغزو جزء على الأقل من الأراضى التى يحتلها الاسرائيليون منذ ١٩٦٧ .

ووضع السادات هذا فى ذهنه ، وخطط لشن هجوم مفاجىء على اسرائيل عام ١٩٧٣ . ولا يزال غير واضح بعد أن كان السادات قد نسق فى الفترة السابقة فى التخطيط للهجوم ـ نسق وجود مظلة نووية سوفيتية كرادع ، من وجهة نظره ، لرد فعل اسرائيلى نووى محتمل . وفى ضوء ما يمكننا من الحكم على السلوك السوفيتى خلال الحرب وخاصة قرب نهايتها

يكون من المنطقى ان نفترض أنه كان يوجد مثل هذا التنسيق . ففى ٢٣ أكتوبر وصلت سفينة شحن سوفيتية تحمل رؤوسا نووية الى الاسكندرية . ومن المرجح ان هذا كان رد فعل سريع ازاء التهديد الاسرائيلى فى ٩ أكتوبر الذى أكتشفته الاقمار الصناعية السوفيتية التى ترقب من الفضاء كل تحرك داخل اسرائيل غير أن ثمة تفسير آخر لهذا وهو انه قد يكون اشاعة روجتها عن عمد الولايات المتحدة للضغط على اسرائيل لانهاء الحرب .

والواقع أن حرب اكتوبر من وجهة نظر السادات ، يتعين رؤيتها من خلال القول المأثور لكلوفيتس «ان الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى» ذلك انه بعد أن أدرك الرئيس المصرى أن كافة الجهود الدبلوماسية ستؤدى الى طريق مسدود قرر محاولة اللجوء لخيار عسكرى محدود ، مع اقتران ذلك بفرض حظر بترولى ، الامر الذى يؤدى الى انسحاب اسرائيلى ذى مغزى من أراض عربية . وطالما أن مصر لن تهدد ، خلال الحرب ذاتها ، وجود اسرائيل على الرغم من أن ديان كان يرى فى هذه الحرب تهديدا لوجود اسرائيل ــ كان السادات لا يتوقع أن تتعرض مصر أو القاهرة لأى خطر نووى .

ومنذ حرب ١٩٧٣ ومصر تعد خططا طويلة المدى لتشغيل محطات توليد الكهرباء بالطاقة النووية والواقع انه لا يوجد لدى مصر الآن أية منشآت نووية لانتاج قنبلة . ان لديها فحسب مفاعل أبحاث قوته ٢ ميجاوات فى انشاص . وكان السوفيت هم الذين أمدوا مصر بهذا المفاعل من طراز (دبلو ــ دبلو ــ آر ــ سى) فى نهاية الخمسينيات ، غير أنهم لم يشغلوا هذا المشروع . ومن ثم يتدرب فيه العلماء المصريون فى مجال الطبيعة النووية . وفى جميع أنحاء العالم العربى لم تبلغ أية دولة المستويات المصرية فيما يتعلق بالعاملين المؤهلين والخبرة ورغم ذلك ، ومنذ حرب أكتوبر ، فقد انقسمت مصر فى برنامج طموح لبناء محطات طاقة نووية اكثر من عشرين محطة أمريكية والمانية وفرنسية من المقرر أن تصل الى مصر . وقد أعلنت مصر مرارا وتكرارا أنها ضد ادخال الأسلحة النووية الى الشرق الأوسط . ويتسق برنامجها الخاص بالذرة من أجل السلام مع سياستها هذه ، وكذا مع سياسة السادات تجاه اسرائيل منذ ١٩٧٣ .

ولقد كانت زيارة الرئيس المصرى الى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ واحدة من أكبر المفاجآت فى تاريخ الدبلوماسية العالمية الحديثة . ومما لاشك فيه أن أحد أكبر العوامل التى حركت السادات لاختيار هذا الاتجاه فى السياسة هو التهديد النووى الاسرائيلى (ففى خلال المفاوضات الطويلة بين اسرائيل ومصر ، كانت المسألة النووية مطروحة على نحو بارز ــ على الرغم من أن الجانبين ، وفيهم الامريكيون ، كانا يحجمان عن اعلان ذلك لأجهزة الاعلام

العالمية) والواقع أن مصر من الممكن أن تتعرض للاصابة الى حد كبير ، ومن ثم لا يريد الرئيس التعرض لمزيد من المخاطر . ولذلك أيضا ، تخلى السادات عن كل آماله بشأن تدمير الدولة اليهودية . وقد ثبت بالنسبة للسادات أن انخراطه فى النزاع دون أن يسترد صحراء سيناء التى احتلت عام ١٩٦٧ ، وان استمراره فى انفاق أموال طائلة على الجيش الذى من المفترض أن يواجه اسرائيل ، ليست سياسة طيبة . ولذا ، كان عليه أن يختار خطا جديدا ، والا فان اندلاع أية أزمة فى سياق هذه العلاقات الدقيقة السائدة بين بلاده واسرائيل قد تؤدى الى ظهور كارثة التهديد النووى .

وقد استمرت فى مصر مناقشة مريرة حول مزايا ومساوىء انتهاج مصر خيارا نوويا مستقلا . وكان الذين يؤيدون هذا التيار ، وعلى رأسهم اسماعيل فهمى وزير الخارجية يصرون على أنه يتعين على مصر الا توقع معاهدة حظر الانتشار النووى ، وانه ينبغى عليها تحقيق وضع نووى مستقل اذا ما كانت ترغب فى الابقاء على دورها كدولة قائدة فى العالم العربى . ويبدو ان فهمى ومؤيديه كانوا يشعرون بالقلق ازاء أن يصبح الشرق الاوسط منطقة نووية خلال الثمانينات . ذلك ان اسرائيل ودولة عربية على الاقل (من المرجح انها العراق) سيكون لديهما القنبلة . ومن ثم ، وبدون ان تحقق مصر وضعا نوويا ، يترجح ان تفقد مصر الكثير من قدرتها على التأثير فى سياسات الشرق الاوسط . واذا وقعت مصر على معاهدة حظر الانتشار النووى ، فانها ستجمد الوضع وسيمكن للاسرائيليين فى المستقبل ابتزاز المصريين ، وهو وضع غير مقبول بالنسبة لفهمى وجماعته .

والواقع ان قدرة اسرائيل على ابتزاز مصر قد أثارت متاعب للسادات كذلك خلال مفاوضات السلام . فقد نشرت « فلورا لويس » الصحفية فى « نيويورك تايمز » فى ٢ ديسمبر ١٩٧٧ ، أى بعد وقت قصير من زيارة السادات لاسرائيل وقبل ثلاثة أيام من اجتماع السادات مع بيجين فى الاسماعيلية ، أن مصر ستطلب من اسرائيل التخلى عن اسلحتها النووية كجزء من اتفاقية السلام النهائية . غير أن اسرائيل وجدت انه من المتعذر عليها الموافقة على هذا الطلب ، بسبب الجهود التى تبذلها العراق فى هذا المجال . وفى ٨ نوفمبر ١٩٧٨ ، نشرت نفس الصحيفة (نيويورك تايمز) ان اسرائيل رفضت للاسباب سالفة الذكر عرضين مصريين للتخلى عن سباق التسلح النووى فى الشرق الاوسط ، والاقتصار على سباق التسلح التقليدى .

ورفضت اسرائيل ذلك لانه كان لا يزال عليها أن تتعامل مع كابوس يسمى « الجبهة الشرقية » يضم سوريا والاردن والعراق وتؤيدها الدول العربية الأخرى .

ومن ثم ، يمكن القول بانه يوجد الآن مدرستان اساسيتان للتفكير فى مصر · احدهما مدرسة اسماعيل فهمى ، الى جانب هيكل وعلى صبرى وآخرين الذى يصر على أن حصول مصر على قنبلة ذرية سيكون وحده الرد الصحيح على الخيار النووى – الاسرائيلى – أما المدرسة الأخرى ، فهى مدرسة المساعدين المقربين للسادات الذين يرون أنه حتى اذا حصلت مصر على القنبلة – مع انفاق الاموال الطائلة التى تتطلبها – فانها لن تسفر عن حل مثمر · ان مصر يمكن أن تتعرض للاصابة النووية ، ولذا ليس لها الا خيار أن تستمر فى عملية السلام مع اسرائيل · وكان المحرك الأساسى للسادات طوال فترة حكمه هو تجنب ان يخرج المارد النووى من القمقم · غير أنه بالنسبة لبعض الحكام العرب الآخرين لم يكن الامر كذلك ·

٤ – السعى من أجل القنبلة الاسلامية :

ليبيا وسوريا والسعودية وباكستان

يعد الرئيس الليبى معمر القذافى واحدا من أبرز الحكام العرب منذ السبعينيات · فمنذ توليه السلطة فى عام ١٩٦٩ فى انقلاب عسكرى ناجح ضد الملك ادريس ، حقق العقيد الليبى الشاب سمعة هى أنه أكثر الزعماء المتطرفين وغير المسئولين فى العالم ·

ويعتبر القذافى نفسه بمثابة الخليفة الاسلامى للعقيد ناصر · غير أن العامل الفكرى والثقافى للقذافى بسيط للغاية وقد تم وصفه فى كتابه الأخضر هو تقليد للكتاب الاحمر لماو تسى تونج – تبعا لما يرى القذافى ، فان العالم قد اختبر نظريتين أساسيتين فيما يتعلق بنظم الدولة منذ القرن التاسع عشر غير انهما قد فشلتا · وهاتان النظريتان هما · الشيوعية والرأسمالية بكل روافدهما المختلفة · ولذلك يقترح القذافى نظرية جديدة هى : نهج الاسلام والقرآن ، ويجد المرء فيهما أفضل ما فى العالمين الشيوعى والرأسمالى · فهى تجمع بين المساواة فى الحقوق ، والبساطة ، والتواضع ، والاخلاق ، والواقع ان منهاج القذافى يتسم بالتشدد والعدوانية · فهو يؤمن بانه يتعين الاخذ بنظرية القرآن فى جميع أنحاء العالم ، ليس عن طريق الاقناع ، وانما عن طريق القوة · وتبرر أهدافه وسائله تماما · وبهذا المعنى ، يعد استخدام القوة والقهر وحتى الارهاب الدولى ، وسائل مشروعة ·

وبالنسبة للقارىء الغربى الذكى ، فان مثل هذه الاساليب من شأنها فيما يبدو تقويض النظام الدولى ، أو اغتيال الأعداء السياسيين فى لندن وباريس ، أو مساندة الأعمال الارهابية مثل قتل ١١ رياضيا اسرائيليا فى دورة الالعاب الاولمبية فى ميونيخ عام ١٩٧٢ أو التعاون مع ارهابيين دوليين مثل كارلوس الشهير · ويبدو كل هذا كأمور لا يمكن فهمها · ولكنها بالنسبة للقذافى تعد أعمالا مشروعة فى اطار الجهود التى يبذلها لاقامة منهاج اسلامى خالص فى جميع أرجاء العالم ·

ولأن القذافى لا تساوره أية شكوك ، ولأن لدى ليبيا كميات طائلة من البترول أصبح القذافى واحدا من أكثر الشخصيات خطرا فى العالم العربى ·

وتبدو محاولاته الأولى للحصول على أسلحة نووية مثيرة للشفقة فى الوقت الحاضر ، فقد ذهب الزعيم الليبى الشاب الى ناصر فى بداية عام ١٩٧٠ طالبا منه بدء شن حرب واسعة النطاق ضد اسرائيل · وعندما أوضح

له ناصر ، ثم السادات بعد ذلك ، أن مثل هذا الاجراء المستحيل بسبب التهديد النووى الاسرائيلى المستتر ، قرر القذافى أن واجبه المقدس سيكون شل هذه الميزة التى تتمتع بها اسرائيل عن طريق انتاج قنبلة ذرية عربية . ولذلك طلب ، من خلال وسطاء ، من شواين لاى رئيس وزراء الصين الحمراء أن يبيعه معدات نووية . غير أن رجل الدولة الصينى وجد أنه من الصعب جعل الزعيم المتعصب غير المحنك يفهم ان القنابل النووية لا تباع فى السوق الحر العالمى . وكان على العقيد الشاب أن يعود من الصين صفر اليدين .

ولما فشل القذافى فى الحصول على قنبلة جاهزة من على الرف ، شرع فى انتهاج طريق طويل ولكنه يبشر بالأمل . فقد تفاوض طوال سنوات مع الاتحاد السوفيتى لشراء مفاعل نووى . وعلى الرغم من أن السوفيت قد زودوا القذافى بأفضل أسلحتهم التقليدية ، الا انه كان من الطبيعى ان تساورهم الشكوك من بيع المفاعل له . غير انه فى عام ١٩٧٣ ، تم التوصل الى اتفاق باع الاتحاد السوفييتى بمقتضاه للقذافى مفاعل أبحاث قوته ١٠ ميجاوات كما وافق السوفيت على تزويد القذافى بمحطة نووية قوتها ٤٤٠ — ميجاوات .

واذا ما اخذنا فى الاعتبار انخفاض كفاءة الأيدى العاملة فى ليبيا ، وافتقارها الى العلماء النوويين ، الى جانب مالدى ليبيا من فائض من البترول ، فانه يتعين على المرء أن يخلص الى أن القذافى حاول الحصول على خيار نووى عن طريق استخدام المساعدة السوفيتية . والواقع ان الاتحاد السوفيتى ، حتى اليوم ، يراعى بأمانة قواعد معاهدة حظر الانتشار النووى ، التى تسعى الى الحد من انتشار الأسلحة النووية فى ارجاء العالم . ومن ثم يكون من العسير الافتراض انه مكن ليبيا من استخدام مفاعلاته لتحقيق هذا الغرض .

غير ان القذافى اختار بديلا ثالثا وربما كان أكثر وثوقا منه واعتمادا عليه . اذ توجد دلائل كثيرة فى الوقت الحاضر تشير الى أن القذافى قدم للجهود الباكستانية فى المجال النووى · مساعدات تربو على ألف مليون دولار · وعلى الرغم من أن الجدل لا يزال مستمرا حول القدر المحدد لهذه المساعدات المالية ، يتضح أنه يوجد تعاون بين البلدين فى هذا المضمار · والواقع أن التكنولوجيا الباكستانية قد بلغت ، فيما يبدو ، أعلى مستوى فى العالم الاسلامى ، ومن المحقق أن نفترض أن باكستان ستكون أول دولة تحصل على « القنبلة الاسلامية » . ويريد القذافى ، فى ضوء الفشل الذى منى به فى الماضى ، ان يكون واثقا من انه لن يفقد استثماره فى باكستان .

ومن اجل تحقيق هذا ، اشترت ليبيا من النيجر اكبر قدر ممكن من اليورانيوم امكنها ان تشتريه — والنيجر هى أول مورد لليورانيوم فى العالم فيما يرجح — وقد ذهب جزء منه الى باكستان · وحاولت باكستان شراء اليورانيوم مباشرة من النيجر لكن حاكم باكستان يفضل أن تبيع النيجر اليورانيوم للقذافى · وعن طريق تراكم آلاف الاطنان من خام اليورانيوم يسيطر القذافى — من قريب او بعيد — على الجهد النووى الباكستانى ، ومن ثم يبدو انه لديه فرصا طيبة للحصول على القنبلة اذا صنعتها باكستان .

واذا ما حدث هذا ، فان امن اسرائيل ستهدده المخاطر · كما أن وجود قنبلة نووية فى أيدى مثل هذا الزعيم غير المسئول سيشكل مخاطرة محتملة بالنسبة للدول المجاورة لليبيا ، وفيها مصر ، والواقع أن هذا يعد تهديدا للعالم بأسره .

وقد أبدت دول عربية أخرى فى الشرق الاوسط ، الى جانب العراق ، اهتماما بالميدان النووى · غير أنه لا توجد أية دلائل واضحة حتى الآن ، على أنها تعتزم على نحو جاد الحصول على قنبلة .

وتعد سوريا مثالا (كلاسيكيا) على ذلك · فهى من ناحية تبدى اهتماما بتحقيق خيار نووى ، بيد أنها من ناحية اخرى لا تفعل تقريبا اى شىء لتحقيق ذلك · ففى حديث صحفى أدلى به الرئيس السورى الأسد فى ٢٩ ابريل ١٩٧٨ لصحيفة « النهار العربى والدولى » ، قال « ان لدى سوريا خطة مضادة ذات تفاصيل كاملة ، وذلك فى حالة حصول اسرائيل على القنبلة » · ويمكن للمرء أن يفهم مما قاله الزعماء الآخرون لحزب البعث السورى أن سوريا لا تتفاوض بشأن عقد معاهدة سلام مع اسرائيل طالما تتمتع اسرائيل بتفوق نووى · ذلك أن السوريين يشعرون بالقلق فيما يبدو ، مثل فهمى وآخرين فى مصر ، من استخدام اسرائيل لخيارها النووى كورقة على مائدة المفاوضات · ومن ثم كان لدى السوريين بديلان واضحان : انتاج قنبلة نووية سورية ، أو الاستمرار فى الوضع الراهن ورفض المفاوضات .

وفى ابريل ١٩٧٨ ، اتخذ الرئيس الأسد اول خيار نووى بينما كان يزور الهند ، وذلك عندما حاول التوصل الى اتفاق بشأن التعاون النووى بين الدولتين · وكانت الهند قد أجرت اختبارا نوويا ناجحا عام ١٩٧٤ ، غير انها أعلنت أنها لا تعتزم تحقيق وضع نووى مستقل ، كما انه لا تروق لها فكرة التعاون العسكرى مع سوريا فى المجال النووى ، وقد سربت مصادر المخابرات الفرنسية أن هذا هو الفشل الثانى الذى يواجهه الأسد · فقد ردت عليه فرنسا قبل ذلك بشهور قلائل ردا سلبيا فى هذا الصدد .

غير أن فرنسا جددت بذل جهودها فى هذا الشان فى أعقاب الغارة على المفاعل العراقى فى يونيو ١٩٨١ . ففى نهاية يونيو ١٩٨١ ، زار عمر يوسف وزير الكهرباء السورى بلجيكا . وتفاوض لابرام عقد مع عدد من الشركات البلجيكية والسويسرية لبناء محطات لتوليد الكهرباء بالطاقة النووية . ويبدو أن هذه الصفقة تشمل ٦ مفاعلات تقدر قوتها الكلية بـ ٦٠٠ ميجاوات . وفى ضوء الغارة الاسرائيلية ، أكد الوزير السورى أن الصفقة لا تنطوى على اية جوانب عسكرية . ولكن اذا وضعنا فى اعتبارنا الجهود التى تبذلها سوريا لتحقيق توازن فى قدرتها النووية مع اسرائيل ، فلا يوجد اى شك فى ان هذه الصفقة اذا ما تمت سوف تنطوى على جوانب عسكرية هامة .

غير انه بالنسبة للوقت الحاضر ، حيث لا يوجد لدى سوريا اى خيار نووى ، يحاول الأسد الحفاظ على الوضع الراهن بالنسبة للعلاقات بين سوريا واسرائيل . والواقع انه بدون وجود هذا العنصر فى الترسانة السورية ، او على الاقل بدون وجود ضمانات سوفيتية اكيدة ضد اى تهديد نووى اسرائيلى ، بدون ذلك كله يحق لنا أن نفترض أن النزاع السورى ــ الاسرائيلى سوف يستمر .

وتبدى السعودية كذلك اهتماما بالمفاعلات النووية . ولما كان من الواضح ان هذه المملكة البترولية لا تعانى من اية مشاكل تتعلق بتزويد نفسها بالطاقة ، فمن الجلى أن كبار زعمائها يهتمون أساسا بالجوانب العسكرية للمشروع النووى .

ففى ٢٤ ابريل ١٩٧٩ ، نشرت صحيفة كريستيان ساينس مونيتور تقول : انه نتيجة للتقدم الذى تحرزه العراق فى مجالمشروعها النووى، يبدى السعوديون اهتماما بمشروع مماثل . وفى مايو ١٩٧٣ قام الملك خالد بزيارة فرنسا ووقع على عقد صفقة أسلحة تقدر قيمتها بثلاثة مليارات دولار . وقد اتضح فى أعقاب الزيارة ، ان الملك كان مهتما للغاية بتزويد فرنسا بالبترول السعودى مقابل حصول السعودية على مفاعلات فرنسية .

وفى يوليو ١٩٧٩ اميط اللثام عن انه فى وقت مبكر منذ ١٩٧٥ وقعت فرنسا والسعودية على صفقة سرية تقضى بتزويد السعودية بمفاعل فرنسى . ونشرت مجلة « الحوادث » اللبنانية الموالية للسعودية ، والمعروفة بمصادرها الجديدة فى السعودية ، فى ٢٠ يوليو ١٩٧٩ أن السعوديين قد اشتروا شركة (كريسو لوبار) الفرنسية ، وهى القسم العسكرى من شركة (امبان شنيدر) التى تصنع المفاعلات النووية .

واذا ما كانت هذه التقارير تستند على حقائق دقيقة فهى تعنى ان السعوديين ينتهجون اختيارا نوويا . واذا ما كان الأمر كذلك ، فان السبب الرئيسى لهذا التغير لابد ان يكون هو العراقيين . ذلك ان السعودية تعد دولة من الدول التى تحبذ استمرار الأوضاع الراهنة فى سياستها الداخلية والخارجية ، وتحاول جعل الشرق الأوسط منطقة منزوعة السلاح النووى . ويدرك حكام السعودية ان انتاج قنبلة ذرية يعنى ان يبلغوا مستوى عاليا من الأيدى العاملة القادرة على انتاج القنبلة . غير ان مثل هذه المجموعة من الشبان المثقفين العلميين من الطبيعى ان يشكلوا تهديدا على الأسرة الحاكمة . وفى ضوء هذا المعنى يفضل السعوديون دائما الوضع الراهن فى الشرق الأوسط ، دون ان يندلع فيه سباق جديد للتسلح النووى . وفى وسع المرء ان يفترض لذلك أن السعودية قد استفادت من الغارة الاسرائيلية على المفاعل العراقى اكثر من اى دولة اخرى فى الشرق الأوسط .

ولكن من المرجح ان اول دولة اسلامية ستصنع القنبلة ستكون دولة غير عربية ، وانما ستكون دولة لم تتخذ اى موقف نشط فى النزاع العربى الاسرائيلى،الا وهى باكستان .

ففى يناير ١٩٧٢ ، عقد مؤتمر سرى فى (مولتان) وهى مدينة صغيرة فىجنوبشرق صحراء باكستان . ذلك أن (ذو الفقار على بوتو) رئيس وزراء باكستان ــ آنذاك ــ الذى صدمته نتائج الحرب الأخيرة بين بلاده وبين الهند ، قد جمع كل كبار العلماء النوويين الباكستانيين فى هذا الاجتماع ، وكانوا مجموعة تتألف من خمسين عالما وقد دارت مناقشتهم معه حول القنبلة الذرية . وقد طرح عليهم هذا السؤال « هل يمكنكم تزويدى بالقنبلة ؟. » وكان ردهم ايجابيا . وقد ارتاح بوتو لهذا الرد ووعد بتزويد علمائه بكل ما يحتاجون اليه .

وفى فبراير ١٩٧٤ ، عقد فى باكستان اول مؤتمر للدول الاسلامية . وكان اهتمام معظم العالم يتركز على الحظر البترولى وغيره من مثل هذه الموضوعات ولكن وراء (الكواليس) كان بوتو يتفاوض على صفقة مع العقيد القذافى الذى وافق بمقتضى هذا الاتفاق السرى جدا على دعم جزء من الجهود الباكستانية للحصول على القنبلة الذرية . ووافقت باكستان على تزويد الليبيين بالاجهزة والخبرة حتى يتسنى لهم صنع قنبلة فى باكستان وشرح العقيد القذافى أنه يفضل أن تتركز كافة جهود ليبيا النووية فى باكستان ، لأن اسرائيل لن تدع دولة عربية فى الشرق الأوسط تنتج قنبلة نووية على أرضها .

وفى مايو ١٩٧٤ ، فجرت الهند قنبلة نووية من اجل الأغراض السلمية .

وكان الهنود قد استخدموا نفس المفاعل الذى يستخدمه الباكستانيون وهو كندى « طراز كاندو » ، وتمتلكه الدولتان منذ بداية الستينيات ويعد هذا المفاعل فريدا فى نوعه . اذ ان انتاجه الجانبى هو اليورانيوم وله نظام للتحكم من بعد ، ويمكن العلماء من ادخال او تحريك كابسولات اليورانيوم دون عرقلة اداء المفاعل .

وقد اصبحت الولايات المتحدة قلقة جدا بشأن احتمال الحرب النووية بين الهند وباكستان . وقد ضغط هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية على فرنسا وباكستان لالغاء الصفقة التى عقدت بينهما والتى كانت فرنسا تزود باكستان بمقتضاها بمصنع لمعالجة البلوتونيوم الذى يمكن باكستان من أن تنتج خلال عام ما يكفيها من البلوتونيوم لانتاج ما بين ١٠ الى ١٥ قنبلة فى حجم القنبلة التى القيت على مدينة نجازاكى . وقد حذر كيسنجر رئيس وزراء باكستان من أنه قد يخاطر بمنصبه كرئيس للوزراء ما لم يقلص جهوده النووية . كما ضغط كيسنجر على جاك شيراك رئيس الوزراء الفرنسى لالغاء الاتفاق . وتوجد دلائل على ان كلا من (بوتو) و (شيراك) قد فقدا منصبيهما نتيجة لذلك الضغط . وكان المصنع الفرنسى لمعالجة البلوتونيوم قد بنى فى باكستان عام ١٩٧٥ . غير انه بسبب الضغط الأمريكى أصر الفرنسيون على ضرورة أن تستخدم باكستان فقط (الكاراميل) وهو يورانيوم منخفض الدرجة — بدلا من استخدام اليورانيوم المخصب الذى يعد فى حد ذاته قادرا على أن يستخدم لانتاج القنبلة .

وكانت باكستان تدرك جيدا الصعوبات التى تواجهها فى المجال النووى . فقد نجح الأمريكيون تقريبا فى الحيلولة بينها وبين الحصول على ما تحتاجه من البلوتونيوم اللازم لصناعة القنبلة . ولذلك ، قررت باكستان أن تختار بديلا آخر وهو أن تخصب اليورانيوم فى مصانعها . فقد أرسل مئات الطلبة الباكستانيين الى فرنسا وايطاليا وألمانيا وهولندا حتى يتعلموا الاساليب الفنية الخاصة بتخصيب اليورانيوم . وقد عمل أحد هؤلاء الطلبة واسمه عبد الله قمر جون لمدة عامين فى المركز النووى الهولندى فى (المادو) ، الذى يخضع لرقابة بريطانيا العظمى وألمانيا الغربية وهولندا . غير أنه فى عام ١٩٧٥ اختفى هذا المهندس واختفت معه خطط سرية جدا بشأن بناء مركز حديث لتخصيب اليورانيوم .

وبصفة عامة . يعتبر البرنامج النووى الباكستانى — وهو المشروع ٧٠٦ — يعتبر متقدما عن أى برامج نووية فى اى دولة عربية . ويقدر الآن

ان الباكستانيين اما أن يكونوا قد وصلوا الى المرحلة الاولى من صنع القنبلة واما أنهم سيجرون اختبارا لتفجير نووى قريبا جدا .

ولكن لما كانت باكستان لم تتخذ اى موقف نشط فى اى من الحروب التى نشبت فى الشرق الأوسط ، فان اسرائيل لا تشعر بالقلق من اى تهديد نووى مباشر من جانب هذه الدولة . غير ان مخاوف اسرائيل الاساسية تنبع من التعاون بين باكستان وليبيا والعراق . ذلك أن القذافى يحاول الحصول على قنبلة جاهزة الصنع من على الرف ، مقابل ملايين الدولارات التى استثمرها فى هذا البرنامج اما بالنسبة للعراقيين فان الأمر مختلف . اذ يوجد لديهم مركز نووى خاص بهم — بالرغم من انهم فى حاجة الى المساعدة الفنية من باكستان — ومن انهم فى يونيو ١٩٨١ كانوا متقدمين على كافة الدول العربية فى السباق من اجل صنع القنبلة .

٥ – القنبلة فى « البدروم »

صيغة ديان

١٩٦٣

كان ليفى اشكول هو الذى تولى رئاسة الوزراء ومنصب وزير الدفاع خلفا لبن جوريون . ولما كان اشكول قد تولى هذا المنصب بعد أن كان وزيرا للمالية ، فقد كان يعرف تماما التفاصيل المالية للمشروع النووى الاسرائيلى . غير أنه لم يكن عسكريا محترما ، وانما كان يعمل معه عن كثب بشأن المشكلة العسكرية شخصان هما : اسحق رابين — رئيس اركان الجيش الاسرائيلى — وايجال آلون وزير العمل النشط . وكان كل من رابين وآلون من الأعضاء السابقين فى البالماخ (وهى الفرقة الليلية الخاصة التابعة للهاجانا اليهودى ، اى الحركة السرية اليهودية فى فلسطين التى أسستها الحركة العمالية عام ١٩٢١) . وكانا يؤمنان باتخاذ استراتيجية تقليدية فقط بالنسبة لاسرائيل . ومن ثم كانا ضد المبدأ النووى الذى دافع عنه بن جوريون خلال سنواته الأخيرة فى السلطة . وكانا يطالبان بتخصيص المزيد من الأموال للانفاق على الجيش التقليدى .

وبالنسبة للمجال السياسى ، وافقت اسرائيل على زيارات تفتيشية أمريكية وقدر من المراقبة الامريكية على منشآتها النووية فى (ديمونا) و (ناهال سوريك) . ووافق الرئيس الامريكى ليندون جونسون على أن يزود اسرائيل مقابل ذلك بأسلحة أمريكية من بينها القاذفات المقاتلة (طراز سكاى هوك ١ – ٤ – أى) ودبابات (طراز باتون م – ٤٨) وغيرها من نظم الاسلحة الحديثة .

ولقد كان بن جوريون ضد هذا النمط من السياسة – أى استبدال الأسلحة التقليدية بالخيار النووى المستقل لاسرائيل . ولذلك كان احد الموضوعات الأساسية فى الحملة الانتخابية عام ١٩٥٦ اتهام بن جوريون لاشكول بالاستسلام للضغوط الامريكية حول المفاعل النووى فى ديمونا .

غير أن أشكول لم يوطد الجهود الاسرائيلية فى المجال النووى . اذ أن ما اقدم عليه فى الواقع كان هو ترك الخيار النووى مفتوحا فى المدى القصير ، ولا شىء أكثر من ذلك . وكان هذا يعنى فى الواقع أنه اذا طرات اية تغييرات حاسمة فى الشرق الأوسط ، فانه يكون فى وسع اسرائيل استخدام ما لديها من

طاقة كامنة على وجه السرعة . لقد كان اشكول هو القائل : « أن اسرائيل لن تكون اول من يدخل الاسلحة النووية فى الشرق الاوسط ، ولكنها لن تكون الثانية فى هذا السباق » . وقد أصبح هذا ، فيما يبدو ، السياسة النووية الرسمية لاسرائيل منذ ذلك الوقت .

وقد استمرت سياسة الغياب النووى هذه فى مقابل الدعم الامريكى (فى مجال الأسلحة التقليدية والمساعدات الاقتصادية) حتى نهاية الستينات . اذ اعادت الازمة الداخلية التى نشبت قبل بداية حرب ١٩٦٧ فتح مناقشة السياسة النووية . ففى يونيو ١٩٦٧ ، دعا اشكول ديان للعمل وزيرا للدفاع ، فى محاولة من جانبه للحصول على تأييد قومى . وقد انضم الحزب اليمينى ، أى كتلة جاحال بزعامة مناحم بيجين للائتلاف الجديد والى حكومة الوحدة الوطنية التى تشكلت . وقد اثارت عودة ديان الى الحكومة ، كوزير للدفاع ، مسـألة المبدأ النووى الاسرائيلى . وقد تعرض ديان لمواجهـة من جانب آلون زعم أنه يتعين على اسرائيل أن تستمر فى انتهاج مبدأ الأسلحة التقليدية . وقال آلون أن قنبلة نووية اسرائيلية ستعنى اندلاع سباق تسليح نووى جديد فى الشرق الأوسط . وكان يرى أن اسرائيل عرضة للاصابة بأى هجمات نووية بسبب ضآلة مساحتها وعدد سكانها ولو حدث هذا لنشأ عنه وضع فظيع . وكان هذا الامر بالاضافة الى ان الحكام العرب يمكن أن يكونوا غير عقليين وانهم لا يمكن الوثوق بهم يزيد من مخاوفه بشأن المعركة النووية الفاصلة .

ولقد كان اشكول ، الذى لم يكن خبيرا فى الشئون العسكرية والاستراتيجية يفضل الا يضطر الى اتخاذ قرار حول كون اسرائيل يتعين عليها أن تصل الى المرحلة الاخيرة من القنبلة أم لا وطبقا لما ذكره بعض الباحثين ، نجد أن هذا القرار ربما اتخذه ديان ، الذى عمل كوزير للدفاع فى حكومة المراة العجوز التى كانت لا تزال تطاردها كوابيس المذابح فى روسيا القيصرية ، وهذه المرأة هى جولدا مائير .

لقد اصبحت جولدا مائير رئيسة لوزراء اسرائيل عقب موت ليفى أشكول فى فبراير ١٩٦٩ . وكانت تعترض فى الماضى على المبدأ النووى الذى اقترحه جوريون وبيريز وديان . وكان بن جوريون ، الزعيم العجوز ، قد أوقف نشاطاته السياسية فى نهاية عام ١٩٦٠ . غير أن كلا من بيريز وديان كانا عضـوين فى حكومة مائير وكان ديان هو الذى توصل الى صيغة جديدة هى القنبلة فى البدروم.

فقد اثبتت تجربة حـرب ١٩٦٧ لوزير الدفاع ان اسرائيـل كانت تعتمد لتحقيق امنها على القوى الأجنبية . ذلك ان الحظر الذى فرضته فرنسـا على تصدير الأسلحة التقليدية لاسرائيل فى أعقاب الحرب مباشرة ، ورفض الحكومة البريطانية بيع دبابات (شفتين) لاسرائيـل ، والشروط التى تفرضها الولايات

المتحدة على اسرائيل لبيـع اسلحة لها قد اثبت انها امور تنطوى على مخاطرة بالغة من وجهة نظر ديان . وتبعا لمنطق ديان ، يمكن لاسرائيل ان تحقق ، على نحو مستقل ، معظم الوسائل اللازمة لضمان مستقبلها . وهكذا ، وخلال الايام التى قضـاها ديان فى وزارة الدفاع ، تم التوصـل الى قرار ببناء نظم اسلحة اسرائيلية مسـتقلة ، مثل طائرة (كافير) (القاذفة المقاتلة) ودبابة المعـارك الاسـاسية الاسرائيلية (ميركافا) .

ان معدات مثل هذه يمكنها ضمان مستقبل الدولة اليهودية ، طالما ان العرب وحدهم هم الذين كانوا متورطين فى النزاع . غير أن ديان كان يشـعر بالقلق بصفة اساسية من الاتحاد السوفيتى ذلك ان دعم الروس للعرب كان مضمونا لعدة سنوات طويلة ، فى حين انه لايمكن قول هذا بالنسـبة لعلاقات الولايات المتحدة مع اسرائيل . اذ ان قدرات اسرائيل الدبلوماسية كانت محدودة مقدما . وحتى يتسنى تحسين هذه القدرات ، ولتأمين هذه الأراضى التى تعتبرها اسرائيل ضرورية لدفاعها ، كان عليها ان تثير الشكوك بشـأن استعداد الروس لأن يتورطوا تورطا مباشرا فى النزاع . ذلك ان اسرائيل فى حاجة الى ردع الاتحاد السوفيتى .

وقد زاد من مخاوف ديان اندلاع حرب الاستنزاف على طول قناة السويس والاعمال الارهابية الفلسطينية داخل حدود اسرائيل ، وكذا استعدادات الجيوش العربية الأخرى لخوض حرب ضد اسرائيل . غير أن اكثر ماكان يثير مخاوف ديان هو احتمال الا تستطيع اسرائيـل ، فى المدى الطويل ، تحمل الاعبـاء الاقتصادية لسـباق التسلح التقليدية فى الشرق الأوسط . فعلى الرغم من ان انتصار اسرائيل فى ١٩٦٧ كان مطلقا ، لم يظهر العـرب أية دلائل تنم عن استعدادهم للدخول فى مفاوضـات . والواقع ان اشتراك اسرائيل فى حروب الاستنزاف على طول حدودها قد جعلها تواجه مصاعب اقتصادية خطيرة ، وان الحفاظ على جيش تقليدى قوى قد أصبح عبئا ثقيلا جدا على الدولة اليهودية .

وحتى يمكن الخروج من هذا الطريق المسدود ، وضع ديان صيغة جديدة يمكنها أن تساعد اسرائيل على الاحتفاظ بالأراضى التى تحتاجها من اجل دفاعها وكذا تحمـل التكاليف المتزايدة للجيش التقليدى . وتنص هذه الصيغة على (تخفيف حدة النزاع باعادة بعض الاراضى لمصر وسوريا) ، الى جانب قوة ردع اسرائيلية معقولة ، الى جانب جيش تقليدى يكفى للدفاع عن النفس وخوض حروب على نطاق صغير ، وان كل هذا يساوى تحقيق أمن معقول بثمن معقول.

وطبقا لهذا المبدأ ، سيكون فى وسع اسرائيل أن تعيد بعضا من الاراضى المحتلة وأن تحـدد ميزانيتها العسـكرية ، ذلك أن اعادة جزء من هذه الأراضى سيقلل من دافع العرب لخوض الحرب ، وان هذا الدافع سيتضاءل كثيرا عندما يكتشف العرب الخيار النووى الاسرائيلى .

ولا يزال منطق ديان سليما حتى الآن . ولكن حتى يمكن لاسرائيل تنفيذه ، لابد من أن تعلن على الملأ حقيقة ان لديها خيارا نوويا (وهى حقيقــة يفترضها على الاقل معظم الخبراء فى هذا الميدان) .

غير ان عيب هذه الاستراتيجية ان المرء عندما يختارها لايمكنه اختيـــار عكسـها . والواقع ان السياســة الرسمية تطالب بجعل الشرق الأوسط منطقه خالية من الاسلحة النووية ، على غرار الاتفاقات التى وقعتها دول امريكا اللاتينيه فى هذا الشأن . ولقد أعلن ديان ، عندما كان وزيرا الخارجية ، فى الأمم المتحده انه يتعين على كل الدول المجاورة لاسرائيل أن تشترك فى مفاوضات مباشرة بقصد الاتفاق على جعل الشرق الاوسط منطقة خالية من الاسلحة النووية .

وقد قال البروفسير يهودا بلوم السفير الاسرائيلى لدى الأمم المتحــده فى٢٢ نوفمبر١٩٧٨ « لقد أعلنت حكومة اسرائيل فى مناسبات عديدة أنها لن تكون أول من يدخل الأسلحة النووية الى الشرق الأوسط . وهذا بيان حكومى رسمى انه تعهد رسمى ينبغى (على الدوائر المسئولة فى كافة أنحاء العالم ان تنتبه اليه كما يجب (وحتى نتفهم هــذا الاعلان الاسرائيلى ، يتعين على المرء ان يأخذ فى اعتباره الكيفية التى ينظر بها الاسرائيليون للأمم المتحدة . اذ يعتبرونها منظمه عاجزة ، ومن ثم فهم يستخدمونها كمنصة للدعاية فقط) .

وقد ادلى ديان فى بداية السبعينيات ببيانات مختلفة حول قدرة اسرائيل النووية . ومن ناحية اخرى ، طمان العالم بأنه لن تخوض دولة عربية الحرب مع اسرائيل حتى نهاية ذاك العقد . واذا ماوضعنا فى اعتبارنا ان تطوير الخيار النووى يستغرق ما بين ٨ الى ١٠ سنوات على الاقل ، يتضح لنا أن ديان كان واثقا جدا من تفوق اسرائيل على العرب .

غير انه كان على ديان ان يكتشف بأسرع مما تصور أن تفكير الرئيس المصرى الجديد كان مختلفا .

فقد فاجأت حرب أكتوبر اسرائيل . اذ كان جيش الدفاع الاسرائيلى يقدر ان مصر وسوريا لن تخوضا حربا واسعة النطاق ضد اسرائيل ما لم تكونا قادرتين على شل فعالية السلاح الجوى الاسرائيلى ، وما لم يكن فى وسعهما التسلل بقاذفات مقاتلة على ارتفاع منخفض الى قلب اسرائيل . وكان هذا المفهوم يدخل فى اعتباره بعض عناصر فقط من عناصر القدرة العربية ومن ثم ، لم يكن ينطوى على كثير من الادراك والمعقولية . ويمكننا أن نفترض كذلك أن الاسرائيليين قيموا عنصرا آخر ، وهو تفوقهم النووى . فقد كانت مراكز المخابرات العسكرية والمدنية تقدر أن العرب لن يشنوا حربا جديدة ضد اسرائيل لانها قد تؤدى الى مواجهة نووية . وعندما يوضع هذا الاعتبار فى التقدير ، نجد المفهوم الاسرائيلى ينطوى على مزيد من المعقوليــة . وبالطبع لم يعترف الاسرائيليون بأن هــذا كان اساس مفهومهم عشــية يوم كيبور

(عيد الغفران) عام ١٩٧٣ ، لأن هذا يعنى أن بحوزتهم القنبلة . غير أن هذا لا يزال هو السبيل الوحيد لفهم منطق تصرفهم خلال هذا الحدث المفجع.

لقد منيت وجهــة النظر الاستراتيجية الاسرائيلية بالفشل من ناحيتين اولهما : أن جيش مصر وسوريا اقاما مظلة من صواريخ أرض ـ جو مما اصاب التفوق الاسرائيلى بالشلل فى مجال الجو . وثانيهما : ان السادات والأسد جعلا اهداف الحرب محدودة منذ بدايتها ذلك انه بتخطيطهما لحرب محـدودة ، كانا (السادات والأســد) يأملان فى تخفيف التهـديد الذرى الاسرائيلى . لقد كانا واثقين من أن اسرائيل لن تستخدم الأسلحة النووية ضدهما طالما انهما لم يهددا وجود دولة اسرائيل داخل حدود ١٩٦٧ .

ولقد كانت المراحـل الاولى من الحـرب أفضل مما خطط لهـا اكثر الجنرالات المصريين والسـوريين تفاؤلا . فقـد نجح الجيش المصرى فى احتلال « خط بارليف » الذى كانت تدافع عنه قوة صغيرة من الدبابات وقوات المشاة . وتمكن الجيش المصرى من احتلال قطاع يبلغ عرضه ٥ اميال على طول قناة السويس ، وفى الشـمال ، نجحت فرق الدبابات السورية فى اختراق الخطوط الاسرائيلية ، واحتلت تقريبا مرتفعـات الجولان كلهـا . ولذلك وطبقا لمصادر مختلفة موثوق منها ، اعتبر ديان الوضع فى ٨ اكتوبر ١٩٧٣ حرجا بالنسبة لوجود اسرائيل وامنها . ومن ثم قدم استقالته لجولدا مائير بسبب ما اعتبره دورة فشل اسرائيل . وحـذر مسز مائير بقوله : « اننا نوشك أن نفقد المعبد الثالث » .

وفى ضوء هذه الخلفية الخاصة بتفسير الرؤيا ، بدا ان كبار المسئولين فى اسرائيل قد اتخذوا قرارا باستخدام التهديد النووى . وهناك دلائل على ان ديان قد اعطى ـ لأول مرة ـ امرا سريا بأن توضع الصواريخ الاسرائيليه الصنع من (طراز اس. اس. اريحا) التى تحمـل رؤوسا نووية ، وكـذا القاذفات المقاتلة من طراز كفير المزودة بشحنات نووية ، فى حالة الاستعداد القتالى . لقد وضعت الأسلحة الاسرائيلية النووية الـثلاثة عشر فى حالة تأهب . واذا ما كان الأمر كذلك ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى تنفذ فيها اسرائيل خيارها النووى . غير أن المصادر الاسرائيلية تنفى، بالطبع ، ما تردد من شائعات بشأن هذا التأهب النووى الخاص . واذا ما كان هذا حقيقة ، فمن العسير فهم ما كان ديان يعتزمه من اعطائه هذا الأمر . فربما كان من المرجح انه اعتبر اطلاق الصواريخ بمثابة خيار واقعى . غير انه من المنطقى الى حـد كبير اعتبار هذا الأمر بمثابة اشارة واضحة لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . فقد كان ديان واثقا من أن القـوى العظمى أقمارا صـناعية استطلاعية خاصـة تدور فوق الشرق الأوسط ، وانها سوف تلتقط على الفـور هـذا النشاط الاسرائيلى وتفهم مغـزاه . فبالنسبة للاتحاد السوفيتى سيكون بمثابة تحذير بالا يشـترك فى الحرب

اشتراكا مباشرا وكان من المفترض ان تفهم الولايات المتحدة ان اسرائيل ، تتعرض لضغط شديد ، وانها فى وضع قد يدفعها الى استخدام قدرتها الأخيرة وتفجر المعركة النووية الفاصلة فى الشرق الاوسط . وكان تزويد اسرائيل بشحنات ضخمة من الاسلحة التقليدية هو السبيل الوحيد لاقناع زعمائها بعدم اللجوء للقدرة النووية الاسرائيلية .

وحتى يتحقق هذا ، لابد من ان ترسل الولايات المتحدة اسلحة بالجو لاسرائيل . وكانت واشنطن تؤجل كثيرا عمليات ارسال الاسلحة ، بالرغم من ضغوط اسرائيل فى هذا الشان . ومن ثم ، كان من شأن الاشارات الاسرائيلية أن توضح لصانعى القرار فى البيت الأبيض ووزارة الدفاع (البنتاجون) ووزارة الخارجية ان اى تاجيل آخر قد يؤدى الى وقوع كارثة فى الشرق الأوسط . اما بالنسبة للروس ، فان ديان قد أدرك انهم سيزودون عملائهم ، مصر وسوريا ، بالمعلومات الخاصة بهذا التحرك الاسرائيلى . واذا ما حدث هذا ، فان ديان كان واثقا من أن كلا من السادات والأسد سوف يحدان من اهداف حربهما حتى يتجنبا اى رد نووى اسرائيلى .

ولقد حققت الاشارات الاسرائيلية ، فيما يبدو ، بعض النتائج . فقد بدأ الأمريكيون فى تزويد جيش الدفاع الاسرائيلى بكميات متزايدة من الأسلحة الامريكية التقليدية عن طريق الجو . **أما الجيوش العربية فقد** حدت من اهدافها ، وقد سدت عليها ، على اية حال ، القوات الاسرائيلية المنتصرة تقدمها .

وقد ارسل الاتحاد السوفيتى ، كرد فعل أو كوسيلة لدعم احتمال تورط سوفيتى مباشر فى الحرب ، سفينة محملة بمعدات نووية الى ميناء الاسكندرية بمصر . وقد اكتشف الأمريكيون طبيعة ما تحمله السفينة بواسطة اجهزة الاستشعار الحساسة للغاية عندما كانت تعبر مضيق الدردنيل . والواقع انه يتبين على نحو قاطع بالنسبة للأمريكيين او الاسرائيليين معنى ودلالة هذا التحرك الروسى . بيد انه كان فى وسعهم استنتاج شيئين **اولهما** اعتبار التحرك الروسى بمثابة اجراء لابتزاز الأمريكيين ، نظرا لأن الخيار النووى قد اثبت انه بالغ الفعالية . وفى ضوء هذا تم اسباغ مزيد من الثقة على المؤيدين لان تنتهج اسرائيل مبدا نوويا مستقلا ، وان هذا من شانه ان يريد حرية اسرائيل على الحركة . اما **الاستنتاج الثانى :** فقد خلص اليه الذين يجادلون فى انالتهديد الاسرائيلى الكامن ، بتدمير البلاد العربية اذا اعلنت الحرب ضد اسرائيل وهددت وجودها ، لم يثبت نجاحه نظرا لأنه فى مثل هذه الظروف اختار السادات تجاهل هذا التهديد الكامن ، وان مصر وسوريا حصلا على ضمانات نووية من الاتحاد السوفيتى لشل فعاليه التهديد النووى الاسرائيلى المحتمل .

غير ان التهديد النووى الاسرائيلى قد كان له ، فيما يبدو ، اثر واحد كان لا يزال مختبئا وان قليلين قد فهموه عام ١٩٧٣ . ذلك ان احد العوامل الأساسية التى غيرت سياسة السادات فى اتجاه اقرار السلام مع اسرائيل . كان اعتقاده وجود القنبلة الاسرائيلية .

لقد خلقت حرب « يوم كيبور » أزمة داخلية فى اسرائيل . ذلك انه على الرغم من ان النتائج النهائية للحرب كانت مرضية نسبيا ، نجد الطريقة التى بدأت بها الحرب ، والمفاجأة وفشل الخطة العسكرية ، قد نجرت زلزالا سياسيا فى البلاد . فقد اضطرت جولدا مائير الى الاستقالة تحت وطأة الانتقادات الشعبية . وخرج ديان معها من الحكومة . وعين اسحق رابين رئيس اركان الجيش الاسرائيلى المنتصر عام ١٩٦٧ ، رئيسا للوزراء ، واصبح شيمون بيريز وزيرا للدفاع .

وهكذا ومرة أخرى يقضى فى قلب مجلس الوزراء الاسرائيلى شخصان كانا مختلفين حول مشكلة المبدأ النووى الاسرائيلى . بيد أن المشكلة كانت تبدو هذه المرة مختلفة . ذلك ان اسرائيل كان ينظر اليها على أنه سيكون لديها القنبلة فى مستهل السبعينيات . ومن ثم نجد موضوعين أساسيين كانا مطروحين للمناقشة بين رابين وبيريز وهما :

(١) الى أى مدى يتعين على اسرائيل أن تستمر فى تنمية قدرتها النووية بالنسبة لقدرتها القتالية ؟

(٢) هل يتعين على اسرائيل أن تعلن على الملأ عن خيارها النووى . كاجراء أساسى لردع العدوانية العربية ؟

ولقد كان شيمون بيريز ، أحد كبار المهندسين الاسرائيليين لقدرة اسرائيل النووية ، يعتقد طوال سنوات عديدة ، أن القدرة النووية يمكنها وحدها اقرار السلام . وكان يرى أن هذا يمكن تحقيقه من خلال مرحلتين (*)

« ان الخطر الكبير الذى تشكله الصواريخ (وكل شىء يقال عن الصواريخ يصدق على نظم الاسلحة الاخرى المماثلة) يتمثل فى حالة وجودها فى الجانب العدوانى فقط أى العرب . ولكن فى حالة وجود الصواريخ لدى الجانبين ، قد لا يحد ذلك من الارادة العدوانية فحسب ، وانما يحد كذلك من خطر الحرب .. لان حقيقة أن كلا الجانبين معرض للاصابة بحيث لا يجب اللعب بالخطط العسكرية » .

وتبعا لما يرى بيريز كانت هذه هى المرحلة الاولى الا وهى ايجاد توازن

(*) المرحلة القادمة ١٩٥٦ ص ١٧٩ .

الرعب فى الشرق الاوسط . ولن يكون فى وسع اسرائيل تحقيقه دون أن تعلن على الملأ مبدأها النووى ، وبدون تطوير خيارها النووى .

وتبعا لما يرى بيريز من أنه عندما يصل الشرق الاوسط الى هذه المرحلة تبدأ المرحلة الثانية :

« ان السلام لن يتحقق من جراء ذاته .. لن تقره أمم أجنبية خارجية انه لن ينمو فى ظل الخلفية السياسية الحالية للشرق الاوسط ، غير أنه فى وسع اسرائيل أن تجعل السلام أكثر مثالا اذا أقنعت العرب بأنه مع استخدام العلم لن يكون لديهم الفرصة لاصابتها ، لافى الوقت الحاضر فحسب ، بل فى المستقبل كذلك » (*) .

ودائما ما يستخدم بيريز تقريبا فى مقالاته الاشارات التفسيرية التى يضعها بين الاقواس والتعبيرات اللطيفة عن الاشياء البغيضة . ولذلك وعندما يتحدث عن العلم ، يجب على المرء أن يفترض انه يعنى به أساسا ورقة اسرائيل الرابحة وهى : التكنولوجيا النووية . فمن وجهة نظر وزير الدفاع الجديد ، يعتبر هذا السلاح هو الحجة السياسية الاساسية التى يمكنها أن توضح للعرب انه ليس فى مقدورهم على الاطلاق تدمير اسرائيل دون أن يدمروا أنفسهم ، ومن ثم يجب عليهم أن يتوصلوا الى اقرار السلام معها .

غير أنه فى مواجهة هذا الرجل الاستراتيجى المؤيد للتكنولوجيا النووية كان يقف رابين الذى يعد الجيش الاسرائيلى منذ مستهل الستينيات لخوض حرب تقليدية . فقد عمل رابين فى الفترة من ١٩٦٨ حتى ١٩٧٣ سفيرا لاسرائيل لدى الولايات المتحدة الامريكية . ومن ثم طور خلال وجوده فى واشنطن مفهوما جديدا اذ كان الامن الاسرائيلى يعتمد — طبقا له — على القرارات التى تتخذ فى البيت الابيض ، ولما كانت الولايات المتحدة الامريكية تعارض بشدة طوال العشرين عاما السالفة ، الجهود التى تبذلها أية دولة للحصول على أجهزة نووية . ولما كان واضحا بالنسبة لرابين أن انتهاج اسرائيل مبدأ نوويا مستقلا . من شأنه أن يلحق الضرر بالعلاقات الاسرائيلية الامريكية ، فقد اعترض على الاستراتيجية التى اقترحها بيريز . وبينما كان رئيس الوزراء رابين يطالب بعلاقات خاصة مع الولايات المتحدة ، يطالب بالحصول على موافقة الولايات المتحدة قبل اتخاذ أية مبادرة اسرائيلية ، كان بيريز يضغط من أجل انتهاج استراتيجية نووية وبذلك يلحق الضرر بالعلاقات الاسرائيلية الامريكية .

ولذلك ، كانت سياسة رابين تتمثل فى استخدام الخيار النووى الاسرائيلى كقوة ضاغطة للحصول على مساعدات عسكرية ودبلوماسيه

(*) نفس المصدر السابق بصفحة ٤٥ .

والاقتصادية من الولايات المتحدة . فكان يرى هذه المساعدات كمقياس للعلاقات بين الدولتين . أما بيريز فكان يرى الورقة النووية الرابحة كوسيلة لتحقيق السلام أو على الاقل التوصل الى وضع عدم الحرب مع الدول العربية . وفى ضوء هذه الخلفية لوجهتى النظر المختلفتين هاتين ، وقعت مصادمات عديدة بين رئيس الوزراء وبين وزير دفاعه ، وليس أدل على ذلك من الآتى :

وفى يونيو ١٩٧٤ زار الرئيس نيكسون الشرق الاوسط . وقد عقدت خلال زيارته هذه صفقة بين الولايات المتحدة وبين مصر واخرى بين الولايات المتحدة وبين اسرائيل . وتقضى الصفقة بان تحصل كل من مصر واسرائيل على محطتين لتوليد الكهرباء بالطاقة النووية . وكانت هذه الصفقة هامة بالنسبة لاسرائيل التى تعتمد اعتمادا كليا تقريبا على المصادر الخارجية للحصول على ما يلزمها من الطاقة كما كانت الصفقة هامة كذلك بالنسبة للمصريين . وفى أغسطس ١٩٧٦ ، أنتهت المفاوضات فى واشنطن وتم التوقيع بالاحرف الاولى الى الاتفاقيات الخاصة بهاتين الصفقتين بين مصر والولايات المتحدة ، وبين اسرائيل والولايات المتحدة . وعند مرحلة معينة كانت الادارة الامريكية فى ظل حكم كارتر مستعدة للموافقة على الصفقة بدون اجراء تفتيش على المنشآت النووية ، ورغم ذلك أصبح واضحا لكافة الاطراف أن التصديق على الصفقة يعتمد على موافقة كل من مصر واسرائيل على السماح للولايات المتحدة باجراء التفتيش على منشآتهما النووية . وكان من المقرر أن يصدق على الصفقة فى منتصف ١٩٧٧ ، غير أن رابين اضطر الى تقديم استقالته بسبب المشاكل السياسية الداخلية والشخصية التى واجهته وأصبح بيريز الزعيم الجديد للحزب (الحاكم) حتى اجراء الانتخابات العامة فى مايو ١٩٧٧ . وقد أدى هذا على الفور الى تغيير موقف اسرائيل ازاء الصفقة . وكان بيريز لا يوافق على شروط عقد الصفقة ، وخاصة تلك المتعلقة بالتفتيش الامريكى ، ولذا لم يوقع العقد على الاطلاق . ولا توجد لامريكا أية رقابة حتى الوقت الحاضر على المنشآت النووية الاسرائيلية .

والواقع ان المناقشة والجدل الذى كان مثارا بين رابين وبيريز لم يوقف البحث النووى الاسرائيلى . فلقد تمكن العالمان الاسرائيليان اسحق تيبزراهل ومناحم ليفين فى عام ١٩٧٧ من احراز تقدم فى مجال معالجة التخصيب عن طريق استخدام أشعة الليزر . وبمقتضى هذا النظام الجديد أصبح من الممكن تخصيب سبعة جرامات من اليورانيوم ٢٣٥ الى درجة ٦٠٪ خلال يوم واحد . ويقدر الخبراء فى هذا المجال أن ٥٠ كيلو جراما من الـ (٦٠٪) من اليورانيوم المخصب هو القدر الذى يحتاجه العلماء لانتاج قنبلة واحدة . وهذه هى أرخص العمليات القائمة لتخصيب اليورانيوم .

غير أن هذا لم يكن الاتجاه الوحيد الذى كانت تعمل فيه اسرائيل . ذلك أن أهداف اسرائيل ، فيما يبدو ، منذ بداية السبعينيات كانت ترمى

الى توسيع نطاق ترسانتها النووية من حيث الكم والكيف ، وكذا ترسانتها فى مجال نظم اطلاق الصواريخ . ومن أجل تحقيق هذا الغرض ، تتعاون اسرائيل مع جنوب افريقيا وتايوان .

وقد اكتشفت أقمار التجسس الامريكية والسوفيتية فى شهر سبتمبر ١٩٧٩ انفجارا نوويا فوق المحيط الهندى على ارتفاع ٢٦ ألف قدم . وقدرت وكالة المخابرات المركزية الامريكية وغيرها من أجهزة المخابرات فى الغرب أن الانفجار نتج عن اطلاق قذيفة نووية من مدفع خاص (عيار ١٥٥ م.م) انتجته شركة امريكية تسمى أبحاث الفضاء ، وكانت اسرائيل وجمهورية جنوب أفريقيا اشتريتا هذا المدفع الخاص ، بعد أن نجحتا فى الافلات من نظم المراقبة الامريكية والبريطانية والكندية . وقدرت مصادر المخابرات الغربية أن الانفجار الذى وقع فى سبتمبر ١٩٧٩ كان تجربة مشتركة بين جمهورية جنوب افريقيا واسرائيل تتعلق بأحد النظم النووية التكتيكية المتطورة جدا .

وقد قال الكاتب الامريكى جاك أندرسون : ان اسرائيل وجمهورية جنوب افريقيا قد وافقتا على التعاون مع دولة ثالثة . ومن المرجح أنها تايوان (وهى الدولة التى تشعر بتعرضها للحصار ، وخاصة منذ حسنت الولايات المتحدة الامريكية علاقاتها مع الصين الحمراء) وقد انضمت لنادى الدول المنبوذة . ويضيف أندرسون : انه فى **اطار هذا التعاون الثلاثى** توجد دلائل على أن جهدا مشتركا يبذل لتطوير صاروخ كروز الذى يبلغ مداه ١٥٠٠ ميل . واذا ما أطلق مثل هذا الصاروخ من اسرائيل ، فسوف يصيب أى هدف فى العالم العربى ، ويصيب كذلك أهدافا عديدة جنوبى الاتحاد السوفيتى . ويمكن لهذا النوع من الصواريخ اطلاقه من طائرة أو من فوق سفينة وبذلك يزيد مداه أمثالا عديدة أخرى . كما توجد دلائل على أن اسرائيل وجمهورية جنوب افريقيا تحاولان انتاج قنبلة نيوترون ، وأنهما يعملان على أساس اقامة ترسانة تكتيكية بنفس القدر الذى يقيمان به ترسانة استراتيجية .

غير أن موقف اسرائيل فى المجال النووى ليس واضحا تماما (ومن المرجح ألا يتضح أبدا) ، ولكن من الممكن تقدير أن الجهد الذى بدأه بن جوريون فى هذا الصدد منذ نهاية الخمسينات قد أسفرت عن نتائج مثمرة للغاية من وجهة نظر الاستراتيجيين النوويين الاسرائيليين .

وتوجد تقديرات مختلفة للقدرات النووية الاسرائيلية ، ويقدر آخر تقارير وكالة المخابرات المركزية الامريكية أن عدد الرؤوس النووية التى تمتلكها اسرائيل تصل الى حوالى ٢٠٠ رأس وأن العدد الاكبر منها مخصص لأغراض تكتيكية ، وتقدر قدرته التدميرية **بأقل من ٢٠ كيلو طنا** . ويوجد

لدى اسرائيل فى الوقت الحاضر مجموعة متنوعة من نظم اطلاق الصواريخ . ذلك أن طائرات الفانتوم اف-٤ اى ، أو الطائرات كافير سى ٢ الاسرائيلية الصنع ، أو الطائرات اف-١٥ و اف-١٦ تعد كلها طائرات مقاتلة قادرة على قصف القنابل . والى جانب ذلك ، يوجد لدى اسرائيل - طبقا لتقديرات المصادر الغربية - ثلاثة صواريخ أرض - أرض على الاقل قادرة على حمل رؤوس نووية . كما يوجد نوعان من الصواريخ الاسرائيلية الفرنسية الصنع من طراز اريما وهما : (ام ٥٠ى - ٦٦٠) ويبلغ مداه ٤٥٠ كيلو متر ، و (م٠دى-٦٢٠) وهو ذو مدى أطول ، ومزود بنظام ملاحى أفضل . كما يوجد لدى اسرائيل صاروخ (لانس اس٠اس) الامريكى الصنع الذى زودتها به الولايات المتحدة فى أعقاب حرب يوم كيبور . ويبلغ مداه حوالى ١١٠ كيلو متر . ويعتقد الخبراء الامريكيون أن فى امكانه حمل رأس نووى تكتيكى وزنه ١١ كيلو جراما وقدرته التدميرية كيلو طن واحد ، الى مدى يبلغ ١١٨ كيلو مترا . ويمكنه اصابة الهدف بدقة فى نطاق ٧٠ كيلو مترا اذا استخدم نظم الملاحة **ذات القصور الذاتى** .

والى جانب نظام الاطلاق الصاروخى هذا ، يترجح أن يكون لدى اسرائيل نظامان آخران فى نهاية الثمانينيات وذلك طبقا لتقدير بعض التقارير وسوف يكون أحد هذين النظامين مدفعا نوويا ، والآخر صاروخ كروز . واذا ما كان هذا هو حقيقة الموقف ، فانه سيكون لدى اسرائيل القدرة على توجيه الضربة الثانية - وهو عنصر هام بالنسبة لدولة مساحتها محدودة ، ومواردها من الايدى العاملة محدودة كذلك . وفى ظل هذه الظروف ، يحق للمرء أن يفترض أن اسرائيل سوف تتحرك من استراتيجية القنبلة فى « البدروم » الى انتهاج مبدأ نووى معلن . واذا ما حدث هذا ، فقد يؤدى الى احداث تغير حاسم فى موقف العالم العربى المعادى للدولة اليهودية . ولقد كان بن جوريون يأمل منذ ٢٥ عاما ، فى أن قدرة اسرائيل النووية قد تحقق السلام فى هذا الجزء المضطرب من العالم .

٦ ــ صدام حسين ومشروع تمـوز

كان امتلاك العراق للتكنولوجيا النـووية أول محاولة عربية تجـاه التسليح النووى ، على الرغم من أن الهدف الرسمى المعان لبناء المفاعل لم يكن انتاج اسلحة نووية .

صدام حسين ، مجلة الأسبوع العربى

(لندن ، ٨ سبتمبر ١٩٧٥)

كتب ريتشـارد لندلى فى مجلة « دى ليسو » ملخصا اسلوب حـكم صدام حسين : « يحكم صدام الشعب وفى احدى يديه بندقية وفى اليد الأخرى النقود . ويشير النقاد الى صدام حسين ــ باعتباره رئيسا لمجلس قيادة الثورة وأمينا عاما لحزب البعث ، على أنه « جزار بغداد » . ذلك أن الضابط البعثى الذى وصل الى السلطة عام ١٩٧٩ قد حافظ على هـذه السلطة من خلال العنف ، تبعا لمفاهيم التاريخ السياسى الحديث) فى بلد يسيطر فيه الحكام ممن ينتمون الى الأقلية السـنية منذ ١٩٦٨ على أغلبية السـكان الذين ينتمون الى الشيعة والاكراد . (يتكون سكان العراق من ٢٩٪ من اهل السنة ، و ٤٦٪ من الشيعة و ١٣٪ من الاكراد . وعلى النقيض من ذلك يتالف الجيش العراقى الذى يسيطر عليه حـزب البعث من ٨٠٪ من السـنة و ١٤٪ من الشيعة و ٤٪ من الاكراد . وان ٩٠٪ من ضباط العراق من السنة) .

ووضع صدام حسين نصب عينيه ، تاريخ الدكتاتوريات السابقة الناجحة والطغاة السابقين ، ولذا قام ــ عندما كان رئيسا لقوات الأمن ومديرا للمخابرات بعمليات تطهـير داخل الجيش ، وأعدم أو نفى عددا من المعارضين من الضباط البعثيين والشيعة والاكراد . كما أنشأ ميليشيا من صفوة الحزب او « الجيش النظامى » ، واختار أعضاءهما من العناصر الحزبية المتشددة الموالية له .

ومع حلول عام١٩٧٨ ، كان النظام العراقى قد أصبح أكثر عنفا واتساما بالمحسوبية . ووجد صدام حسين أفضل أداة للرعب فى شخص خير الله حسين صهره وابن عم البكر ، الحاكم الاسمى . وقد نظم خير الله الذى كان يشـغل منصب وزير الدفاع العراقى منذ ١٩٧٧ ، وكذا حاكم بغـداد ، فرقة اغتيالات تابعة له بدأت سلسلة من الاغتيالات ، من بينها اطلاق الرصاص على (النايف) رئيس وزراء العراق السابق أمام فندق هيلتون بلنـدن . وفى عام ١٩٧٩ تنازل البكر ، الذى كان قد طعن فى السن ، عن سلطته لصدام حسين ، الذى تولى

منصب رئيس مجلس قيادة الثورة . وهنا ، ومرة أخرى ، اطلق صدام حسين ، الذى كان حريصا على الدفاع عن نفسه ، (خير الله) على حوالى ١٢ من الضباط الشيعة المعارضين ، فتم القبض عليهم ، وتعرضوا للتعذيب ، وقتلوا فى عملية وحشية استمرت يوما كاملا ، مما يعيد الى الأذهان ليلة السكاكين الطويلة التى أقامها هتلر . ذلك ان صدام حسين ، والى جانبه حراسه ، قد شاهد بنفسه عملية الذبح الوحشية لمعارضيه من الضباط الشيعة .

ومما لا شك فيه أن العراق يعد بلدا ذات قدرات عسكرية هائلة وكامنة . اذ يبلغ عدد سكانه ١٣ مليون نسمة ، ويصل اجمالى الناتج القومى له ١٨مليار دولار . وتبلغ ميزانيته العسكرية ثلاثة مليارات ونصف مليار دولار سنويا . ويتألف جيشه من ١٩٠ ألف جندى ، وينقسم الى ١٢ فرقة منها ٤ فرق مدرعة وفرقتان ميكانيكيتان . وتوجد فى ترسانة العراق ٢٢٠٠ دبابة (منها دبابة سوفيتية الصنع على مستوى عال من طراز (ت — ٦٢ اس) و ١٧٠٠ قطعة مدفعية ، وعدد من الصواريخ المختلفة . كما تمتلك العراق سلاحا جويا يتألف من ٣٠ ألف رجل ، وهو مزود بمعدات مثل ٤٥٠ طائرة مهاجمة (وهذا العدد أكبر من عدد الطائرات المقاتلة التى تمتلكها بريطانيا العظمى مثلا) ، وكذلك ١٤٠ طائرة ذات مستوى عال مثل الميراج — ٢٣ والسوخوى والتوبولوف ٢٢اس . وتتألف البحرية العراقية من ٤آلاف بحار ، وتضم ١٢زورق طوربيد، ١٤ زورقا مضادا للصواريخ ، و ١٩ زورقا من انواع أخرى . ومنذ عام ١٩٧٣ زاد الجيش العراقى من ٦ أو ٧ فرق الى ١٢ فرقة بالاضافة الى ٣ لواءات أبرار جوى . وخلال هذه الفترة ، تضاعفت قوة دباباته ، وزاد اجمالى طائراته المقاتلة من ٢٥٠ الى ٤٥٠ طائرة بينما قفز عدد طائرات الهليكوبتر من ٨٠ الى ٢٢٥ طائرة . كما حصل العراق على اسطول من حاملات الدبابات ومن المرجح امكان استخدامها ضد اسرائيل .

غير أن اكثر الأشياء التى تنذر بالشر ، هو أن العراق يعد البلد العربى الوحيد فى الشرق الأوسط الذى ينمى قدرته النووية ، وهو الأمر الذى سنناقشه فيما بعد فى هذا الفصل .

ان صدام حسين والعراق لهما طموحان فى منطقة الخليج ، احدهما ذو طبيعة عامة وطويلة الاجل ، وأمر عاجل يتعلق بالاراضى . ذلك ان العراق تريد أن تكون القوة العربية المسيطرة فى الخليج الفارسى ، ولا ترضى بشىء أقل من ذلك . فهى تريد أن تحل محل ايران التى تتفكك وتتحلل ببطء ، والتى تهتم الآن تقريبا بسياساتها الداخلية وعدائها للولايات المتحدة .

وتبعا لما تقوله الصحافة العراقية ، يسعى صدام حسين الى السيطرة على اقليم خوزستان الايرانى (أو عربستان ، كما تسميه العراق) وعلى أقليم بلوخستان الايرانى ، وكذا على الكويت الغنية بالبترول . والواقع ان ايران والعراق قد خاضتا مع بعضهما عددا من الحروب الصغيرة فيما بين عام ١٩٧٣

و١٩٧٥ حول المنطقة التى تقع على ضفتى شط العرب ، وهو النهر الذى يفصل اقليم خوزستان الايرانى عن العراق . وتم التوصل الى اتفاق الجزائر « عام ١٩٧٥ بين شاه ايران وصدام حسين (وقد وعدت فيه ايران بعدم التدخل فى كردستان بالعراق ، مقابل وعد العراق بالكف عن ممارسة الاعتداءات على اقليم خوزستان الايرانى) ، لكن هذا الاتفاق لم يعد قائما الآن . ففى سبتمبر ١٩٨١ ، تفجرت الحرب القديمة مرة أخرى فى نفس اللحظة التى كانت تواجه فيه ايران المحاصرة والمنقسمة على نفسها العقوبات التى فرضتها الولايات المتحدة عليها وقطع العلاقات الدبلوماسية الرسمية .

أما الهدف التالى لصدام حسين المكمل لهيمنته على الخليج فهو تدمير اسرائيل . ذلك ان موقفه المعادى لاسرائيل يتسم بالتشدد والاستمرار والعلانية منذ ١٩٧٨ على الأقل ، وذلك عندما اعلن فى خطاب اذاعه راديو بغداد : « أن الموقف المبدئى والثابت للنظام العراقى ازاء النزاع العربى الاسرائيلى يتمثل فى الرفض الكامل لأى حل سياسى ، وان تسوية النزاع تكمن فى شن صراع عسكرى شامل بهدف انتزاع الصهيونية من المنطقة » .

وقبل ذلك بعام واحد ، وضع صدام حسين واحمد حسن البكر حاكم العراق الاسمى آنذاك والرئيس السورى حافظ الأسد ميثاق العمل القومى ، وهو اساس جبهة الرفض . وقد قامت الجبهة ذاتها خلال الاجتماع الذى انعقد فى طرابلس فى ديسمبر١٩٧٧ ، وتضم العراقوسوريا وليبيا والجزائر واليمن الجنوبيةومنظمة التحرير الفلسطينية . وقد دعت الجبهة فى أعقاب زيارة السادات للقدس . الى شن حرب اقتصادية على السادات والصهيونية والامبريالية الامريكية .

ومنذ ذلك الحين ، غدت الجبهة التى تراسها العراق المسيطرة عسكريا ، قوة فعالة فى جعل دول عربية معتدلة مثل السعودية والاردن لا تخرج عن موقف الجبهة . وقد قدمت العراق الملجأ لاكثر الجماعات الفلسطينية والعربية الراديكالية ومن بينها الجماعات ذات الاتصال المباشر بموسكو مثل جماعة « ابو نضال » (يونيو الأسود) التى تعمل فى اليمن الجنوبية . كما ساندت العراق ثورة ظفار فى سلطنة عمان .

ومن المؤكد أن العراق تعد اقرب الدول العربية الى الحصول على القنبلة الذرية ؛ يدفعها الى ذلك الرغبة فى أن تصبح زعيمة الخليج الفارسى والدول العربية والعالم الثالث . وحتى تجعل العراق سياستها هذه فعالة ، زادت من قوتها العسكرية بمعدل لا مثيل له من قبل . واستخدمت دولاراتها البترولية ، وسعت لتطوير الهيكل الأساسى للتكنولوجيا العسكرية ، وذلك فى ضوء أن العراق قد كونت خلال السنوات الاخيرة أو نحوها ، ترسانة تقليدية قوية ، حتى تصبح اقوى دولة بين الدول العربية كلها . غير أن هذا لم يكن كافيا بالنسبة لصدام حسين . ذلك أنه منذ منتصف السبعينيات ، تبنى العراق قواتها فى مجال آخر — هو المجال النووى .

ويمكن تتبع أثر الجهود العراقية فى هذا الصدد منذ عام ١٩٥٩ . ففى ذلك العام أصدرت الحكومة العراقية القانون رقم ٤٥ الذى تنشأ بمقتضاه لجنة الطاقة النووية العراقية . وفى عام ١٩٦٤ عين رئيس الوزراء نفسه رئيسا لهذه اللجنة . والان يتولى صدام حسين هذا المنصب .

وقد قبلت العراق فى عضوية الوكالة الدولية للطاقة الذرية عام ١٩٥٩ . فى ٢٩ اكتوبر ١٩٦٩ وقعت على معاهدة حظر الانتشــــــار النووى . وتم التصديق على المعاهدة فى ١٤ مارس ١٩٧٢ ، مع الاشارة الى ان الموافقة على المعاهدة لا تعنى أن العراق تعترف بدولة اسرائيل .

وفى ٢٠ يوليو ١٩٦٠ ، وقعت العراق مع الاتحاد السوفيتى اتفاقا بشأن بناء مفاعل أبحاث . وبدا السوفييت عام ١٩٦٣ بناء المشروع فى منطقة تقع على بعد ٢٠ كيلو مترا جنوب شرقى بغداد . وتم بناء المشروع عام ١٩٦٨ . وقد وافق السوفييت بعد عشر سنوات على تغيير الوقود المستخدم فى المفاعل . فبدلا من ان كان يعمل بـ (١٠٪) من اليورانيوم المخصب ٢٣٥ ، أصبح يعمل الان بـ (٨٠٪) من اليورانيوم المخصب ، وزادت قوته من ٢ الى ٥ ميجاوات .

وقد زود السوفييت العراق بتسهيلات أخرى ، وبذلك مكنوا العراقيين من بناء مجمع نووى كامل ويضم معملا لانتاج النظائر المشعة ، ومعامل فيزياء خاصة ، وغيرها من المشروعات الصغيرة . وقد أرسل حوالى مائة طالب عراقى للاتحاد السوفيتى لاستكمال دراستهم فى الطبيعة النووية .

ولقد كان هذا المشروع السوفيتى الصنع ، الذى يوجـــد بالقرب من بغداد كافيا بالنسبة لاحدى دول العالم الثالث المهتمة بالتكنولوجيا الحديثة . غير أن هذا المشروع كان بالنسبة للنظام البعثى فى العراق غير كاف . فقد كان الفنيون الروس يفتشون على المفاعل منذ عام ١٩٦٨ . وفى ظل هـــذا التفتيش الوثيق ، أدرك العراقيون انه لن تواتيهم الفرصة للحصول على كمية من اليورانيوم أو البلوتونيوم تكفى لانتــاج قنبلة . ولذلك ، كان عليهم – ان أرادوا أن يحصلوا على القنبلة – أن يستعينوا بمصادر خارجية أخرى .

ولما كانت العراق واحدة من أكبر الدول التى تزود الغرب بالبترول ، فان زعماء العراق وصلوا الى نتيجة مفادها أنه فى وسعهم ايجاد فرصة طيبة تمكنهم من الحصول على المنشآت والخبرة الفنية النووية من أوربا الغربية . ولقد كان للدول الغربية ، وخاصة فرنسا وايطاليا ، ميزتان كبيرتان فى هذا الصدد ، بالمقارنة مع الاتحاد السوفيتى من وجهة نظر العراق . أولهما ، ان الدول الغربية كانت على استعداد لتزويد العراق بالمعدات اللازمة للوصول الى خيارها النووى ، وثانيهما ، ان التكنولوجيا الغربية كانت أكثر تقدما من التكنولوجيــا الروسية ، وخاصة فى مجال صنع اليورانيوم المخصب ، والبلوتونيوم .

وفى ٧ ابريل ١٩٧٥ ، عقد فى بغــداد مؤتمر علمى . اشترك فيه الى جانب العلماء النـــوويين العــراقيين ، علماء عرب ، وكذا علمـــاء أمريكيين واوروبيين غربيين . وفى وسعنا أن نفترض فى الوقت الحاضر أن هـــذا المؤتمر قد أحرز تقدما فى الجهود العراقية الرامية الى انتاج القنبلة . فقد عقدت خلاله أواصر الصلات الاولى بين رئيس ادارة الوقود النـــووى بلجنة الطاقة النووية الايطالية وبين العلماء العراقيين . ومن ثم بدأت العملية التى ادت الى الغارة الاسرائيلية على المفاعل العراقى .

ولقد كان من المعروف عند حلول عام ١٩٧٥ أن شاه ايران ، وهو العدو المجاور للعراق ، قد شرع فى تنفيذ برنامج نووى طموح من شأنه أن يمكنه من الحصول على القنبلة فى غضون أقل من عقد . بيد أن العراقيين لم يكن يحركهم للحصول على القنبـــلة الخوف من ايران . فلقد كان لزعامة حزب البعث طموحاتها الخاصة – وهى السيطرة على الخليج الفــارسى وأن تصبح العراق دولة قائدة فى العالم الثالث . ومن ثم ، كان الحصول على القنبلة الذرية يعد مقياسا لبلوغ هذه المكانة القوية ولذلك ، قرر العراقيون التعجيل بتنفيذ خططهم ، وقد ثبت أن أول بلد اتجهوا اليه لتحقيق هـــذا القصد ، هو من أكثر البلاد التى يمكن الاعتماد عليها وهو : فرنسا .

وفى سبتمبر ١٩٧٥ ، قام صدام حسين نائب الرئيس العراقى آنذاك ، والرجل القوى فى النظام العراقى ، بزيارة لفرنسا . وقد وقعت الدولتان ، بعد مباحثات طويلة ، اتفاقا بشأن التعاون النووى فى ١٨ نوفمبر ١٩٧٥ . ولقد كان العراقيون ، حتى قبل توقيع هذا الاتفاق يبدون اهتماما بالتكنولوجيا الفرنســية التى يمكن اســتخدامها فى الأغراض العســكرية وكذا الأغراض المدنية . وقــد طلب العراقيون من الفرنسيين أن يزودوهم بمفاعل لتوليــد الكهرباء تبلغ قوته ٥٠٠ ميجاوات . ولقد بنى هذا الطراز من المفــاعلات فى فرنسا فى الفترة ما بين ١٩٥٩ و ١٩٧٢ ولم يستخدم كمحطة لتوليد الطاقة فحسب ، بل استخدم لانتاج البلوتونيوم كذلك . كما بنى هذا النــوع من المفاعلات الجرافيتية (الكربونية) فى الولايات المتحــدة الأمريكية والمملكة المتحدة ، بل من المرجح انه بنى كذلك فى الاتحاد السوفيتى . وعلى الرغم من أن هذه المفاعلات تعمل كمحطات لتوليد الطاقة ، نجــد أن الدول الــكبرى تستخدمها أساسا لانتاج البلوتونيوم . غير انه عند حلول نهاية الستينيات ، تم اكتشاف نظم أكثر فعالية لتوليد الكهرباء . ولذلك توقفت الدول الغربية عن انتاج هذا النوع من المفاعلات وطلبت العراق هذا النوع من المفاعلات ، ومن الممكن فهم معنى هذا الطلب اذا وضعنا فى الاعتبار حقيقة أن هذا المفاعل ينتج ٤٠ كيــلو جــراما ســنويا من البلوتونيوم الذى يمكن اســتخدامه فى أغراض عسكرية .

ولقد رفض الفرنسيون طلب صدام حسين الخاص بالحصول على المفاعل الذى يمكن استخدامه فى أبحاث وتسهيلات أخرى يمكن ان توفر لهم على نحو

غير مباشر خيارا نوويا . وكان هذا العرض هو المفاعل النووى أوزوريس المتقدم للغاية ، وذو الطاقة الحرارية المرتفعة للغاية – اذا ما قورنت بالطاقة الحرارية بغيره من النماذج الاخرى كما انه يعمل باليورانيوم المخصب .

ومن المعروف ان المواد تغير خصائصها نتيجة تعرضـــها لاشعاع قوى ولذلك كان من الضرورى دراسة نتائج الاشعاع على المواد المــكونة لهيكل المفاعل وينتمى أوزوريس الى مجموعة من المفاعلات تسمى « مفاعلات اختبار المـــادة » وقد صمم هذا النوع من المفاعلات من أجل تحقيق الغرض سالف الذكر . ومن ثم ، لا عجب من ان تستخدم الدول الصناعية الكبرى وحدها مثل هذه المفاعلات فى ميدان التنمية وانتاج مفاعلات الطاقة . والعراق لا تعد من بين الدول الصناعية المتقدمة فى العالم ، ولا يوجد اى دليل على انها من الدول التى تبنى المفاعلات ، ولذلك كان اختيارها مفاعل ابحـــاث اوزوريس يبدو امرا يتسم بالسخف . غير ان اوزوريس كان يتسم بسمة واحدة جعلتـه ملائما بالنسبة للأغراض العراقية ، بالرغم من ان العـــراق لم تؤكد هــذه الأغراض . ذلك انه واحد من افضل المفاعلات القائمة لانتـــاج البلوتونيوم المستخدم فى الأغراض العسكرية .

ولقـــد كان الفرنسيون ، وكـــذلك الأمريكيون ، يدركون بالطبع دلالات البرنامج العراقى الذى يستند على هذا النوع من المفـــاعلات ، كمـــا كانت توجد مؤشرات أخرى تدل على الهدف الحقيقى الذى تبتغى العراق تحقيقه .

وفى ١٥ ينـــاير ١٩٧٦ ، وقع اتفـــاق بين ايطاليا والعـــراق ، وافق الايطاليون بمقتضاه عـــلى تزويد العراقيين بمعـــدات وبخبرة فنيـــة لمواجهة المشكلات النووية . وشمل ذلك اعادة دورة الوقود النـــووى ونظاما خاصا لمعالجة الوقود النووى المشع . وهذا فى الواقع اسم آخر لفصل البلوتونيوم

وعند حلول نهاية ١٩٧٦ ، كان العراقيون يتقدمون لتحقيق طموحاتهم النووية . ففى اطار الاتفاق الذى تم التوصل اليه مع فرنسا ، كان مشروع اوزيراك ، كما كان يطلق عليه ، قد بدأ . وتحت مظلة أوزيراك جرى بنـــاء نوعين آخرين من المفاعلات عام ١٩٧٧ . كان الأول هو اوزوريس الذى تبلغ قوته ٧٠ميجاوات ، بينما كان الثـــانى مفـــاعل ابحـــاث نوويا صغيرا يسمى ايزيس . ثم غير العراقيون اسم المشروع الى « ١٧ تموز » وهـــو تاريخ تولى حزب البعث السلطة . وسمى المفـــاعل اوزوريس « تموز — ١ » ، بينما سمى المفاعل الأصغر « تموز — ٢ » . كما تم بناء بعض معامل خاصة للفيزياء فى اطار مشروع تمـــوز . وحتى يتسنى مراقبـــة نوع المشروع أقيم اتحـــاد آخـــر من مجموعة من المؤسسات الفرنسيـــة (كونســـورتيوم) فى بداية عام ١٩٧٨ .

وبينما كان « الكونســورتيوم » الفرنسى ينشىء مشروع تموز ، تم توقيع اتفاق آخر فى ٨ فبراير ١٩٧٨ . وكان هذا الاتفاق قد عقـــد بين مجموعة « شركات ايطالية » هى « سنين » و « ســـينا » و « آمن » بين الحكومة العراقية . وكان اسم المشروع الجديد هو « ٣٠ يوليو » .
وكان هذا المشروع بالنسبة للعراقيين يماثل فى اهميته تقـــريبا مشروع تموز . وقـــد اشــــتركت فيـــه بعض الشركات الايطالية الأخـــرى كمقاولين من البـــاطن » .
وفى الوقت نفســه ، تم ايفاد ما بين ١٥٠ الى ٢٠٠ من العلماء العراقيين لدراسة التكنولوجيا النووية المتطورة . كما أرسل ١٥٠ مهندسا وفنيا آخر الى ايطاليا من اجل تلقى دراسات متقدمة . فلقد كان صـــدام حسين الذى يشرف شخصيا على المشروع النووى يدرك ان تنوع موارد القوى العاملة ، على نحو كاف ، يعتبر اساس النجاح فى تشغيل مثل هذا البرنامج الضخم . ولقد كان « رجل بغداد القوى » ، كما تطلق عليه اجهزة الأعلام الأجنبية ، يعى الهدف النهـــائى للمشروع كله . ولم يكن الايطاليون والفرنسيون ليمكنوه من انتاج القنبلة ، طالما كان الفنيون التابعون لهم لا يزالون يعملون فى موقع تموز . ولذلك أدرك العراقيون أن عليهم أن يبعدوا الاجانب عن الموقع قبل ان يشرعوا فى العمليات اللازمة لانتـــاج القنبلة . ولـــذلك ، كان عليهم أن يعدوا مقدما عددا كافيا من العـــاملين المؤهلين حتى يمكنهم ادارة المشروع عندما يتركه كافة العلماء والفنيين الأجانب .

وفضـــلا عن عقود واتفاقات التعاون التى أبرمها العراقيون مع ايطاليا وفرنســا ، تطلعوا الى تحقيق المزيد من التعـــاون مع دول أخـــرى كذلك . وكانت البرازيل من بين هذه الدول . ففى ٨ يناير ١٩٨٠ توصل البلدان الى اتفـــاق تزود البرازيل بمقتضاه العـــراق بخام اليورانيوم ويورانيوم مخصب ذى درجة « منخفضة » ووصل العلماء البرازيليون الى بغداد فى شهر يونيو ١٩٨٠ لاختيار احتمالات تعدين اليورانيوم فى العراق ذاته . وكان العراقيون يرون أن اتفاقهم مع البرازيل هام للغـــاية ، نظرا لأنه كان من المفترض أن البرازيل تحصل على تكنولوجيا تخصب اليورانيوم من المـــانيا الغـــربية . ومن ثم كان العراق يتوقع ، بدوره ، أن يحصل على هـــذه التكنولوجيا من البرازيل ، الامر الذى يفتح أمامه خيارا جديدا لانتاج القنبلة .
كما كان العراقيون يحاولون تجميع أكبر كميـــة من اليورانيوم يمكنهم الحصول عليها من جميع أنحاء العالم . ففى عام ١٩٨٠ اشـــتروا ١٢٠ طنا من البرتغال و ٢٠٠ طن من النيجر . وكانوا يعتزمون شراء اليورانيوم من المغرب فى المستقبل . وكانت مصادر المخابرات الغربية تعـــرف أن عمـــلاء العراق حاولوا شراء يورانيوم منخفض الدرجة من دول أخرى دون أن ينجحوا فى ذلك . وقد استخدموا فى هذا المجال من النشاط ، خـــدمات المتعاملين فى صفقات الأسلحة وبعض الأطراف المريبة فى العالم الثالث .

ولقد كانت المفاوضات بين العراق وباكستان سرية مثلما كانت تنطوى على اهمية بالغة . فكما قلنا بالفعل ، توجد لدى باكســـــتان اكثر تكنولوجيا نووية متقدمة فى العالم الاسلامى . وتفاصيل ضئيلة بشأن هذه المفاوضات قد عرفت حتى الآن ، لكن من الواضح ان الاتفاقات بين هاتين الدولتين يمكن ان تكون فى مجالات حساسة مثل اليورانيوم المخصب وفصل البلوتونيوم بل حتى بناء اجهزة نووية .

وبحلول منتصف عام ١٩٨٠ ، لابد ان صدام حسين ، الذى اصبح رئيسا للعراق منذ العام الماضى ، كان يشعر بالرضـــاء البالغ ازاء ما تحرزه بلاده من تقدم فى الاتجاه النووى .

ففى نهاية شهر يونيو ١٩٨٠ شحنت فرنسا الى العراق أول (١٢ كيلو جراما) من يورانيوم مخصب تبلغ درجة جودته ٩٣٪ وكان من المقرر أن تتسلم العراق من فرنسا حوالى ٨٠ كيلو جراما من هذا النوع من وقود المفاعل لتشغيل مفاعليها تموز ــ ١ وتموز ــ ٢ ، واذا كانت العراق قد اختارت منهاجا صريحا يحقق لها انتاج لقنبلة، فان عليها أن تحصل على ٨٠٠ كيلوجرامامن ليورانيوم اى مايكفى لانتاج ما بين ٤ الى ٦ « قنابل » فى قوة قنبلة هيروشيما . غير ان هذا الخيار كان ملائما فحسب فى حالة وجود وضع طارىء . وفى المدى الطويل ، كان صدام حسين ورفاقه فى حزب البعث يتوقعون تشغيل كلا المشروعين ــ ١٧ تموز الفرنسى الصنع ، و ٣٠ يوليو الايطالى الصنع . فى نهاية عام ١٩٨٠ . وكان الجمع: بين المشروعين من الممكن أن يوفر للعراق دورة بلوتونيوم على الفور . وقد وصف كبار العلماء النوويين العراقيين « للرجل القـــوى فى بغداد » كيف سيستمرون فى المشروع من أجل انتاج البلوتونيوم اللازم لانتاج القنبلة بعد ان يغادر العلماء والفنيون الأجانب المشروع .

واستطرد العلماء العراقيون شارحين لزعيمهم كيف يمكنهم بما لديهم من التسهيلات والأجهزة التى حصلوا عليها من فرنسا وايطاليا وغيرهما من الدول ، صنع القنبلة بأنفسهم .

وقد حدث هـــذا فى صيف عام ١٩٨٠ . ووعد العلماء العراقيون صـــدام حسين بانه اذا لم يحدث شىء غير متوقع ، فان مشروع ١٧ تموز سيتم انجازه فى غضون أقل من علم .

وكان صدام حسين يشعر بالارتياح ، وهو يفكر فى الخطة التى عرضها عليه العلماء . وكان يأمل فى اتمام هذا المشروع فى اسرع وقت ممكن . غير أنه عنـــدما اخذ فى اعتبـــاره العقبات التى كانت تعترض المشروع فى ذاك الوقت ، والطرق الغامضة للمفاعلات ذاتها . وطن نفسه على مجابهة مشاكل أكثر من الذى تنبأ به العلماء المتفائلون .

الجـــزء الثـــانى

صـــنع القـــرار

٧ ــ تهنير ــ التخريب فى فرنسا

على الرغم من أن العراقيين كانوا فى صيف ١٩٨٠ يمضون قدما فى تنفيذ برامجهم النووية ، كان عليهم ان يواجهوا الكثير من الصعوبات ، والتأجيلات منذ بدا المشروع فى عام ١٩٧٥ ولابد ان مجموعة من الضغوط الدبلوماسية مقترنة بنشاط تآمرى غامض ــ قد حذرتهم من أن الطريق الى انتاج القنبلة لن يكون سهلا .

ولقد تعرض الاتفاق الأساسى بين العراق وفرنسا بشأن اقامة مشروع ١٧ ــ تموز للهجوم على ثلاث جبهات .

أولها : انه كان هناك انشقاق داخل فرنسا بشأنه . ذلك انه فور توقيع الاتفاق احتج (أندريه جيرو) رئيس لجنة الطاقة النووية الفرنسية ، لان الاتفاق قد يسمح للعراق بالانضمام للنادى النووى الخاص كما احتج كذلك مسئول بالحكومة الفرنسية ضد الاتفاق ، زاعما انه قد يؤدى الى توقيع اتفاقات مماثلة مع دول عربية اخرى من بينها ليبيا . ذلك ان الشرق الأوسط عندما يصبح منطقة نوويه وتكون القنبلة فى حوزة حكام مثل القذافى وصدام فان ذلك سيكون خطيرا بالنسبة لفرنسا كما هو خطير بالنسبة لاسرائيل .

ولقد كان ل (جاك شيراك) رئيس وزراء فرنسا عام ١٩٦٧ وجهة نظر ازاء الاتفاق . فقد كان ينظر الى العراق على أنهـــا ستكون دولة عربيـــة فائدة فى المستقبل ، وأهم مورد للبترول لفرنسا ، ولم يكن شيراك ساذجا ، وكان يمكنه لن يفطن جيدا الى السبب الذى يجعل صدام حسين مهتما جدا بمشروعه الباهظ التكلفة ومع ذلك قرر ان الاتفاق يجب أن يتم من أجل مصلحة فرنسا مهما كانت العقبات التى تنشأ بسببه ، ومن ثم هدد باقصاء (أندريه جيرو) من منصبه اذا لم يتم الاتفاق . وكان فى وسع رئيس الوزراء الفرنسى تجاهل رأى المسئولين المهنيين ، الا انه لم يكن فى استطاعته تجاهل الاحتجاج الامريكى .

والواقع أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى تعتبران أكثر الدول الموثوق منها فيما يتعلق بمراعاة اتفاقية حظر الانتشـــــار النـــووى . اذ تتمتع الدولتان بتكنولوجيا متقدمة فى المجال النووى، وقد بذلت الدولتان غاية ما فى وسعهما لمنع الانتشــــــار النووى . كما كان فى وسع الولايات المتحـــدة التأثير على السلوك

الفرنسى ، لانها تمد فرنسا بمعظم ماتحتاج اليه من اليورانيوم المخصب من اجل تشغيل مفاعلات على نمط اوزوريس . ويبدو أن الادارة الامريكية هددت فرنسا بفرض حظر على اليورانيوم المخصب الامريكى الذى تنقله فرنسا الى العراق ، غير أن الفرنسيين اكتشفوا سبيلا فعالا للتغلب على هــذه العقبة ، فقد قرروا تزويد العراق بيورانيوم من المخزون الاستراتيجى العسكرى لفرنسا. وقد تولى الرئيس الفرنسى (جيسكار ديستان) بنفسه الاشراف على موضوع المساعدات الفرنسية للعراق حتى يتجنب اى ضغوط ، أخرى او تعطيل للمشروع .

غير أنه كانت هناك دولة أخرى لاتزال تخشى المشروع العراقى واعربت عن احتجاجها ضد المساعدات التى يقدمها الفرنسيون للمشروع . ففى بداية عام ١٩٧٦ ، وبناء على تعليمات من (ايجال يادين) وزير الخارجية الاسرائيلى زار (مورد خاى جازيت) السفير الاسرائيلى لدى فرنسا مقر رئاسة الوزراء الفرنسى فلقد كان الاسرائيليون منذ وقت طويل يشعرون بالقلق ، بالطبع ، من المفاوضات الفرنسية العراقية ، أما الان وقد وقع الاتفاق بين البلدين ، فان (جازيت) قد طالب الحكومة الفرنسية بأن تقدم لبلاده ايضاحات حول هذا الاتفاق كما احتج لــدى رئيس الوزراء الفرنسى . غير ان احتجــاجه لم يسفر عن اى نتيجة ، وذهب سدى .

ففى ١٧ سبتمبر ١٩٧٦ ، صدق برلمان الدولتين على الاتفاق واذا كان بعض أعضاء البرلمان الفرنسى قــد احتجوا على التعاون الفرنسى العراقى ، الذى قــد يؤدى الى خيــار نووى ، فان (جيسكار ديستان) و (شيراك) لم يواجهــا اية مشاكل بالنسبــة للحصــول على تأييد غالبية اعضاء البرلمان الفرنسى .

وفى شــهر ديسمبر ١٩٧٦ ، وقع حادث آخــر كشف الى اى مدى كان العراقيون جادين فى تحقيق خيار نووى من خلال مشروع ١٧ تموز . فلقد دعا (هنرى كيســنجر) وزير الخارجيــة الأمريكى ــ الذى كان مدركا للتطورات المحتملة فى العالم الثالث ، اذا ما استمرت دول اوربية غربية فى تزويد دول من الدرجة الثانية والثالثة بتسـهيلات نووية ، مما يزيد من الانتشار النووى ــ الدول الغربية الى عقد مؤتمر فى لندن لبحث هذا الموضوع ، وقد وافق المؤتمر الذى اشتركت فيه الدول الغربية المتقدمة فى هذا الميدان الخاص (من بينهــا المملكة المتحدة وفرنسا والمانيا الغربية ، وايطاليا ، وكندا واليابان ، والولايات المتحدة) على ضرورة فرض قيود أكثر تشددا مما تفرضـــها اتفاقية حظر الانتشار النووى على مسألة التعاون النووى مع دول العالم الثالث . وكانت فرنسا مضطرة الى التوقيع على هذا الاتفاق العام ، وقد اعلنت نتيجة لهــذا الغاء اتفاقها بتزويد باكســتان بمصنع لانتــاج اليورانيوم المخصب .ولــكن مما يدعو الى الغرابة ان فرنسا لم تقل كلمة واحدة حول المشروع العراقى . كما التزم الأمريكيون الصمت بشأنه .

وطوال عام ونصف لم يتغير اى شئ ولقد كانت فرنسا والعراق تشعران بالرضا ذلك ان مشروع تموز (وكــذلك مشروع ٣٠ يوليو الايطالى) يجرى العمــل فيه دون عقبــات . ولقد كانت الشركة الفرنســية (نافالست آند سطاليليس دى لاميدتيرنييان) التى تعاقدت على بناء قلبى المفاعلين قد اتمت مهمتها . وكان من المنتظر شحن هذين القلبين من جنوب فرنسا الى العراق فى ٩ ابريل ١٩٧٩ . غير أن هذه الشحنة لم تغادر الاراضى الفرنسية .

ففى ٤ ابريل ١٩٧٩ ، وصل الى طولون على الشاطىء الفرنسى ٣ سائحين يحملون جوازات سفر اوروبية . وبعد ذلك بيومين ، اى فى ٦ ابريل ، وصل ٤ سائحين آخرون وانضموا الى أصدقائهم الذين كانوا يقيمون باحــد الفنادق الصغيرة بالمدينة . وفى تلك الليلة ، غادروا طولون فى سـيارتين متجهين الى « لسين ــ سير مير » بالقرب من كوت دازور وفى أحد الملاجىء التابعة للشركة الفرنسية بميناء المدينة كان قلبا مفاعلى تموز ــ ١ وتموز ــ ٢ على استعداد لشحنهما خــلال ٤٨ ســاعة الى العــراق . ولم تكن اجــراءات الأمن فى الميناء جيدة .

ولذلك ، لم يجد فريق الأشخاص السبعة القوى اية صــعوبة تعترض طريق دخولهم مكان قلبى المفــاعلين العراقيين . ونشرت الصــحف الشعبيه فيما بعد ــ حكايات تصــف فيها : كيف حاولت المجموعة سرقة بعض عناصر من قلب المفاعل ، الا ان هذه الحكايات ثبت انهــا محض خيال . لقد انجــزوا مهمتهم على وجه تام . لقد اوصلوا شحنات متفجرة بقلبى المفاعلين . وقد قام خمسة رجال بهذه المهمة ثم لحقوا بالرجلين الآخرين اللذين كانا ينتظران فى الخارج لتغطيتهم . وقد عاد الرجال السبعة الى سيارتيهما . وخــلال خمس دقائق ، كانوا قد غادروا المدينة الصغيرة بينما كان سكانها لا يزالون نائمين . وفى الساعة الثالثة صباحا دوى انفجار فى الميــناء ولم تكد تمضى دقائق قليله حتى دوى انفجاران آخــران .

واندفع البوليس وجهــاز المخابرات الفرنســية والخبراء العسكريين الى الميناء حيث موقع الانفجارات . وهناك وجدوا بقايا قلبى المفاعلين ــ كومة من المواد المحترقة . وقد تعرف احد الخبراء عليهما . كما عثر البوليس فى نفس المكان على ٣ شحنات أخرى لم تنفجر . وباستثناء قلبى المفاعلين لم تدمر اية معــدات اخــرى .

ولم يكشف النقاب عن شخصية وجنسية الفريق المقاتل الذى قام بهذا العمل البالغ الاحتراف وايا كانت التخمينات والتكهنات ، فمن الواضح ان هناك عددا كبيرا من القوى الأجنبية التى كانت ترى أن المشروع العراقى يعد تهديدا .

وعقب الغــارة السرية تلقت صــحيفة « الموند » وغيرها من الصحف الفرنسية الرئيسية مكالمات تليفونية مجهولة من أفراد منظمة تسمى « جماعه

البيئه الفرنسية، زعموا أنهم دمروا المعدات العراقية حتى يشلوا فعالية الاسلحة الخطيرة « من أجل مستقبل الجنس البشرى » ولم يكن احد قد سمع عن هذه الجماعة قبل ذلك ، كما لم يسمع عنها احد بعد ذلك . ولم يساور المخابرات الفرنسية اى شك فى انه لا توجد اية جماعة من أنصار البيئة يمكنها ان تقوم بهذه العملية المعقدة التى لا يضطلع بها غير محترفين . ولذلك فان شكوى المخابرات الفرنسية اتجهت الى منظمات أخرى . وكانت المخابرات الاسرائيلية (الموساد) هى أكثر هـذه المنظمات المرجح اضطلاعها بهذه العملية ، واكثرها احترافا تبعا لمـا ذكرته اجهزة الاعلام الفرنسية .

ذلك أن المخابرات الاسرائيلية حققت شهرة ملحوظة خلال وجودها القصير من بين النشاطات التى قامت بها هذه المخابرات تلك العملية التى نفـذتها فى بداية الستينيات لتقويض جهود عبد الناصر للحصول عـلى صواريخ ارض — ارض — مزودة برؤوس غير تقليدية ولم يساور الفرنسيون اية شكوك فى ان لاسرائيل مصلحة مباشرة فى ابطاء المشروع العراقى او حتى وقف تنفيذه كما لم يساورهم اى شك كذلك ، فى ان الموساد كان يمكنها تنفيـذ هـذه المهمة . وقد تكهنت أجهزة الاعلام الفرنسـية بان الاسرائيليين كان فى وسـعهم القيام بهذه الغارة ، ولكن بعد حصولهم على مساعدة من الداخـل وترددت تلميحات بأن علماء من وكالة الطاقة النووية الفرنسية قد زودوا الاسرائيليين بمعلومات لتنفيذ هذه المهمة واذا ما أخذنا فى الاعتبار أن بعض هؤلاء العلمـاء كانوا يدركون جيدا الاهداف العراقية ، وكانوا يشعرون بالقلق تجاهها ، فان هذا الأمر ينطوى على معنى واضح . كما ان للاسرائيليين تاريخا من العلاقات مع فرنسا . بل ان مثل هذه الاتصالات ربما كانت لاتزال قائمة حتى بعـد التغير الذى تنبأ به العلماء المعتدلون .

بل ان صحيفة « انترناشيونال هيرالد تربيون » الأمريكية قد ذهبت الى ما هو أبعد من ذلك فقد ألمحت الى أن الغارة قد قام بها موظفون فى المخابرات الفرنسية ممن ادركوا أخيرا ان الاتفاق مع العراق قد يشكل خطرا على دول أخرى فى الشرق الأوسط وان هذا يعد ضد مصالح فرنسا ذاتها . وان نسف قلبى المفاعلين كان الاجراء الاخير الذى كان فى وسعهم القيام به لابقاء السيطرة على النشاط العراقى دون الحاق الضرر بالعلاقات الفرنسية العراقية .

غير ان دولا ومنظمات اخرى قد تردد ارتباطها بالغارة . فقد ذهبت مجله « لوبوان » الفرنسية الى ان المخابرات المركزية الامريكية قد قامت بهذه الغارة من أجل تجنب الانتشار النووى فى جزء استراتيجى هام فى العالم . وكانت ليبيا بزعامة العقيد القذافى احدى الدول التى اشتبه فى قيامها بالغارة وتبعا لهـذه الرواية الأخيرة ، يكون الارهابيون التابعون لمنظمة التحرير الفلسطينية قد نفذوا الغارة لصالح القذافى الذى دفع لهم مبلغـا سخيا من المال . كمـا ان الروس

والـسوريين — بل والعراقيين أنفسهم — كانوا موضعا للشبهات على نحو او آخر . وذكرت مجلة « شتيرن » الألمـانية الغـربية ان مصـدرا فى الموساد (المخابرات الاسرائيلية) قد كشف التفاصيل الكاملة للغارة غير أن بعض هذه التفاصيل ثبت زيفـه تماما .

ولكن الافتراض الأكثر ترجيحا هو أن الاسرائيليين قد نفذوا الغـارة . ذلك أن لديهم الخبرة والقدرة على تنفيذها وما هو اكثر من اى شىء آخر انهم لديهم الدافع ، على الرغم من أن هذا لا يستبعد احتمال حصولهم على مساعدات ومعلومات من مصادر خارجيـة .

وقد كشفت تكهنات أجهزة الاعلام حقيقة هامة للغـاية فبغض النظر عن اسرائيل ، كان يوجد عدد كبير من الدول الاخـرى فى الشرق الأوسط وفى كافه انحاء العالم ممن لديها مبرر للشعور بالخوف من المشروع العراقى . وكانت هذه الغارة بالنسبة للعراقيين تحذيرا لهم . ولكنهم آثروا تجاهل التحذير ، غير انه لم يكد يمضى عام حتى حدث نذيرا آخر .

كان يحيى المشـد عالما مصريا فى الخمسين من عمـره وكان له ماض (اكاديمى) طيب فهو حاصل على شـهادات دراسية من الجامعات الأمريكيه والروسية . وكان زملاؤه ، يعتبرونه عالما من الصف الأول فى ميـدانه ، وكان خلال الستينيات يدرس فى جامعة الاسكندرية بمصر . ويعمل كعـالم فى مركز الأبحاث النووية المصرية فى انشاص .

غير انه يبدو ان مصر ، التى تخلت عن الخيار النووى خلال الستينيات والسبعينيات ، قد ضاقت بالنسبة لعالم جـاد وطموح ، ولذلك عندما بدأت الحكومة العـراقية مشروعها النووى عرضت على المشـد أن يتولى منصبا جديدا . وكان العرض العراقى طيبا من وجهة نظر العالم المصرى . فلقـد كان لـدى العراقيين الامكانية والارادة لتنفيـذ مشروع نووى وكانت النقـود التى دفعوها له حافزا اضافيا . وقد عين المشد فى منصب كبير فى مشروع تموز . وفى صيف ١٩٨٠ ذهب الى فرنسا حيث وصلها يوم ٦ يونيو ومعه تعليمات من الحكومة العراقية بفحص المعدات والمواد التى سيجرى شحنها لبغـداد وكانت هذه الشحنة تضم عنصرا هاما للغاية وهو أول ١٢ كيلو جراما من اليورانيوم المخصب بنسـبة ٩٣٪ والذى من شأنه أن يقـرب العراق من الخيار النووى مباشرة . وقد أمضى العالم المصرى ما يزيد على اسبوع فى فرنسـا ، وخاصـة فى المركز النووى الفرنسى فى (فونتينا — أوريز) وفى (سـاكلا) و (كادراش) ، و (بيريلات) وفى يوم الجمعة ١٣ يونيو عاد الى فندق (ميرديان) فى باريس بعد أن اشترى سلعا لعائلته استعدادا للعودة الى الوطن وقـد علقت عـلى حجرته رقم ٩٤١ طوال ليلة الجمعة اشارة مكتوب عليها «رجاء عدم الازعاج» .

وعندما جاءت خادمة الغرفة الشابة لتنظيفها صباح السبت لم تعرف هل نزعج الضيف ام لا . وبعد تردد استغرق دقائق قليلة قررت ان تفتح الحجرة .

وكان المشهد الذى رأته يثير الفزع فقد كان جسد العالم المصرى ملقى بين السريرين الموجودان بالحجرة وكانت السجادة تنضح بالدماء وكان قد فارق الحياة ، بينما هشمت رأسه .

وقد اكتشف البوليس الجثمان صباح السبت ، غير أن ستارا من السرية قد احاط بعملية القتل . وفى يوم الخميس ١٧ يونيو سمح للصحافة الفرنسية بنشر نبأ الجريمة الغامضة وكان النبأ يشير الى كل شىء حول شخصية المصرى الذى اغتيل . ويبدو ان الحكومة الفرنسية قد أجرت اتصالا مع العراق قبل السماح بنشر قصة الاغتيال .

وكان اغتيال المشد يرتبط ارتباطا مباشرا بالعملية النووية العراقية . فقد كان يعمل فى مشروع تموز ، وكان من اكثر العلماء تدريبا . ويرجح انه كان افضل عالم عربى عمل فى العراق .

وسرعان ما اكتشف البوليس الطابع الخاص للفندق الذى كان يقيم فيه المشد فقد كان من المعروف أن شابات صغيرات يتسمن بالجاذبية يقدمن خدماتهن الخاصة للضيوف وكانت احداهن تسمى (مارى كلود ماجال) وهى فى الثانية والثلاثين من عمرها ، وهى التى قالت : أنها قدمت عرضا وديا للمشد فى نفس المساء الذى قتل فيه . فقد زعمت أنها قابلت العالم عند مدخل الفندق واصطحبته حتى حجرته ، التى دخلها بعد ان رفض عرضها . وقد انتظرت خارج الغرفة عدة دقائق يحدوها الامل فى ان يغير رأيه ولكن دون جدوى . وبينما كانت لا تزال منتظرة فى الممر بين الحجرات كان فى وسعها أن تسمع أصواتا قادمة من حجرته ولكن لم توجد أية دلائل على نشوب قتال أو اطلاق رصاص .

وقد روت فتاة الليل الشابة قصتها هذه للمخابرات الفرنسية فى أول يوليو ١٩٨٠ . وعندما أرادت المخابرات استدعاءها لاجراء استجواب آخر معها تبين لهم أنها قتلت بعد أن تعرضت للهجوم عليها فى ١٢ يوليو وقد فارقت الحياة .

ومرة أخرى ، وكما حدث بالنسبة للغارة على قلبى المفاعلين منذ ١٤ شهرا مضت ، لم تستطع المخابرات الفرنسية تعقب آثار قتلة المشد . بل ان المخابرات لم تتمكن من تحديد الدافع للاغتيال – هل هو عاطفى أم جنسى أم اجرامى أم سياسى . و (حافظة نقود) المشد تركت فى جيبه وبها ١٤٠٠ فرنك

وهذه الحقيقة جعلت المحققين يستبعدون السرقة كدافع لارتكاب الجريمة ، ومن ناحية اخرى ، جرى اغتياله بطريقة وحشية مما يشير فيما يبدو الى أن قاتله ليس عميلا محترفا . وكما كان الامر بالنسبة للغارة، لم يستطع رجال البوليس الا تخمين ما حدث . فقد استنتجوا أن رجلا دخل حجرة المشد بينما كان فى الخارج . ويمكن ان تكون فتاة الليل الشابة قد أغرته لابقائه خارج الحجرة . وأيا كان الامر ، فانها فشلت ، ودخل العالم حجرته . وقد فوجىء الرجل الذى كان بداخل الحجرة بينما كان يفتش فى أوراقه (ومن المرجح مذكراته) ولم يجد امامه مناصا عن قتله ، وتبعا لهذه الرواية ، فان وفاة المشد لا تعتبر اغتيالا . بل تعتبر وفاته حادثا .

غير انه توجد رواية أخرى تشير الى ان العميل او العملاء قد خططوا فى الواقع لاغتيال المشد ، حتى يكون اغتياله عبرة لكل العلماء الذين يشاركون فى المشروع العراقى . وقد اثار هذا التحذير الوحشى مخاوف بعض العلماء الفرنسيين والايطاليين ، بيد أن العراقيين تمكنوا من التغلب على هذه المشكلة. وعلى الرغم من الروايات المختلفة للقصة ومن حقيقة أن المخابرات الفرنسية لم تستطع تعقب القتلة ، كان هؤلاء العلماء واثقين من شىء هو : ان هذه السيدة الفرنسية الشابة قد قتلت ، وأن الذى دبر عملية قتلها كان ايضا مسئولا عن وفاة المشد .

ومرة اخرى ، ارتبطت الموساد بهذه القضية غير ان مصادر المخابرات الفرنسية أعربت عن اعتقادها بأن حادث اغتيال المشد كان عملا من أعمال الهواة . وان الموساد على قدر كبير من الاحتراف بحيث لاتضطلع بمثل هذه المهمة القذرة . وقد نفى الاسرائيليون انفسهم نفيا قاطعا مسئوليتهم عن هذا العمل .

وبعد وقت قصير من اغتيال العالم المصرى ، ذكرت مصادر أن العملاء السوريين الذين يعملون لحساب السوفيت قد ارتكبوا هذه الجريمة . وترى هذه المصادر ان الروس ، كانوا يريدون معرفة المرحلة التى وصل اليها مشروع تموز وكان من المفترض أن السوريين يصورون اوراق العالم عندما فاجأهم . وعندئذ قتلوه . ثم غادروا الفندق .

وكما هو الحال بالنسبة للغارة بالقرب من طولون ، اثبتت التكهنات المتضاربة نقطة هامة وهى ان للمشروع العراقى اعداء كثيرون ، وان حكومات كثيرة كانت ستشعر بالسعادة اذا ما رات المشروع وهو يهوى ، وان بعضها ربما عمل تبعا لهذا الطموح . ولكن يبدو أن العراقيين قد تجاهلوا مرة أخرى ، هذه الدلائل ، وذلك التحذير .

٨ — تحـــذير : تمزيق الخيـــط

ان لاسرائيل صحافة حرة ولكن من المعروف جيدا انها مثل اى صحافة فى دولة ديمقراطية اخرى ، يمكن أن تناور لتركز على موضوع تطلب الحكـومه الاهتمام به . ولذلك ، ظلت الصحافة الاسرائيلية ، طوال شـهور عديدة هادئة نسبيا فى تناولها للمشروع العراقى ، بالرغم من انه كان ربما يعتبر اكثر التهديدات خطورة حتى الآن بالنسبة لوجود الدولة اليهودية ، غير انه فجاة ، وفى منتصف شهر يوليو ١٩٨٠ ، بدات الصحف الاسرائيلية كلها والتليفزيون كذلك فى مناقشة المشروع العراقى ومسالة التعاون بين العراق وفرنســـا وايطاليا . وكانت مقالات تنشر تحت عناوين مثل « القنبلة العربية النووية : سبب يبرر الحرب بالنسبة لاسرائيل . واسرائيل تعتبر المغامرة الفرنسية (فى العراق) سبيلا لادخال الشرق الاوسط الى العصر النووى » وكانت مثل هذه العناوين ظاهرة جديدة فى الصحافة الاسرائيلية .

والواقع أن (رفائيل ايتان) رئيس الاركان الاسرائيلى ، والذى يعـــرف بانه شـــخص هادىء جدا ومتواضـــع قد أجاب ردا على ســـؤال على الجهود العراقية بشأن القنبلة ، خلال حديث للتليفزيون الاسرائيلى — اجاب بقوله :

اذا ما حصل العراقيون على القنبلة ، فسيكون ذلك كما لو ان كافـــة بلاد المنطقة قد علقت من شاهق بخيط رفيع . وان اية محاولة لاستخدام القنبله النووية ستؤدى على الفور الى تمزيق هذا الخيط وتدمير هذه الدول .

ولقد كان من يجرى الحديث مع ايتان ، ماهرا بما يكفى لأن يساله عما يقصده من العبارة السالفة . بيد ان اجابة ايتان كانت تتسم بالغموض عـــلى نحو ماهر . فاذا ما أنتجت العراق القنبلة ، فان الشرق الاوسط باسره سوف يكون رهينة لديها . وان اية محاولة من جانب العراقيين لاستخدام القنبلة ضد اسرائيل ستؤدى الى اندلاع معركة كبرى فاصلة فى الشرق الاوسط . وربما كانت هذه اشارة الى دول الشرق الاوسط الاخرى ومن المفترض أن تحذير ايتان قد قصد به دول عربية أخرى فى الشرق الاوسط كان من مصلحتها ، مثلما كان من مصلحة اسرائيل الا تحصل العراق قـــط على القنبـــلة .

غير أن اجابة ايتان ربما كانت تنطوى على معنى آخر كذلك . ان اسرائيل لن تدع قط حاكما متعصبا مثل صدام حسين ليحصل على القنبلة ، نظرا لان وجودها عندئذ سيعتمد على سلوكه المجنون وغير المتوقع .

ولقد كان مسئولون اسرائيليون آخرون اكثر وضوحا بالنسبة لتحديد رد فعل اسرائيل ازاء المشروع النووى العراقى فى المستقبل .

فقد قال (ماتياهو شوميولفيش) وهو أحد كبار مساعدى مناحم بيجين

رئيس الوزراء ان اسرائيل لا يمكنها الجلوس والانتظار الى ان تسقط القنبله الذريه العراقية فوق رؤوسنا .

وأشار مسئول كبير آخر ، طلب عدم ذكر اسـمه ، الى أن دولا عربية أخرى فى الشرق الاوسط يتعين أن تكون أكثر قلقا من اسرائيل بالنسبـة للمشروع العراقى وقال : « لو أن أية دولة فى العالم من المحتمل أن تستخدم القنبلة ، فان هذه الدولة هى العراق .

ويضيف أنه عندما تحصل العراق على القنبلة أولا ، فان الروس سوف يمدون سوريا بأسلحة نووية لأنهم يخشون من العـراق . وعندئذ ستحصل ايران على هذه الأسلحة وبذلك تكون هناك أسلحة نووية فى حوزة ثلاثة نظم من أكبر النظم العالمية جنونا وعدم استقرار .

ويعنى هذا ، أساسا ، مصالح الغرب الذى يعتمد على بترول الشرق الاوسط . ذلك أن اندلاع حرب نووية فى هذا الجزء من العالم قدتؤدى الى تدمير موارد البترول فى العـراق وايران ، كما أن السـعودية وبقية ممالك الخليج (الفارسى) قد تتورط فيها مما يشكل خطرا بالنسبة لجـزء كبيرمن احتياطات البتــرول فى الشرق الاوسـط . ومن ثم حاول الاسرائيليون ان يشرحـوا انه من مصلحة العـالم الغربى ، مثلما هو من مصـلحة اسرائيـل تجنب وضع مثل هذا . بيد أن الغرب كان ينتهج سياسة قصيرةالنظر . ذلك أن فرنسا وايطاليا وغيرهما من الدول الغربية ، كانوا على استعداد لفعل اى شىء تقريبا حتى يحصلوا على البترول فى الحال . وكان فى وسع العـراق باعتبارها موردا كبيرا للبترول لكل من أوربا الغربية واليابان أن تبتزهمـا وأن تحصل على القنبلة من خلال تعاونهم معها .

ولقد أعطت الحملة العامة التى شنتها الصحف الاسرائيلية فى يونيـو ١٩٨٠ الاشارة للصحف الاجنبية كى تنضم الى الاسرائيليين .

فعلى الرغم من أن اسرائيل لم تكن الموضوع الاكثر شعبية وتعاطفا فى صحافة أوربا الغربية ، نجد الصحفيين الغربيين فهموا أهمية ما كان يحدث . وكان أن تدفق سـيل من القصـص الاخبارية والمقالات عن المفاعل العراقى ، والتعاون بين العراق وبعض دول أوربا الغربية .

ولو كانت الحملة الصحفية الجديدة التى اضطلعت بها الحكومة الاسرائيلية قد أثارت اهتمام العالم ازاء هـذا التهديد لأمكن اعتبار أنها نجحت جزئيـا غير أن الحملة كانت موجهة بصفة خاصة لبلد واحد هو العراق .

ففى العديد من المقالات التى نشرت فى الصحف الاسرائيلية والأجنبية على السواء كان يتردد باسـتمرار تحذير واحد مفاده : أن المشروع العراقى يعتبر مسألة حياة أو موت ، وأن اسرائيل ستبذل أقصى ما فى وسعهالمنـع

انتشار الاسلحة النووية فى العالم العربى . وفى ضـوء وجهة النظر هذه أصدرت اسرائيل فى صيف ١٩٨٠ اعلانا بالنوايا ، بالرغم من انه لم يكن اعلانا رسميا .

وقد نشرت هذا مجلة « تايم الامريكية » فى عدد اغسطس ١٩٨٠ فقد أشارت الى أن أسرائيل وجهت انذارا صامتا مفاده أنهـا اذا أعتبـرت أن العراق أصبحت على وشك الحصول على القنبلة ، فأنها قد تشن غارة وقائيـة ضد المفاعل العراقى . وقد أستند هذا الافتراض على حديث أدلى بهاسحـق شـامير وزير خارجية اسرائيل للمجلة . وقال فيه : « ان المفاعل العراقى قد يفجر نزاعا فى المنطقة ويلغى الجهود المبذولة لتحقيق السلام » . ولا توجد اشـارة يمكن أن تكون أوضـح من هـذا الى الكيفيـة التى كان يرى بها الاسرائيليون المشروع النووى فى العراق فى صيف ١٩٨٠ . بيد أن العراقيين آثروا تجاهل حتى هذه الاشارة . وسرعان ما كان عليهم أن يعلموا أن الحملة ضد جهودهم قد تحولت الى عالم العمليات السرية القاسى والصامت .

لقد كان (ماريو فيوريللى) هو المدير العام للشركة الايطالية المشتركة فى المشروع وطبقا للعقد الموقع بين العراقيين والشركة ، وافق الايطاليون على بناء معامل « ساخنة » وأخرى باردة فى نطاق مشروع ٣٠ يوليو (تموز) مـن شانها أن تمكن العراقيين من بناء «صنع مستقل لفصـل البلوتونيوم ، وكان هذا هو هدف الوكالة الغامضة التالية التى تعمل ضد المشروع العراقى .

ففى ليلة ٧ اغسطس ١٩٨٠ ، انفجرت قنبلة صغيرة بالقرب من بـاب شقة (فيوريللى) فى شارع (ديلا لانجريتا) بروما . وكانت الخسائر المادية التى أسفر عنها الانفجار ضئيلة . ولم يصب أى شخص . فلم يكن فيوريللى بشقته لانه كان خارج المدينة .

وفى الوقت نفسه ، انفجرت قنبلتان أخريان فى مكاتب الشركةالايطالية وكانت الخسائر المادية جسيمة . فقد جرى تدمير الاثاث وجهاز التكييف . وقد غطت بالجدران ثقوبا سببها الانفجار .

ولم يتمكن جهـاز الامن الايطـالى من تعقب المنظمة التى دبرت هـذه الانفجارات ، وهى مجموعة يطلق عليها « لجنة حماية الثورة الاسلامية » اعترفت بالانفجارين . ولم يكن أحد قد سمع عن هذه المجموعة ، سواء قبل الحادث أو بعده ، ولذا تعذر على الايطاليين التعرف عليها . غير أنهم كانوا واثقين من شىء واحد هو ان هذه الانفجارات مثلها مثل الهجوم على «قلبى المفاعلين» العراقيين فى أبريل ١٩٧٩ واغتيال المشد فى يونيو ١٩٨٠ ، تعتبر بمثـابة تحذير للعراقيين . غير ان التحذير هذه المرة كان ينطوى على غرض مزدوج . فللمرة الأولى لم تكن معدات عراقية أو عالم عربى هما الهدف ، وانما كان الهدف شركة ايطالية ، وقد دمرت . وكان الهجوم على شقة (فيوريللى) يعنى أن

الذين دبروه يقصدون توجيه تحذير الى كافة الاوربيين الذين يشتركون فى المشروع العراقى ·

وكانت الرسالة التى وجدت بالقرب من شقة فيوريللى تشير الى اتجاه جديد فى الحملة ضد القنبلة العراقية · فقد جاء بالرسالة ، ضمن أشياء أخرى ، « اننا نعلم عن تعاونك الشخصى مع أعداء الثورة الاسلامية · وان اولئك الذين يتعاونون مع أعدائنا سيكونون أعداء لنا »· واستطردت الرسالة مطالبة بأن تنهى الشركة الايطالية تعاونها مع العراقيين لتجنب اراقة الدماء· وانتهت بتوجيه تحذير شخصى : « اذا لم تفعل ذلك ، سوف نهاجمك انت وعائلتك بدون رحمة » ·

وفى اعقاب الهجمات التى وقعت فى روما ، أرسلت خطابات تهديد الى علماء أوربيين آخرين فى فرنسا وايطاليا بل فى العراق ، كانوا يشتركون فى المشروع العراقى · وقد أرسلت الخطابات للعلماء الذين كانوا يعملون بالفعل فى المشروع من داخل العراق · ولم يكن هذا لتوفير النقود وانما ليتبين للعلماء والفنيين الاوروبيين أن الذين يهددونهم قريبون جدا منهم ، وأن فى وسعهم تنفيذ تهديداتهم اذا لم ترضهم نتيجة هذه الخطابات ·

وكانت كافة الخطابات موقعا عليها من جانب نفس المجموعة التى أعلنت مسئوليتها عن انفجارات القنابل فى روما والتى تسمى « لجنة حماية الثورة الاسلامية » · وكان هذا الاسم يوحى بجماعة موالية للخمينى داخل العراق شعرت بتهديد المشروع العراقى لها · غير أن أجهزة الأمن التى حققت فى الامر كانت واثقة من أن أية جماعة ايرانية لا يمكنها أن تنفذ مثل هذه العملية التى لا يضطلع بها الا محترفون · ومرة اخرى ، وجه اللوم الى المخابرات الاسرائيلية (الموساد) التى نفذت عملية مماثلة ضد العلماء الالمان الذين كانوا يتعاونون مع عبد الناصر فى مستهل الستينيات ·

وعلى الرغم من ان عملية الابتزاز هذه قد نفذت بطريقة تتسم بالاحتراف نجد ان تأثيرها ، فى حد ذاتها على المشروع العراقى كان ضئيلا فقد فكر بعض العاملين الاجانب فى المشروع ، فيما يفعلونه · وبعضهم تجاهل ذلك كلية · وقد وعدت الحكومة العراقية وكذا الحكومة الفرنسية والسلطات الايطالية العلماء الخائفين بأنها ستتكفل حمايتهم ممن دبروا هذه الهجمات ايا كانوا ·

وفى منتصف هذه العملية السرية ، نشبت الحرب بين العراق وايران· وكان صدام حسين يتوقع تحقيق انتصار سريع على القوات الايرانية فى هجوم خاطف · غير أنه سرعان ما أدرك أن مبادرته هذه قد دفعت بالعراق فى معركة طويلة وأثبت الجيش العراقى أنه أقل كفاءة مما كان يخشى أعداؤه ·

٩ ـ التحذير الأخير : الهجوم الايرانى

بدأت الحرب بين ايران بزعامة الخمينى والعراق برئاسة صدام حسين فى ٢١ سبتمبر ١٩٨٠ · وقبل نشوب هذه الحرب بأربعة أيام ، أعلن الرئيس العراقى الغاء اتفاقية عام ١٩٧٥ المبرمة بين العراق وايران حول الاستخدام المشترك لشط العرب ·

ولقد كان لهذه الحرب بعض الاثار المباشرة على مشروع تموز · وقد وقع أولها فى ٣٠ سبتمبر ·

ذلك انه منذ بدء الحرب ، كانت الطائرات المقاتلة الايرانية والعراقية تقصفان اهداف كلا البلدين على نحو تكتيكى واستراتيجى ـ ولقد أثبت الدفاع الجوى لكلا البلدين أنه غير فعال تماما . وكان فى وسع الطائرات المقاتلة القاذفة العراقية أن تصل بسهولة الى طهران ، بينما كان فى وسع طائرات الفانتوم الايرانية أن تحلق فوق بغداد . وعلى الرغم من ان كلا من العراق وايران قد قصفتا معامل تكرير البترول وغيرها من الأهداف البترولية لهما ، كان العراقيون واثقين من أن الايرانيين لن يحاولوا مطلقا قصف المشروع النووى العراقى ·

غير أن العراقيين اكتشفوا فى الساعات الاولى من بعد ظهر يوم ٣٠ سبتمبر انهم قد أخطأوا التقدير · فقد حلقت طائرتان ايرانيتان من طراز اف ـ ٤ مزودتان بالصواريخ والمدافع ، على ارتفاع منخفض أثناء اتجاههما الى موقع مشروع تموز الذى يقع على بعد ٢٠ كيلو مترا فقط جنوب شرقى بغداد وقد أطلقت الطائرتان صواريخهما وما فى جوفهما من ذخيرة مرة واحدة ، ودون أن تقوما بجولة أخرى من القصف ، ثم أختفيتا خلال ثوان · ولم يجد العراقيون وقتا كافيا للرد عليهما · فلم يطلق عليهما أى صاروخ مضاد للطائرات · وبقيت المدفعية المضادة للطائرات من (طراز سزيو ـ ٢٣ ـ ٤) صامتة ·

وكان الدمار الذى لحق بمشروع ١٧ تموز طفيفا · ذلك أن المفاعلات ذاتها لم يصبها أى ضرر ولم يصب القصف سوى بعض المعامل وغيرها من المعدات · غير أن بناء نظام تبريد المياه للمفاعلات قد دمر من جراء أحد الصواريخ الذى أصابه اصابة مباشرة ، كما دمرت بعض منشآت أنابيب المياه ونظم شبكة المواسير · وقد لحق دمار خطير بمستودع تخزين النفايات المشعة السائلة · ولحق دمار طفيف بالجهاز الخاص بالتعامل مع النفايات المشعة ·

وقد قدر (رفائيل ايتان) رئيس اركان الجيش الاسرائيلى ، الذى تعتبر مصادر مخابراته فى هذا الجزء من العالم من بين أفضل مصادره ، أن المشروع

قد تمكن من البقاء بعد الهجوم الاول عليه ، واضاف ايتان انه فى الدقيقة التى يعود فيها الفنيون الفرنسيون للعمل فى المشروع منيبدأ تشغيله مرة أخرى .

غير أن الهجوم قد عطل احراز اى تقدم فى المشروع النووى . ففى بداية اندلاع الحرب ، غادر معظم الخبراء الفرنسيون العراق . وبعد قصف المفاعل، غادر على الفور بقية الفنيين الاجانب المشروع ولم يبق سوى عدد قليل جدا من الفنيين الذين اعطتهم السلطات العراقية تصريحا بالدخول لمنطقة المشروع .

وأيا كان الامر فان الموقف الجديد كان ينطوى على بعض المزايا بالنسبة العراقيين فقد كانوا قد شغلوا بالفعل مفاعل تموز — ٢ الصغير بأول كمية من اليورانيوم المخصب زنتها ١٢ كيلو جراما . ولما كان جزء صغير من هذه الكمية قد استخدم ، فقد بادروا بنقل بقية الوقود من المفاعل وحفظوه فى مكان أمين . وكانت العراق قد التزمت بأن تخضع للتفتيش من جانب الفرنسيين والوكالة الدولية للطاقة الذرية ، لكنها رفضت مثل هذا التفتيش فى الوقت الحاضر ، بدعوى أن الحرب مع ايران قد خلقت وضعا جديدا .

غير ان اهم ماق الهجوم الجوى الايرانى هو الهجوم فى حد ذاته فهو يعنى بالنسبة للعراقيين انه حتى اكثر مشروعاتهم حساسية معرض للغارة الجوية . ولقد بدا العراقيون فى الوقت الحاضر العناية بصفة خاصة بنظام الدفاع الجوى بالنسبة للمشروع كله . فقد كانوا يدركون انه اذا ماقامت الطائرات الايرانية بهجوم مرة أخرى ، فانها ستسبب أضرارا ثانية ، ولذلك وقعت شركة (طوميسون) للصناعات فى فرنسا فى أكتوبر ١٩٨٠ اتفاقا قيمته ٩٠٠ مليون دولار مع العراق ، يقضى بأن تنشىء الشركة الفرنسية صناعة الكترونية فى مدينة السمراء على أن تبدأ بتصنيع اجهزة الراديو والرادار من اجل الاغراض العسكرية . وكان على فرنسا بمقتضى اتفاق آخر تبلغ قيمته ٨٠٠ مليون دولار ، أن تزود العراق بصواريخ جو — جو من (طراز ماجيك ر — ٥٥٠) أو صواريخ (اكسوسيت) أو صواريخ (شين) ارض — جو . ويبدو أن العراق كانت مهتمة اهتماما كبيرا بشأن دفاعاتها الجوية المضادة للطائرات . ولذلك وقعت فى يناير ١٩٨١ اتفاقا آخر مع شركة طوميسون تزود بمقتضاه الشركة العراق بصواريخ خاصة ارض — جو وكذا نظم رادار ذات كفاءة خاصة ضد النظم الالكترونية الامريكية .

وربما كان العراقيون يفهمون معنى الهجوم الايرانى الذى وقع فى ٣٠ سبتمبر ١٩٨٠ . غير أنهم لم يتمكنوا من أن يفطنوا الى ما تعده اسرائيل لهم. ففى الوقت الذى عاد فيه الخبراء الفرنسيون الى موقع المشروع خلال شتاء ١٩٨١ . كان السلاح الجوى الاسرائيلى يستعد لشن غارة وقائية ضد مشروع تموز العراقى .

١٠ — الثلاثة يقررون

على الرغم من الطابع الفريد والسرى للقرار الاسرائيلى الخاص بتدمير المفاعل النووى العراقى ، نجد أن هذا القرار قد اتخذه مجلس الوزراء فى وقت ما فى شهر اكتوبر ، ١٩٨٠ . وفى الماضى ، كانت القرارات التى من هذا النوع يتخذها اما شخص واحد — مثل بن جوريون عام ١٩٥٦ — أو الدائرة الداخلية غير الرسمية لحكومة حزب العمل (والتى كان يطلق عليها مطبخ مجلس الوزراء ابان حكم جولدا مائير) او اللجان الوزارية الخاصة بالامن (والتى قد تضم رئيس الوزراء ووزراء كل من الدفاع والخارجية والخزانة ، وفى بعض الاحيان رئيس اركان الجيش ورئيس المخابرات العسكرية) وقد سبقت اتخاذ هذا القرار مناقشات جادة وهى مناقشات وجهود تستهدف الحيلولة دون استمرار التعاون النووى بين فرنسا والعراق . ولقد كانت حكومات حزب العمل التى راسها اسحق رابين (١٩٧٤ — ١٩٧٧) ووزير دفاعه شيمون بيريز قد عانت بالفعل حول انتهاج احسن استراتيجية عسكرية ودبلوماسية لمنع اقامة المفاعل النووى الحربى فى العراق . وعلى الرغم من انه لم يحدد توقيت ليوم الهجوم ، كانت أدوات الحرب — السلاح الجوى وقسم العمليات فى قيادة الجيش الاسرائيلى والمخابرات قد بدات التخطيط فى العديد من الاحتمالات التى يمكن أن تطرا خلال تنفيذ الهجوم ، وكذا شرعت فى التدريب اللازم من اجل العملية .

ولقد كان واضحا من خلال المناقشات الاولى لهيئة كبار الضباط برئاسة اركان الجيش الاسرائيلى — والتى بدات فى وقت ما ، فى اواخر صيف أو اوائل خريف ١٩٨٠ أن خيارات الضباط العشرة ، أو الاثنى عشر ضابطا ، المشتركين فى المناقشات كانت منقسمة تماما تقريبا .

وكانت الحجة الاساسية للذين يعارضون الهجوم هى انه حتى اذا نجح الهجوم فانه لن يدمر الاثنى عشر كيلو جراما من اليورانيوم المخصب الذى زود به الفرنسيون بالفعل العراقيين ، ولا الكمية الصغيرة من اليورانيوم المخصب التى قد يكون العراقيون قد حصلوا عليها من مكان آخر . وكان من المعروف كذلك أن على الفرنسيين أن يزودوا العراقيين فيما بعد باثنى عشر كيلو جراما أخرى من اليورانيوم المخصب ، الذى يوجد فى مكان ما ، محصن وعلى شكل هرمى (ومغطى بحوالى ٢٤ قدما من الاسمنت) ولذلك كانت مخاوف الذين يعترضون على شن الغارة تتمثل فى انه : حتى فى حالة نجاحها ، سيكون فى مقدور العراقيين المضى قدما وانتاج القنبلة النووية — بل انه قد يزيد لديهم الحافز على ذلك .

اما الذين كانوا يؤيدون شن الغارة فكانوا يرددون بأن كمية اليورانيوم التى لدى العراقيين لا تكفى لصنع حتى قنبلة واحدة وكانوا يرون انه اذا ما سمح للعراقيين بالحصول على كميات اكبر من اليورانيوم المخصب (٣٦ كيلو جراما فى السنة) فسوف يستخدم لتشغيل المفاعل الذى سينتج فى النهاية كمية معقولة من البلوتونيوم — تكفى لصنع قنبلة او قنبلتين فى السـنة ولذلك اذا تم تدمير المفاعل قبل تشغيله وقبل ان تزود فرنسا العراق باثنى عشر كيلو جراما اخرى من اليورانيوم ، فان العراقيين لن يكون فى وسعهم انتاج قنبلة نووية . وفضلا عن ذلك ، كانوا يرون أنه فى أعقاب شن مثل هذا الهجوم ، قد يحجم الفرنسيون والايطاليون عن اعادة بناء المفاعل العراقى ، اما اذا عملوا على اتمام بنائه ، فانهم سيفرضون فى هذه الحالة المزيد من الضـوابط والقيـود على امدادات واستخدامات اليورانيوم وما ينتجه المفاعل من بلوتونيوم .

وكان من بين الذين يؤيدون الهجوم على المفاعل رفائيل ايتـان رئيس الأركان . وقد كسبوا المناقشة بجهد ضئيل . وتقرر المضى قـدما فى تخطيط العملية . وفى ذاك الوقت تقريبا زار مهندسان اسرائيليان الولايات المتحـده وتشاورا مع خبراء نوويين امريكيين حول ما قد يحدث اذا ما تعرض مفاعل نووى للقصف بقنابل تبلغ زنتها الف كيلو جرام .

وكانت المناقشة التى دارت حـول توقيت العمليـة تنطوى على جانبين متشابكين ومتداخلين متى يصبح المفاعل العراقى فى مرحلة الخطر بالنسـبه لاسرائيل ، ومتى يتعين استخدام الخيار العسكرى ؟ ومتى يصبح القـرار الذى اتخذته الحكومة فى اكتوبر معروفا بالنسبة لزعماء حزب العمل ، اى (بيريز) و (جور) ؟ وسرعان ما اختلطت هذه المناقشة حول التوقيت بالسياسـات الانتخـابية .

ففى وقت مبكر ، سعت حكومة حزب العمل وزعماؤها للحصول على مزيد من الوقت من اجل الدبلوماسية ، على الرغم من انه فى عام ١٩٧٧ وعندما خسروا فى الانتخابات كانت الاغراض العسكرية للمفاعل العراقى لم تتحـدد ولابد أن بيريز بصفة خاصة ، باعتباره المحرك الأسـاسى للمفـاعل النووى الاسرائيلى فى ديمونا فى الفترة من ١٩٥٨ — ١٩٦٥ قد شعر فى مايو ١٩٨١ بأن المفاعل العراقى لا يشكل بعدا خطرا ، وبان تولى الرئيس ميتران السلطه فى فرنسا ، وهو اشتراكى وصديق شخصى ، قد يثبت انه مفيد من الناحيـة الدبلوماسية لاسرائيل فيما يتعلق بالنشاطات الفرنسية العراقية .

وهكذا فى مايو سنة ١٩٨٠ وعندما كان بيريز لا يزال فى المقـدمة فى استطلاعات الرأى العام التى تسبق الانتخابات ، بعث بيريز بالرسالة التالية الى بيجين فى الاجتماع الأسبوعى التقليدى لمجلس الوزراء الذى يعقـد كل يوم أحـد .

١٠ مايو .
شخصى — سرى جـدا .
السيد/ رئيس الوزراء .

فى نهـاية شـهر ديسمبر ١٩٨٠ ، استدعيتنى الى مكتبك فى القـدس وابلغتنى بشىء معين خطير للغاية . ولم تسـتجب لردى كمـا اننى لم ارد (بالرغم من شعورى الغريزى) فى الظروف التى كانت قائمة آنذاك .

وانى لأشعر هذا الصباح بأنه من واجبى الأعلى ان انصحك بعد تدبر عميق فى ضوء تقدير المصلحة القومية — بأن تقلع عن هذا الشىء(١) .

واننى اتكلم كرجل له خبرة ، ان اتفاقنا على المرحلة التى يصبح فيها المفـاعل العراقى يشـكل خطرا ، بحيث تقرر الحـكومة قصـفه ليس الاتفاق الواقعى (وانى لأدرك قلق شـعبنا) ان الوسـيلة يمكن ان تتغير بوسـيلة اخرى(٢) . وأن ما نعتزم أن نحول دون حدوثه قد يصبح مثيرا للتفاعل(٣) .

ومن ناحية اخرى ، ان اسرائيل ستكون مثل شجرة فى الصحراء — وأن لدينا ما ينبغى ان نشعر بالقلق عليه(٤) .

وانى اضيف صوتى — وهـو ليس صـوتى بمفردى(٥) — الى اصوات اولئك الـذين يطلبون منك الا تفعـل ذلك(٦) ، وبالتاكيد فى الوقت الحـاضر والظروف الراهنـة .

مع كل تقديرى

شـيمون بيريز

هوامش :

---

(١) يميل بيريز الى استخدام تعبيرات لطيفـة عن شىء بغيض عنـدما يناقش أمورا حساسة ، وتزخر رسـالته السرية بمثل هذه التعبيرات التى سنورد فيما يلى شرحا لها .

امتزام اسرائيـل التحـرك خطوة اخـرى فى الجهود الرامية الى وقف المشروع النووى العراقى ، اى قصفه .

(٢) ان عملية قصف المفاعل (تبعا لمصادر بيريز) ليست عاجلة فلا تزال توجد فسـحة من الوقت للدبلوماسية وغيرها من النشاطات الأخـرى ضـد المفاعل العـراقى .

(٣) ان هـدف الغـارة الاسرائيلية هو منع العراق وغيرها من الدول العربية من أن تصبح دولة نووية . ومع ذلك ، قـد تؤدى هـذه الغارة الى تكثيف جهودها لأنه سيتبين كيف تسعى اسرائيل الى التمتع بوضع احتكارى نووى فى الشرق الأوسط .

وقد اطلع بيجين — الذى استبدت به الدهشة والغضب لان قرار اكتوبر لم يعد سرا فى طى الكتمان — عضو الكنيست موشى أرينز رئيس لجنة الشئون الخارجية والامن بالكنيست على رسالة بيريز ، اذ ان قرار اكتوبر لم يعد سرا بالنسبة لنخبة مختارة ، فبالاضافة الى بيريز ، فان وايزمان وزير الدفاع السابق ، وموردخاى جور — رئيس الأركان السابق ، واثنان من الصحفيين واحد رجال الاعمال المقربين من وايزمان كانوا يعرفون بالغارة المتوقعة .

وكان ما تبين يوم ١٠ مايو ١٩٨١ من ان القرار الخاص بتدمير المفاعل العراقى قد اتخذ فى اكتوبر ١٩٨٠ قد فرض على بيجين ودائرته الداخلية من اوثق مساعديه ومعاونيه ضرورة ان يختار موعدا آخر بدلا من الموعد الذى تحدد من قبل . وكان بيجين يدرك ان المخابرات الأمريكية تعرف نوايا اسرائيل ومخاوفها كما كان يدرك انه اذا خسر فى الانتخابات العامة ، فان المعارضه سوف تكون اقل رغبة فى تنفيذ الخطة على الفور .

وحتى يتاكد من عدم وجود تسرب آخر ، وحتى يضمن الفوز فى الانتخابات ، كون بيجين جماعة صغيرة من شانها الحفاظ على الامن وكان يطلق على هذه الجماعة اسم لجنة الثلاثة ، وكانت تتالف من شارون ورفائيل ايتان ، واسحق شامير . وكانت تجرى مشاورات حول الموعد الجديد مع الآخرين مثل ايجال يادين وتسيبورى نائب وزير الدفاع . ومع ذلك كان اكثر المتحمسين لشن الغارة التى تقرر لها ٧ يونيو ١٩٨١ شارون وايفان والواقع أن معظم المناقشات كانت تدور بين « بيجين وبيجين » ذلك ان بيجين كان يدرك بوضوح الخطر الذى يشكله صدام حسين الذى يشبه النازيين . وكان بيجين يخشى مذبحة جديدة يروح ضحيتها نصف مليون يهودى من جراء القنبله العراقية التى لم يكن يساور بيجين اية شكوك فى ان صدام حسين سيستخدمها عندما يتم انتاجها . ومن ثم ، فانه وبالنسبة لبيجين كانت الصدمة والفاجعه التاريخية اليهودية الشخصية والجماعية للمذبحة الجماعية (الهولوكوست) كانت المحرك الذى جعله يقرر تدمير المفاعل العراقى فى ٧ يونيو ١٩٨١ .

---

(٤) اشارة الى الجهود النووية الاسرائيلية اذ يشعر بيريز بالقلق من ان تؤدى الغارة الى تركيز الاهتمام العالمى على الخيار النووى الاسرائيلى ، وهو الأمر الذى سيكون ضد مصلحة اسرائيل .

(٥) سرب بيريز المعلومات الخاصة بالغارة على المفاعل الى بعض كبار اعضاء حزبه ومنهم رابين وجور (وكلاهما كان رئيسا سابقا للأركان) وآبا ايبان (وزير الخارجية الأسبق) وكانوا جميعا ضد الغارة .

(٦) ان بعض اعضاء مجلس الوزراء الاسرائيلى كانوا ضد الغارة وليس ضد توقيتها فحسب . كما كان يعارض البعض الآخر الغارة وخاصة فى الجيش . ويبين بيريز هنا ان المسالة ليست مسالة معارضة ضد الائتلاف الحاكم برئاسة بيجين ، وانما هى مشكلة أوسع نطاقا من ذلك .

الجزء الثالث

الاعداد لعملية بابل

١١ – عملية بابل : الخيـــارات

كان الاسم الشفرى « عملية بابل » وكان من المتوقع أن تستغرق دقيقتين على غرار الغـــارة على عنتيبى – هجوم ضـــد مشروع ١٧ تمـــوز العراقى (الذى يسمى اوزيراك) وهو مفاعل نووى تبلغ قوته ٧٥ ميجاوات ، ويقع فى مركز الأبحاث النووية على بعد ١٧ ميلا جنوب شرق بغداد .

وكان كافة الخبراء العســكريين يدركون انه وراء كل عمليـــة عسكريه معقدة للغاية حتى اذا استغرق تنفيذها وقتا قصيرا وجـرى تنفيذها بدقة – تكمن شهور عديدة من الاعداد المكثف اذ تتطلب كل عملية معقدة تخطيطا دقيقا وفريق عمل ، وابداء اهتمام بالغ بكل التفاصيل الدقيقة بل التـافهة اذ يقتضى الأمر الحاجة المستمرة الى مراجعة اجراءات كل خطة وتحديث هذه الاجراءات تبعا لتطورات الموقف ، واختيار القادة والجنود اللائمين لتنفيذها ، واختيار المعدات والأسلحة المثالية لتنفيذ العملية وقد يقتضىالأمر تصميم واعداد اجهزة ومعدات خاصة لعملية محددة . وتنفيذ اعمال الصيانة بدقة . واخيرا وليس آخرا ، ان نجاح كل عملية عسكرية يتطلب عملا شاقا وتدريبا مستمرا وبعـد تنفيد كافة أوجه الاعداد الضرورية بدقة يمكن ان يتوافر للعملية فرص النجاح.

ان الغارة على مشروع تموز (أوزيراك) التى من المقدر ان تستغرق دقيقتان – تعد ذروة عملية اعـداد وتخطيط شاق وطويل ، وعملية تعكس طبيعـــة وتاريخ الســلاح الجوى الاسرائيلى والواقع ان الســلاح الجـــوى الاسـرائيلى – الذى يعد من حيث الكم والكيف ثالث سلاح جوى فى العالم ومن اكثرها خبرة فى « التكتيكات » الجـــوية الحديثة والحـــرب ، ان هذا السلاح الجوى الاسرائيلى له تاريخ طويل فى الاعداد الكامل لأية عمليات خاطفة يضطلع بتنفيذها . وليس ادل على ذلك من تدمير طائرات السلاح الجوى العربى وهى رابضة على الارض خلال الساعات الثلاث الاولى من حرب الايام الســتة . وعملية الســلاح الجـــوى الاسرائيلى باعتباره مدفعية طائرة خـــلال حـــرب الاستنزاف ، والاستيلاء على محطة رادار ســوفيتية الصنع من مصر فى غاره جريئة ،واسقاط ٥ من أكثر الطيارين السوفيت خبرة فى نهاية حرب الاستنزاف فى مصر ، والاداء الرائع فى أعقاب الهجوم المفاجىء الذى شنته مصر وسوريا عبر قناة السويس ومرتفعات الجولان وذلك عنـــدما حاول السلاح الجـــوى الاسرائيلى خلال اليومين الأولين ، التصدى لهجوم الجيشين ووقفـــه . وكان معدل الخسائر فى القتال الجوى خلال حرب يوم كيبور هو (٥٥) الى (١) فى صالح السلاح الجوى الاسرائيلى . واخيرا وليس آخرا ، توجد المساهمة الأساسيه التى قدمها السلاح الجوى الاسرائيلى لضمان نجـــاح عملية الانقاذ الاسرائيلية فى عنتيبى .

والواقع انه فى أعقاب أن تلقت المخابرات العسكرية الاسرائيلية والموساد معلومات تحذيرية خلال ربيع وصيف ١٩٨٠ حول التقـــدم السريع الذى يحرزه

العراقيون بمساعدة من جانب الفرنسيين والايطاليين فى برنامج البحث النووى وبعد ان اصبح واضحا ان العراق قد تتوافر لديها القدرة لتصميم وانتاج اسلحه نووية اولية ثم اسلحة نووية بعدها ، وقبل الموعد الذى كان مقررا سلفا لانتاجها (فلقد كان من المقرر أن العراقيين سيكون فى وسعهم انتاج الأسلحة النووية قبل عام ١٩٨٥ ، وهو موعد متوقع رفضت المخابرات المركزية الامريكية تغييره على عكس مافعل خبراء المخابرات الاسرائيلية فى خريف عام ١٩٨٠) فى اعقاب هذا كله كانت الحكومة الاسرائيلية وهيئة الأركان تدركان انه يتعين اتخاذ عمل وقائى لتدمير المفاعل النووى قبل فوات الوقت .

وكان فى وسع اسرائيل ان تختار بين ٤ بدائل محتملة لتحقيق هذا الهدف .

١ — أن تكثف حملتها الدبلوماسية ضد الدول الغربية التى تزود العراق بالخبرة الفنية والمواد النووية ، او ان تطلب بدلا من ذلك مساندتها فى وقت التقدم العراقى فى مجال الخيار النووى .

٢ — أن تنفذعمليات سرية مكثفة ضد العراق وضد الذين يساندونها .

٣ — أن تنفذ عملية كوماندوز ضد المفاعل العراقى .

٤ — أن تشن هجوما جويا على المفاعل .

وقد بدا أن شن حملة دبلوماسية مكثفة ضد فرنسا أو ايطاليا أو البرازيل أو البرتغال أو نيجيريا أو ليبيا ـ وكل منها تساهم على نحو أو آخر فى الجهود النووية العراقية — لن يكون ناجحا كل النجاح . ذلك أن لدى العـراق الأموال والبترول والعمل الذى تحتاج اليه هذه البلاد . وعندما حاول الفرنسيون اقناع العراقيين بشراء مفاعل من طراز آخر — كاراميل — رفض العراقيون حتى مجرد الاستماع الى الاقتراح الفرنسى . وعندئذ سرعان ما أذعن الفرنسيون ـ الذين لايخشون المخاطرة بمبيعات الأسلحة الفرنسية الهائلة للعـراق فحسب (تمد فرنسا العراق بربع الأسلحة العراقية) ،وانما يخشونكذلك المخاطرة بالاتفاق النووى وبمصـدر مضـمون لامدادات البترول ـ سرعان ما أذعنوا للضـغوط العراقية المضادة . والواقع أن كلا من ايطاليا وفرنسا كلتنا تلقيان بالمسـئوليه فى هذا الشأن على بعضهما فقـد كان الايطاليون يزعمون أن مصنعهم الكيماوى (المصنع الخاص بفصل البلوتونيوم) عديم الجدوى بدون المفاعل النووى ١٧ تموز الفرنسى الصنع . ولذلك يجب القـاء اللوم على فرنسـا ، ويجب على الفرنسيين أن يلغوا اتفاقهم مع العراق وفى الوقت نفسه كان الفرنسيون يزعمون انه بدون المصنع الايطالى لايمكن انتاج اية أسلحة نووية . ولم يتغير هذا الوضع تحت وطأة الضغط الدبلوماسىالفاتر الذىحشدته اسرائيل ضد الولاياتالمتحدة ومن ثم ، كان استمرار الحملة الدبلوماسـية بل تكثيفها ينطوى على احتمال

ضئيل فى احراز اى نجاح ضد النفاق والجشع الفرنسى والايطالى ، والواقع انه فى افضل الحالات ، سيكون شن حملة دبلوماسية مكثفة سببا فى جعل هاتين الحكومتين تشعران بمزيد من الذنب وتضطران من ثم الى استمرار اتفاقاتهما مع العراق فى ظل شروط تتسم بمزيد من السرية . وفضـلا عن ذلك ، قـد تستغرق الحملات الدبلوماسية وقتا معقولا حتى تؤتى ثمارها وحتى تحقق الاثر المرجو : وفى اثناء ذلك قد يكون العراقيون قد وصلوا الى نقطة لا عودة معها وقت ما ، فى صيف ١٩٨١ ومن المرجح تماما ان ينشطوا المفـاعل النـووى والمصنع الايطالى الخاص بفصل البلوتونيوم .

ولهذا ، كان عامل الوقت يشكل قيدا على العمل الدبلوماسى .

وفيما يتعـلق بالنشاطات السرية ، فلم يكن هناك دليل معين عـلى استخدام تلك الاسـاليب . ومع ذلك ، نجد الصحافة الدوليـة قد نشرت تقارير عن نشاطات من هذا النوع مثل الانفجـار الناجح فى قلب المفـاعل العراقى الفرنسى الصنع وذلك قبل وقت قصـير من نقله من مصـنعه فى (سين — سير — مير) وشحنه الى العـراق . ثم اغتيال العـالم النووى المصرى الدكتور يحيى المشد رئيس البرنامج النووى العراقى بعد ذلك بعـام فى غرفته بفنـدق ميرديان بباريس ، وتفجير مكاتب الشركة الايطالية بروما ، وهى الشركة النووية التى كانت تزود العراقيين بمصنع فصـل البلوتونيوم ، وأخيرا الانباء التى ترددت حول محاولة اغتيال عالم فرنسى يعمل فى المشروع العراقى اويزراك فى باريس .

ومما لا شك فيه ان كافة هذه الحوادث كانت ترمى الى ردع الخبراء فى ايطاليا وفرنسا عن العمل فى مثل هذه المشروعات العراقية . وكانت تهـدف الى توجيه اشارة الى الحكومات المشتـركة فى المشروع العراقى بأن عليها أن تكف عن التعـاون مع العراق فى هـذا الصـدد ومثل هذه النشـاطات ـ وخاصة تخريب قلب المفاعل العراقى ـ كانت ترمى الى تعطيل تقدم المشروع العراقى بقدر الامكان .

وأيا كان الأمر ، ففى التحليل النهائى ، ان كل الحيل القذرة لم يكن لها سوى تأثير محدود فى تعطيل المشروع كما انطوت هذه الحيل على تأثير هامشى ضئيل بالنسبة للطموحات النووية الطويلة الأمد للحكومة العراقية .

ولقد طرح للمناقشة كذلك احتمال تدمير أو تخريب المفاعل النووى العراقى من الداخل ـ غير أن هذا الاحتمال قد رفض باعتبار أنه ينطوى على مخاطرة كبيرة وخطرة ذلك إن تنفيذ ذلك على نحو فعال يستلزم كمية ضخمة من المتفجرات وانه من غير المرجح أن يتسنى تهريب مثل هذه الكمية من

المتفجرات الى منطقة تفرض عليها حراسة مشددة · اذ يخضع كل فنى من الأجانب (وكذا من العراقيين) لتفتيش دقيق مرتين على الاقل عند دخوله للعمل فى المشروع · وتوجد فى نقطة المراقبة والتفتيش الاول والثانية اجهزة خاصة (كتلك التى توجد فى المطارات) للكشف عن المتفجرات · بل ان العاملين فى منطقة المشروع يخضعون كذلك لرقابة شديدة من جانب رجال الأمن العراقيين السريين ، وكذا من جانب ذوى الباريهات الخضراء المزودين بمسدسات سوفيتية الصنع من طراز (ايه - كى - ٤٧) ويوجد العديد من رجال الامن الآخرين ، يتحدث الكثيرون منهم اللغة الفرنسية والايطالية فى منشآت المشروع · واخيرا فان المنطقة كلها تخضع لرقابة مستمرة عن طريق كاميرات تليفزيونية وربما اجهزة اخرى كذلك ·

ومن المشتبه فيه كذلك أن بعض العمال الاجانب كانوا عملاء للعراقيين ويتقاضـون مرتبات اضافية مقابل مراقبة زملائهم · بل ان منطقة المشروع النووى بأسرها كانت محـاطة بجدران من الأسمنت وبسـور من الاسلاك الكهربائية التى تنذر الحراس فى حجرات المراقبة الخاصة بأى انتهاك للسور فور حدوثه · واخيرا ، فان المنطقة كانت تخضـع لرقابة مستمرة من جانب دوريات مسلحة فى سيارات لاندروفر البريطانية والسيارات الأمريكية ·

ورغم كافة اجراءات الامن الوقائية هذه ، نجد انه لو كان أحد الفنيين أو المهندسين العاملين فى المشروع عميلا مزدوجا لاسرائيـل (ولا بد انه كان هناك العديد منهم - وان كل واحد منهم لا يعرف الآخر) لو كان أحد الفنيين أو المهندسين عميلا لاسرائيـل وتمكن من تهريب كمية صغيرة من متفجرات شـديدة الانفجار الى منطقة العمل ، فمن المؤكد انها ستكون ضـئيلة بحيث لا تشكل اية فعالية · بل انه سيكون من الصعب اعداد الشحنة للاشتعال فى ظل الرقابة الشديدة · من جانب العديد من الحراس غير المعروفين ومن نافلة القول ان اى شخص يلقى عليه القبض وهو يحاول مثل تلك المحاولة ، سوف يعذب ويعدم على الفور · والواقع ان جمع معلومات وابلاغها ينطوى على قدر كاف من المخاطرة ، اما محاولة التخريب فى ظل مثل هذه الحراسة المشددة من الداخل فهو أمر آخر · بل ان اكثر العملاء المخلصين جسارة - ناهيك عن المرتزقة - قد يمعن النظر والتفكير فى مثل هذه المهمة الانتحارية التى سوف تسبب فحسب تدميرا طفيفا فى المشروع على اى حال من الأحوال ·

وأخيرا ، يترجح أن الاسرائيليين فكروا فى انهم - بتجنب القيام بعملية سرية ، والاتجاه بدلا من ذلك الى شن هجوم شامل ، - سيكون فى وسعهم ردع الحكومات الاجنبية من الاستمرار فى الاشتراك فى المشروع · وفى ضوء هذا استبعد منذ البداية القيام بعملية تخريب سرية مباشرة ·

كان احتمال العمل الآخر المطروح أمام المخططين الاسرائيليين هو عملية هجوم مشـتركة مباشرة وطويلة المدى على المفاعل تنفذها صـفوة من القوات الاسرائيلية انطلاقا من قاعدة اسرائيلية ، ومن المرجح ان يتنكروا كما لو كانوا جنودا عراقيين ، وان يتحدث الكثيرون منهم اللغة العربية بطلاقة وبلهجة عراقية ولا بد ان مثل هذا البرنامج قد حظى باعجاب رفائيل ايتان رئيس الأركان الاسرائيلى الذى كان يبدى اهتماما خاصا بمثل هذا النوع من العمليات، ومثل (ايتان) العديد من كبار ضباط الكوماندوز - لكن هذا البرنامج كان اقل جاذبية بالنسبة لضـباط ينتمون الى الاسـلحة التقليدية واقل جاذبية بالنسبة للرجال الفنيين من القوات المسلحة أو من سلاح الطيران ·

وكما نعلم الآن ، لم تكن هذه هى الاستراتيجية النهائية التى جرى اختبارها لأسباب عديدة طيبة ·

ذلك ان شن غارة كوماندوز طويلة المدى يبلغ مداها حوالى ٥٥٠ ميلا فى كل اتجاه ليست أمرا سهلا حتى فى ظل توافر اكثر الظروف مثالية · وان شن غارة مماثلة عبر صـحراء من أكثر الصـحراوات فى العالم اجدابا وقسوة ، وعبر أراض صعبة لا تقدم الا القليل جدا من الاماكن التى يمكن الاختباء فيها ، وضد عدو فى حالة حرب (ومن ثم فى حالة تأهب) ان شن مثل هذه الغارة يعد أمرا ينطوى على مخاطرة ضخمة ، ومثير لعديد من المشاكل الفنية ومشاكل الامدادات الصعبة للغاية ·

ان تخطيط مثل هذه الغارة يمكن أن ينقسم بصفة عامة الى ثلاث مراحل : الاقتراب من الهدف ، والهجوم على المنشأة ذاتها ، والانسحاب · وتثير هذه المراحل مجموعة من المشاكل التى تتطلب حلولا مختلفة ، وأطرافا مختلفة تشترك فيها ووفرة من الأساليب الخاصة · وينطوى التخطيط لكل مرحلة على ايجاد الحلول لعدد كبير من المشاكل المعقدة والمتشابكة ، وكذا الاستعداد لمواجهة العديد من التطورات والتعقيدات غير المتوقعة · والواقع ان المفاجآت الخطيرة لا تنشأ بالضرورة من أحداث مفاجئة وعنيفة أو من هجمات مضادة ، وانما من امور أو أحداث صغيرة وقد تبدو غير ذات أهمية ، مثل الافتقار الى مرشحات الرمل فى طائرات الهليوكبتر (سى ستاليون سى - هـ - ٥٣) التى كانت تقل فريق الانقاذ الأمريكى الى ايران والتى أدى الافتقار اليها الى اتخاذ قرار باجهاض المهمة · ومما لا شـك فيه ان النهـاية الفاجعة للغارة الامريكية على ايران كانت ماثلة فى اذهان كل المخططين الاسرائيليين المعنيين بغارة كوماندوز طويلة المدى ضد المفاعل العراقى · ذلك ان اى خطأ سـواء عن الاقتراب من الهدف أو عند الهجوم على الهدف ذاته ، او عند الانسحاب ، قد يؤدى الى موت أو أسر المئات من الجنود والأجهزة الباهظة الثمن · والواقع

ان احتمال المفاجآت غير المتوقعة ، ووقوع خطأ صغير أو كبير يؤدى الى كارثة أمر معروف جيدا لكل من اشترك فى تخطيط أو تنفيذ مثل هذه الغارات .

ان نجاح الغارة على عنتيبى ، بالرغم من انها خلقت سابقة لمثل هذه العمليات ، جعل تكرار أدائها أمرا بالغ الصعوبة .

ففى المقام الاول ، كانت عنتيبى عملية انقاذ طويلة المدى ونوعا لم يحاوله أحد من قبل . ومن ثم ، كان من المتعذر أن يضطلع بها أحد ومن هنا كان حدوثها مفاجأة كاملة — والمفاجأة فى مثل هذه الحالة كانت جوهر النجاح — ولكن وكما هو معروف فى الشئون العسكرية ، وفى الحياة عامة ، لا يمكن للمرء دائما أن يقوم بنفس الخدعة مرتين وأن يأمل فى نجاحها .

والغارة الأمريكية على ايران لم تات فحسب بعد عنتيبى ، بل حدثت أيضا فى ضوء ظروف مختلفة للغاية . فعلى خلاف عنتيبى ، التى كانت تقع خارج كمبالا فى منطقة منعزلة ، لم يتوافر لها سوى قدر ضئيل من الدفاع — كان الرهائن الأمريكيون فى ايران فى قلب العاصمة (طهران) وتحت حراسة مشددة، وفضلا عن ذلك ، كانت الخطة الأمريكية تفتقر الى براعة الغارة الاسرائيلية على عنتيبى وكانت الغارة الأمريكية تضم عاملين من أفرع عديدة من القوات المسلحة الامريكية ، وتنطوى على نقاط كثيرة للتزود بالوقود وغيرها من الاستعدادات — وكانت تتضمن الهبوط بالقرب من طريق عام رئيسى ، وكانت وسائل الوصول مختلفة عن وسائل المغادرة وكانت العملية كلها تقتضى وقوع قتال عنيف .

والواقع ان عملية الانقاذ الامريكية كانت عملا من اعمال اليأس بدلا من أن تكون تخطيطا عسكريا رشيدا . ومن ثم ، لم تكن تتوافر لها أية فرصة لنجاح أيا كان الأمر .

ان الضباط والجنود الاسرائيليين الذين كانوا سيشتركون فى الغارة والذين اشتركوا فى التخطيط لها هم من بين اكثر الضباط والجنود خبرة فى العالم ، وكانوا يدركون تماما المخاطر الجسيمة التى تنطوى عليها مثل هذه العمليات .

والواقع ان عملية واسعة النطاق من هذا النوع كان لابد ان يشترك فيها ٢٠٠ جندى وطيار على الأقل (وربما أكثر) لابد من نقلهم الى مسافات طويلة وان مدى أضخم طائرة هليوكوبتر اسرائيلية لا يكفى لقطع تلك المسافة ذهابا وايابا . ومن ثم ، كانت كل طائرة من طائرات الهليوكوبتر التى تقل القوات سيتعين عليها أن تتزود بالوقود فى مكان ما فى الطريق الى الهدف او قبل الهجوم على الهدف (والمرجح أن يتم خلال الليل) وهى عملية معقدة تكون فيها طائرات الهليوكوبتر وأطقمها عرضة للاصابة من جانب أى هجوم مضاد اذا ما اكتشف أمرها . وعملية التزود بالوقود ستتطلب — فضلا عن ذلك — وجود

طائرات شحن جوى اخرى لتحمل الوقود اللازم وعلى هذه الطائرات الأخيرة ان تهبط دون ان يكتشف أمرها فى مكان ما ، فى اراضى العدو . ومرة اخرى ، ونظرا لحجمها وحقيقة ان العراق مشتبكة فى حرب مع ايران ، وانها على الاقل فى حالة تأهب جزئى ، نجد ان هبوط هذه الطائرات لن يكون أمرا من السهل تحقيقه .

وعلى حين ان اقتراب مثل هذه الطائرة الضخمة دون اكتشافها يعد أمرا صعبا للغاية ان لم يكن مستحيلا ، كان الاسرائيليون ولديهم قدرة بارعة على سبل الخدع العسكرية — كانوا سيحاولون بالتأكيد حماية اقتراب طائراتهم عن طريق بعض الخدع أو غيرها ، كان يكون ذلك مثلا باخفاء الطائرة على أنها طائرة تجارية تحلق فى الممرات الجوية الدولية او بالتظاهر بانها طائرة عراقية او طائرة تابعة لبعض الدول العربية أو الاجنبية الصديقة . ومن المؤكد ان الاسرائيليين فكروا كذلك فى « تكتيكات خداعية » اخرى .

وفضلا عن ذلك ، كانت طائرة الشحن المعرضة للاصابة فى حاجة الى ان تحميها طائرة مقاتلة فى طريق عودتها على الاقل ، وذلك بعد الهجوم على الهدف وبدء مطاردة العدو للمهاجمين وتحتاج مثل هذه الطائرة الضخمة الى قطاعين للهبوط عليهما ، والى تنسيق ارضى جوى ، والى اخصائيين فى الصيانة وما شابه ذلك .

ولا يحتاج الأمر الى طائرة شحن ضخمة من أجل تزويد طائرات الهليوكوبتر بالوقود فحسب بل يحتاجها الأمر أيضا لاحتمال حمل بعض الطائرات الهليوكوبتر الصغيرة التى قد تكون ثمة ضرورة لها لنقل الكوماندوز مباشرة الى موقع الهدف. ومن المنطقى أن نفترض ان السبيل الأسرع والأكثر أمانا للتغلب على الدفاعات العراقية الموجودة حول المفاعل هو استخدام طائرات هليوكوبتر صغيرة تحلق على ارتفاع منخفض جدا ، حتى يتسنى لها الانقضاض مباشرة فى قلب مركز الابحاث النووى .

غير ان العيب الأساسى لمثل هذه الخطة يكمن بالطبع فى احتمال تعرض طائرات الهليوكوبتر للاصابة الى حد كبير من نيران مدفعية أرض — جو ولذلك ، او تحققت مفاجأة كاملة واستطاعت طائرات الهليوكوبتر ان تخترق بنجاح نطاق الدفاعات الموجودة حول المفاعل ، وأمكن للكوماندوز ان يهبطوا منها سالمين فى منطقة الهدف ، وأن تطهر المنطقة بأمان ، لكان من غير المرجح ان يمكن استخدام هذه الطائرات لنقل القوة المهاجمة وهى تنسحب .

وثمة اسلوب آخر للوصول الى المفاعل ويكون بأن يستقل الكوماندوز الاسرائيليون قافلة من السيارات عليها علامة الجيش العراقى . على ان يتم نقل بعض الشاحنات (باللوريات) عن طريق طائرات الشحن التابعة للسلاح الجوى الاسرائيلى (مثل طائرات هرقل طراز سى — ١٣٠) بينما يتم شراء

اسيارات الآخرى او الحصول عليها محليا عن طريق عملاء خصوصيين يصلون الى منطقة بغداد (او يعيشون فيها) قبل الهجوم باسبوع وفى ضوء هذه الخطة يتم اسقاط الكوماندوز بالمظلات فوق الهدف . والواقع ان عمليات المظلات كما هو معروف تعتبر عمليات دقيقة للغاية وتتطلب براعـــة وحذرا . ذلك ان رجال المظلات يكونون عرضة للاصابة الى حد كبير حينما يكونون فى الجو . ثم يتطلب الأمر وقتا معقولا حتى يعيدوا جمع معداتهم التى تناثرت عند هبوطهم على الاراضى . وفى عبارة أخرى الاقتراب الآمن والفعال لقوات الكوماندوز عبـــر الصحراء الى هدف يخضع لحراســـــة جيدة تثير ، فيما يبدو ، مشاكل لايمكن معالجتها تقريبا .

ومن الطبيعى أن المرحلة الثانية لمثل هذه العملية هى الهجوم على الهدف ذاته وتدميره وسوف يكون لـــدى القوات المهاجمـــة خطط ومشروعات للمفاعل النووى أويزراك وربما دليل من احد الخبراء أو اكثر ممن يعملون فى المشروع . واحداث المعلومات عن المنشآت الدفاعية حول المشروع وداخله ، وعدد الحراس والدوريات ، ونوع أسلحتهم وأساليب اتصالاتهم بمقار قيادتهم وما شابه ذلك من أمور ومن المرجح أن القوات المهـاجمة قد تدربت على الهجـوم على نموذج لهذا المفاعل . وان هذه العمليـــة لايمكن ان تحدث ما لم يقرر المســـئولون عن عمليات التدريب هذه ، ان القوات اصبحت مستعدة لشن الهجوم وانه تتوافر لديها فرصة معقولة للنجاح فى مهمتها والعودة سالمة الى اسرائيل .

ولكن ، كما أكدنا بالفعل ان مثل هذه العمليات تنطوى دائما على الكثير مما هو مجهول وغير متوقع . ففى أى الاحوال ، لايمكن انجاز الهجوم على هدف يخضع لحمـــاية شديدة مثل هـــذه ، الا بتكلفة مرتفعة من جانب المهاجمـــين والمدافعين على السواء وكذا بالنسبة للخبراء الأجانب الذين يعملون فى المفاعل خلال الهجوم عليه . وتوقع حدوث خسائر كبيرة فى الأرواح قد قلل بوضوح من احتمال الموافقة على مثل هذا الهجوم من جانب الزعماء السياسيين والعسكريين الاسرائيليين ، الذين كانوا يخشون على أرواح الكوماندوز المهاجمين انفســـهم (ومن المعروف جيدا حساسية اسرائيل المفرطة لوقوع خسائر فى الأرواح) ، كما كانوا يخشون من انه اذا لقى عدد كبير من العلماء العـــراقيين وغيرهم من المدنيين او ما هو اسوأ من ذلك ، وهو الخبراء الأجانب مصرعهم ، فان اجهزة الاعلام العالمية وذوى القلوب الرقيقة ستتهم اسرائيل باستخدام القوة فى غير موضعها ، وبقتل المدنيين الابرياء . (ويتعين ان نتذكر بالطبع ان وجهة نظر اسرائيل ان أى شخص يشترك فى انتاج أسلحة للتدمير والقتل الجماعى مثل هذه القنبلة الذرية ، مع عدو وحشى فى دولة هى فى حالة حرب مع اسرائيل لايمكن اعتباره مدنيا بريئا . وفى ضوء وجهة النظر هذه،كلما كان عدد الخبراء النوويين العراقيين الذين يلقون مصرعهم كبيرا ، كلما كان افضل . اذ ان ذلك يعنى خفض القدرة العراقية على انتاج أسلحة نووية — وان مشروع أسلحتها النووية سوف يرجأ تنفيذه الى أجل غير مسمى) .

والواقع ، ان مثل هذه الاعتبارات ، تقتضى تنفيذ الهجوم خلال يوم عمل عادى ، حيث يعمل فيه اكبر عدد ممكن من الخبراء النوويين العراقيين فى مركز البحث النووى . غير ان شن هجوم فى يوم كهذا فيه صعوبة لانه حيثما يوجد الخبراء العراقيون فى المفاعل ، يوجد كافة الخبراء الأجانب الآخرين هناك ومن ثم تؤدى صعوبة التمييز بين الخبراء العراقيين والفرنسيين والايطاليين الى أن يصاب الكثيرون من الخبراء الأجانب بخسائر فى الأرواح ولقد كانت اسرائيل تريد تجنب كل هـــذا بقدر الامكان . والواقع كما يتبين لنا فيما بعـــد أن الاسرائيليين كانوا حذرين للغاية حتى لا تحدث أية خسائر فى الأرواح بين الخبراء الأجانب(١) .

واخيرا ، تأتى المرحلة الأخيــرة الهامة وهى الانســحاب فبعد ان يكون الكوماندوز قد دمروا ، كما يأملون ، المفاعل النووى ، يكون عليهم ان يغادروا منطقة المفاعل بأسرع ما يمكن . وان الكثير عندئذ يتوقف على السرعة التى يسيطرون بها على المفاعل والقيام بالاستعدادات اللازمة لنسفه . (وقد يكونون قد تلقوا تعليمات بان يأخذوا معهم اليورانيوم المخصب الذى يوجـد فى مؤخرة المفاعل . ويضطلع بهذه المهمة بالطبع فريق من العلمـاء النوويين الاسرائيليين الذين يتدربون باعتبارهم ضباط كوماندوز والذين سيكونون ضمن فريق الهجوم وايا كان الأمر ، فقد كان من المعروف بالنسبة للمخابرات الاسرائيلية ان اليورانيوم المخصب لم يكن موجودا فى ذاك الوقت فى منطقة المفاعل ، وانما يوجد فى مكان آخر تفرض عليه حراسة مشددة للغاية وسوف نذكر الكثير عن ذلك فيما بعد) .

ان السرعة التى تتم بها العملية تعتبر أمرا حاسما . فمن المفترض انه منذ الدقيقة التى يبدأ فيها الهجوم سوف تعلن القيادة العسكرية فى بغداد ، وقوات الامن الداخلى والقوات الجوية حالة التاهب ، ومن المفترض ان تحركاتهم المضادة ستبدأ على الفور . ولذلك ، كلما تم انجاز أهداف الغارة بسرعة ، كلما كان الانسحاب أسرع وأكثر أمنا . ومن المرجح ان الكوماندوز اما أن يستقلوا طائرات هليوكوبتر تحلق بهم ثانية ، او أن يركبوا شـــــاحنات (لوريات) توجد فى الخارج لتنقلهم بعيدا عن منطقة المفاعل . وسواء استخدموا هذه الوسيلة أو تلك كان عليهم أن يصلوا الى الطائرة التى ستقلهم عائدة بهم الى الوطن .

---

(١) لقد جرى اختيار يوم الأحد لشن الغارة على افتراض ان الخبراء الاوروبين لا يعملون فى ذلك اليوم . ولقد كان هذا التقدير خطأ فادحا وقعت فيه المخابرات الاسرائيلية لان الخبراء الاجانب لا يعملون يوم الجمعة ، لان يوم الجمعة يوم العطلة فى البلاد الاسلامية ، ولذلك يعملون أيام الاحد . غير انه فى الوقت الذى وقعت فيه الغارة وهو السادسة والنصف مساء بتوقيت العراق ، كان معظم العمال قد غادروا موقع المفاعل وتوجهوا الى منازلهم . ولم يكن بالموقع سوى خبير فرنسى لقى مصرعه خلال الغارة .

والطائرات ذاتها (اذا ما كانت ستنتظر على الارض حلال الغارة) كانت هناك مخاطرة أن تكتشف · واذا ما كان الأمر كذلك ، فانه سيكون من السهل ان يعترض العراقيون طريقهم · واذا لم يكن الأمر كذلك ، فانها سرعان ما تقلع ، ومن المرجح أن تطير على ارتفاع منخفض قدره حوالى ١٠٠ قدم فقط (وهو أمر خطر للغاية) وعندئذ قد تكتشف وتعترضها طائرات مقاتلة عراقية سواء فوق العراق أو الاردن · والواقع ان حماية وتغطية طائرة الشحن الثقيلة والبطيئة التى تحلق فى الليل فى أجواء العراق سيكون أمرا مستحيلا تقريبا ·

وهكذا ، فان مثل هذه الخطة ذات المراحل الثلاث تعد معقدة للغاية وتنطوى على مخاطر بالغة · ولذلك قرر المخططون الاسرائيليون ان أى غارة يقوم بها الكوماندوز على الارض لن تكون فعالة وان احتمال فشلها كان مرتفعا جدا · لقد كانوا يبحثون عن عملية تتسم بمزيد من السرعة والامان ، وتنطوى على الحد الادنى من نقاط الاحتكاك والاخطاء · لقد كانوا يبحثون عن أقصر مسافة بين نقطتين ، لا عن عملية معقدة ومتعددة المراحل ·

ولذلك ، قرروا أخيرا ، تحويل تخطيط عملية الغارة الى السلاح الجوى الاسرائيلى ، بشرط أن يضمن السلاح الجوى الاسرائيلى تدمير المفاعل بشن غارة واحدة من الجو · وبذلك يتم التدمير الكامل للمفاعل النووى بأقل مخاطرة فى الارواح البشرية ، وأقل دمار بالنسبة لاسرائيل من وجهة الرأى العام العالمى ·

ولقد قال أحد كبار ضباط السلاح الجوى الاسرائيلى لأحد الصحفيين ، الذى سأله عن نجاح السلاح الجوى ، ان المبدأ الاساسى وراء عمليات السلاح الجوى يمكن تلخيصه فى عبارة « اجعلها بسيطة ، يا غبى » ولقد تجاهل هذا المبدأ الأساسى رجال وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) عندما خططوا عملية انقاذ الرهائن الأمريكيين فى ايران ·

ولقد عهد الى فريق عمل من أفضل العقول فى فرع العمليات بالسلاح الجوى الاسرائيلى ، ايجاد « أبسط » خطة وأكثرها فعالية لتدمير المفاعل النووى العراقى ·

١٣ ـ عملية بابل : الاستطلاع

ان الرجل الذى تم اختياره لتولى عملية التنسيق بين السلاح الجوى الاسرائيلى والموساد ، والمخابرات العسكرية ومقار رئاسة الاركان العامة وتخطيط الغارة كان من فرع العمليات التابع للسلاح الجوى الاسرائيلى ، وهو خريج جامعى وطيار على قدر كبير من الخبرة · فقد اشترك فى حرب الايام الست عام ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف فى قناة السويس (من أكتوبر ١٩٦٨ حتى أغسطس ١٩٧٠) · وحرب يوم كيبور عام ١٩٧٣ · ولقد حظى خلال هذه الحروب بخبرة فى قيادة طائرات ميراج ـ ٣ الفرنسية الصنع ، وطائرة سكاى هوك الامريكية ، وأخيرا طائرة الفانتوم طراز اف ـ ٤ ، وهى أثقل طائرة فى السلاح الجوى الاسرائيلى الى أن حصل على طائرات اف ـ ١٥ ·

وعلى الرغم من انه كان الضابط المسئول فى فرع العمليات بمقر قيادة السلاح الجوى الاسرائيلى منذ عامين ظل طيارا وعلى اتصال بعملية الطيران والتدريب ، على الاقل مرة فى الاسبوع ، وهو تقليد يحرص على رعايته حتى اكبر الرتب العسكرية فى السلاح الجوى الاسرائيلى ·

ولقد كان صغير السن نسبيا ، مثل معظم ضباط السلاح الجوى الاسرائيلى فلقد كان فى الثامنة والثلاثين من عمره · ولم تسمح الرقابة الاسرائيلية بنشر اسمه أو حتى الحروف الاولى منه · اذ أن عليه أن يبقى مجهولا ·

وثمة شىء واحد واضح وهو أنه واحد من ألمع العقول فى مجال تخطيط العمليات فى السلاح الجوى الاسرائيلى ، ورجل يعتقد بوجود دور أساسى لقوة الطيران فى الحرب الحديثة ، ويؤمن بأنها أكثر أشكال القوة العسكرية فعالية اذا أحسن فهمها واستخدامها ولقد وجد فى تخطيط عملية بابل وتنفيذها فرصة ذهبية لاثبات ذلك · والواقع ان معتقداته هذه ، تلتقى مع المصلحة البيروقراطية للسياسة القوية داخل السلاح الجوى ، التى لا تبرر فحسب ضرورة الانفاق عليه (يخصص له أكثر من ٥٠٪ من الميزانية العسكرية) بل تشير الى ضرورة زيادة الميزانية المخصصة له ·

وبمجرد ما أن تم الاتفاق على الاتجاه لشن هجوم جوى على المفاعل العراقى بدأ فريق التخطيط بالسلاح الجوى الاسرائيلى العمل بنشاط · وكان من الضرورى جمع كافة المعلومات اللازمة لشن الهجوم من جانب المخابرات العسكرية والموساد ومخابرات السلاح الجوى ـ وكانت كل هذه الجهات تحاول بالطبع بذل أقصى ما فى وسعها لجمع المزيد من المعلومات ·

وكانت المخابرات الاسرائيلية قد جمعت ملفا حول الامكانيات النووية للعراق ونواياها منذ ١٩٧٥ · وباستمرار كان يتم ضم معلومات حديثة لهذا الملف · وعلى الرغم من أن هذا الملف قد أصبح يتكون من مجلدين كبيرين ،

كان الأمر يقتضى الحصول على المزيد من المعلومات الحديثة . ولقد ضاعفت المخابرات العسكرية والموساد بصفة خاصة ، جهودهما للحصول على معلومات من عملائهما ، ومن المرجح انهما زادتا من جهودهما لتجنيد الخبراء النوويين الاجانب الذين يعملون فى العراق .

ففى أعقاب الغارة الايرانية على المفاعل العراقى فى ٣٠ سبتمبر ١٩٨٠ عاد كافة الخبراء الفرنسيين والايطاليين الى بلديهما (غير أنهما رجعا الى العراق فى فبراير ١٩٨١ للعمل فى المفاعل النووى العراقى حيث بدأ العمل فيه على نطاق واسع فى وقت ما من شهر ابريل ١٩٨١) . ولعل هذا التطور قد أعطى الموساد فرصة لتجنيد بعض كبار الخبراء للعمل فى خدمتها .

ولقد كان الامر يقتضى الحصول على معلومات حديثة حول عدد كبير من المسائل ، منها : مدى تقدم العمل فى الموقع النووى ، والمكان الذى يخزن فيه اليورانيوم المخصب الفرنسى داخل العراق ، ونوع الدفاعات ــ الجوية وغيرها ، الموجودة حول المفاعل النووى ــ وقد جرى تدعيمها فى أعقاب الهجوم الايرانى فى ٣٠ سبتمبر ١٩٨٠ ــ والدفاعات الرادارية لكل من العراق والسعودية والاردن ، وتفاصيل عن أحوال الطقس فوق الهدف ، وتحديد كمية المتفجرات اللازمة لضمان تدمير المفاعل ، وغير ذلك من المعلومات .

وفى وقت ما خلال شهر اكتوبر ١٩٨٠ ، وفى أعقاب الهجوم الايرانى على المفاعل يترجح أن يكون سلاح الطيران الاسرائيلى قد حصل على تصريح لارسال طائرة استطلاع تحلق على ارتفاع شاهق جدا فوق المفاعل لالتقاط صور من الجو لمنطقة المفاعل .

فمن المؤكد ان الاسرائيليين كانوا مهتمين للغاية لمعرفة حجم الدمار الذى لحق بالمفاعل العراقى ، والى أى مدى يمكن أن يعطل هذا الدمار البرنامج النووى العراقى ، ومدى تعزيز الدفاعات العراقية المضادة للطائرات حول المفاعل فى أعقاب الغارة الجوية الايرانية عليه . .

وفى وقت ما فى خريف ١٩٨٠ اجتمع ممثلو المخابرات الاسرائيلية مع أقرانهم الأمريكيين ــ المخابرات المركزية الأمريكية ووكالة مخابرات الدفاع ــ فى العاصمة واشنطن لتبادل الاراء حول التقدم الذى أحرزه البرنامج النووى العراقى . ولم يشارك الأمريكيون أقرانهم الاسرائيليين فيما أبدوه من قلق عاجل بشأن هذا التقدم على الرغم من أنهم أعربوا عن قلقهم ازاء مخاطر حصول العراق على أسلحة نووية فى المدى الطويل . وقد أبلغوا الزائرين الاسرائيليين

الذين يساورهم القلق انه طبقا لتقديراتهم لن يحصل العراقيون على اية أسلحة نووية أو قنبلة نووية قبل عام ١٩٨٥ أو ١٩٨٦ . غير أن الاسرائيليين أعربوا عن مخاوفهم من أن العراقيين قد يحصلون على مثل هذه الاسلحة فى وقت سابق للتحديد الأمريكى بكثير . ومن المرجح الى حد كبير ان يكون الاسرائيليون قد حصلوا فى تلك المناسبة على الصور الجوية التى التقطها القمر الصناعى الأمريكى لمنطقة المفاعل .

كما ترددت شائعات فى ذاك الوقت تقريبا (وربما قبل ذلك بوقت كثير) ان الاسرائيليين حصلوا على صور جوية من السافاك (المخابرات الايرانية) . ذلك أن للاسرائيليين علاقة وثيقة بالسافاك منذ منتصف الخمسينيات . قد تولوا تدريب ضباط المخابرات الايرانية وباعوا أسلحة لايران . وعلى الرغم من أنه فى أعقاب الثورة الاسلامية وتولى الخمينى السلطة قد قطعت العلاقات بين ايران واسرائيل ، واغلقت السفارة الاسرائيلية فى ايران (وسلم مبناها الى منظمة التحرير الفلسطينية) على الرغم من ذلك تردد أن الحكومتين استمرتا فى الاحتفاظ بنوع من الاتصال السرى غير المعلن، وأن الاسرائيليين كانوا يبيعون للايرانيين الذخيرة وقطع الغيار لاسلحتهم الأمريكية الصنع . وفضلا عن ذلك ، كانت اسرائيل وايران (كما اعترف بذلك شاه ايران الراحل) لديهما مصلحة مشتركة قوية فى تدمير الطموحات النووية العراقية التى من المرجح أنها كانت موجهة ضد ايران أكثر مما هى موجهة ضد اسرائيل (على الرغم من أن تصريحات صدام حسين تشير الى عكس ذلك) .

وفضلا عن كل ذلك ، تعد ايران عدوا قديما للعراق التى لها مزاعم اقليمية فى الاراضى الايرانية . وفى ضوء هذا كله ، خلق الهجوم العراقى المفاجىء على ايران فى سبتمبر ١٩٨٠ حافزا قويا للتعاون بين ايران واسرائيل . ولهذا ربما يمكن افتراض ان الايرانيين أعطوا الاسرائيليين كل ما كانوا فى حاجة اليه من معلومات لديهم عن المفاعل النووى العراقى الذى يقع بالقرب من بغداد ، وذلك فى ضوء التقليد السائد فى الشرق الاوسط وهو « أن عدو عدوى يعتبر صديقى » . ولقد كان الاسرائيليون ــ على عكس الأمريكيين الذين تتوقع تقديرات مخابراتهم استكمال المشروع النووى العراقى فى عام ١٩٨٥ ــ يشعرون بضغط عنصر الزمن ، ومن ثم بدأوا ــ فى الوقت الذى كانت فيه المعلومات لا تزال تتدفق عليهم ــ بدأوا التدريب ، مع بذل الجهد فى مجال التخطيط ، وذلك قبل وقت طويل من اكتمال الخطط الخاصة بالغارة .

وقد أثار التخطيط للغارة عددا ضئيلا من المشاكل الخطيرة فى مقدمتها المسافة الطويلة بين بغداد وقواعد السلاح الجوى الاسرائيلى ذلك أن المسافة جوا بين القواعد الجوية الاسرائيلية الرئيسية فى (اتزيون) و (ايتام)

ى سيناء وبين بغداد تبلغ أكثر من ٦٠٠ ميل (أى أكثر من الف كيلو متر) وإذا ما قارنا هذه المسافة بمهمات القصف البريطانية على مدن أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية فهى تماثل المسافة من لندن الى برلين او دريدن أو براغ أو فيينا أو ميلانو أو مرسيليا – وفى عبارة أخرى انها اقصى مدى تقطعه القاذفات ذات المحركات الأربعة القوية خلال الحرب العالمية الثانية .

وهذه المسافة تعنى أن السلاح الجوى الاسرائيلى سيقوم بأطول غارة فى التاريخ .

١٤ – عملية بابل : النسر والصقر المقاتل

عندما درس المخططون لعملية الهجوم على المفاعل النووى فى العراق الامكانيات التى يمكن أن يحصلوا عليها ويعتمدون عليها من السلاح الجوى الاسرائيلى شعروا بالرضاء الكامل .

لقد تعرض ذراع اسرائيل المقاتل الأكثر اهمية ، لعدد ضئيل من التغييرات الحاسمة التى تعكس دروس حرب يوم كيبور .

ففى عام ١٩٧٣ ، لم يكن السلاح الجوى الاسرائيلى مستعدا تمام الاستعداد لنوع الهجوم الذى شنه الجيشان المصرى والسورى . ففى ١٩٦٧ ، شنت الطائرات الاسرائيلية هجوما مفاجئا على المطارات العربية ، وبذلك دمرت الطائرات المقاتلة والقاذفة العربية (حوالى ٣٥٠ منها) على الأرض خلال الساعات الأولى للحرب . ومع ذلك حالت الضغوط السياسية فى عام ١٩٧٣ دون أن يقوم سلاح الطيران الاسرائيلى بغارة وقائية مماثلة .

وكانت النتيجة بالنسبة للسلاح الجوى كارثة . ففى غضون الايام الأولى للحرب ، اسقطت الدفاعات المصرية والسورية المضادة للطائرات ، وخاصة صواريخ سام – ٦ والمدفعية المتحركة المضادة للطائرات من طراز زد اس يو – ٢٣ – ٤ ، أكثر من ٥٠ طائرة اسرائيلية .

وتعتبر القيود السياسية ، بالطبع ، واحدة من الأسباب الرئيسية التى جعلت الطيارين الاسرائيليين يضطرون الى القتال فى ظل ظروف صعبة للغاية . ولكن عندما انتهت الحرب ، اعترف المحللون الاسرائيليون بأن بعض الاخطاء الاساسية التى وقعت فى عملية اعداد السلاح الجوى للحرب القادمة كانت سببا فى معدل الخسارة المرتفع . ولذلك جلسوا فى أعقاب الحرب مباشرة . ليضعوا خطة الحرب القادمة .

وبحلول الثمانينيات كان الاسرائيليون قد بذلوا جانبا كبيرا من العمل والجهد للتغلب على ضعفهم الأساسى .

ولقد كان التغير الأساسى والأكثر اهمية تغيرا كميا . ففى ١٩٧٣ ، وعشية حرب اكتوبر ، كان لدى الاسرائيليين حوالى ٣٤٠ طائرة مقاتلة ، ومقاتلة قاذفة ، وخاصة طائرات الفانتوم من طراز اف–٤ وسكاى هوك طراز ا – ٤ ، والميراج ٣ – سى اس ، والطائرة الاسرائيلية الصنع نيشر . بل لقد كان عليهم أن يستخدموا طائرات قديمة هى سوبر مستير . أما السلاح الجوى المصرى والسورى فقد كان لديهما أكثرمن ٨٥٠ طائرة بالمقارنة للطائرات الاسرائيلية .

اما الآن — فى عام ۱۹۸۰ — فان عــدد الطائرات التى لدى اسرائيل تصل الى ٦٥٠ طائرة وهى من طراز فانتوم اف ــ ١٥ واف ــ ١٦ والطائرات الاسرائيلية الصنع كافير . وبذلك تصل النسبة بين عدد الطائرات الاسرائيلية والطائرات المعادية ١ الى ١ر٧ مقابل ١ الى ١ر٢٥ عام ١٩٧٣ وتعتبر معظم الطائرات الاسرائيلية متطورة للغاية وافضل تجهيزا بالمعدات اذا قورنت بغيرها من طائرات السلاح الجوى فى الشرق الأوسط .

ومع ذلك ، ليس هــذا هــو التغير الوحيد . فقــد اكتشف الخبراء العسكريون ۹ نقاط ضعف هى التى دمرت أداء السلاح الجوى الاسرائيلى عام ۱۹۷۳ . وبحلول عام ۱۹۸۰ ، وعلى حد تقارير الصحف الأجنبية ، جرى تصحيح معظمها ، وبذلك تم ايجاد آلة حرب أكثر كفاءة وقوة .

وقد أشارت الصحف الأمريكية الى ان ابرز اوجه ضعف السلاح الجوى الاسرائيلى خلال ۱۹۷۳ هى :

١ — الافتقار الى مراكز فعالة لادارة المعركة ، وقد حال الافتقار اليها دون وجود تنسيق بين طلعات الطائرات على الجبهتين .

٢ — كان الاستطلاع بطيئا وغير فعال . ولم يكن لدى اسرائيل القدرة على تحليل المعلومات التى تحصل عليها والاستفادة منها فى الوقت المناسب ، أو على الأقل فى زمن قريب من الوقت المناسب .

٣ — الافتقار الى التدريب على جهاز المقياس الالكترونى المضاد الخاص بالتشويش ذلك أن حرب ۱۹۷۳ كانت حربا استخدمت فيها الأجهزة الالكترونية اكثر من ذى قبــل . غير أن الطيارين الاسرائيليين لم يكونوا مدربين تدريبا كافيا لمثــل هــذه الحرب .

٤ — ان الطيارين الاسرائيليين قد تدربوا اساسا على الدفاع الجــوى والقتال الجوى ومع ذلك ، كانت المهمات القتالية تهاجم اهدافا تفرض عليها حماية مشددة من جانب الدفاعات المضادة للطائرات .

٥ — كان التنسيق هزيلا بين الســلاح الجوى والجيش . ولقــد ادت الاتصالات غير الكافية ، وكــذا الافتقــار الى مستوى قيادى وسيط وهيكل اتصــال ، الى الحيلولة بين الســلاح الجوى وبين تقــديم المساعدة لوحدات الجيش على المستوى « التاكتيكى » .

٦ — لم تكن الادارة المركزية جــو — جــو فعالة فعالية كافية ، فقد سمحت لأن تتطور معارك كثيرة فى ظل توافر قدر ضئيل من السيطرة المركزية والمقــاتلات المخصصة لذلك .

٧ — لم يمارس الســلاح الجوى الاسرائيلى اية قــدرة فى كافة المعارك

المشــتركة لطائرات الهليوكوبتر والمدفعية والصــواريخ بســبب الافتقــار الى التدريب .

٨ — لم يحظ تخطيط وتنفيذ الغارات الطويلة المدى وعلى كافة المستويات الا بقــدر ضئيل من التدريب .

٩ — الافتقار الى التنســيق الفعال بين اجهزة الدفاع ارض — جــو واجهزة الدفاع جو — جو :

غير انه فى عام ۱۹۸۰ كان السلاح الجوى الاسرائيلى قد تغلب على معظم هذه المشاكل . فقــد غدت لديه امكانيات ادارة مركزية فعالة بالنسبة لكافة انواع المهمات ، وجرى تحسين الوقت الفعلى التقريبى للاستطلاع والقدرة على تحليل المعلومات وارسالها بسرعة لكافة المراكز القيــادية . وقد زود بأحدث قياس الكترونى مضاد ، وينتج معظمه فى اسرائيل ذاتها . وأصبح الطيارون الاسرائيليون أفضل فى ادارة الاجهزة المتطورة . ويجرى تدريب الطيــارين اساسا على القيام بمهمات هجومية . وهم يعتبرون من أحسن الطيــارين فى العالم فى هذا النوع من القتال . كما حسن السلاح الجوى الاسرائيلى أساليب اتصاله بالجيش والبحرية والادارة المركزية للمعركة بشأن القتــال الجوى ، وكذا قدرتها على تشغيل طائرات الهليوكوبتر بالتنسيق مع القوات البرية .

وقد أعطى السلاح الجوى اهتماما خاصا للتدريب على المهمات القتــالية طويلة المدى . فقد حصل الاسرائيليون ، فى اعقاب حرب ۱۹۷۳ ، على أكثر الطائرات الامريــكية تطورا وهى الفانتــــوم من طراز اف ــ ١٥ و اف ــ ١٦ وبالاضافة الى الطائرة الجــديدة المتطورة هوك اى ــ ٢سى ، التى قد صممت خصيصا بين أسلحة أخرى ـ لتحقيق التنسيق بين مثل هــذه المهمات ، فان قصف المفاعل العراقى بالقرب من بغداد كان صعبا ولكنه لم يكن مهمة مستحيلة بالنسبة للاسرائيليين . ولقد كان المخططون العسكريون للغــارة يدركون أن المشكلة ليست مشكلة عسكرية . فقد كانوا واثقين أن فى امكان الطيــارين الاسرائيليين تنفيذ المهمة على أكمل وجه . غير أن المشكلة بالطبع كانت مشكلة سياسية وهى : اضاءة النور الاخضر لتدمير المفاعل .

وكان يمكن تنفيذ المهمة ضد المفاعل العراقى باستخدام أى من الطائرات المقاتلات ـ القــاذفات الاسرائيلية من طراز اــ ٤ أو اف ــ ٤ أو كافير سى ــ ٢ أو اف ــ ١٥ أو اف ــ ١٦ غير أن المدى الكبير جدا للغــارة كان سيضطر فريق التخطيط للغارة الى استخدام نظام التزويد بالوقود فى الجو بالنسبة لبعض الطائرات (مثــل الطائرات من طراز اــ ٤ أو كافير سى ــ ٢) فور اقلاعهــا ، الامر الذى من شــأنه أن يضيف بعض التعقيدات لخطتهم ، وقد يؤدى الى اكتشاف هذا النشاط غير العــادى على شاشات رادار الاردن أو الســعودية أو فى طريق عودة الطائرات الاسرائيلية ، مما يعرضها لخطر الاعتراض سواء

من جانب العراق أو الاردن . وهذا يقتضى غطاء جويا أطول من جانب المقاتلات الاسرائيلية للطائرات والقاذفات العائدة ولذلك تقرر تجنب تزويد الطائرة المهاجمة بالوقود اذا امكن ذلـك ومن ثم انحصر الاختيار فى ثلاث طائرات محتملة هى : الفانتوم طراز اف ـ ٤ ، والنسر طراز اف ـ ١٥ والصقر المقاتل طراز اف ـ ١٦ . وكان بوسع كل من هـذه الطائرات حمل كمية اضافية من الوقود ، وان كان ذلك يؤدى الى خفض حمولتها من القنابل خفضا كبيرا .

غير أنه تقرر ، بعد مناقشة قصيرة ، اختيار الصقر المقاتل اف ـ ١٦ التى تنتجها شركة (جنرال ديناميكس) الامريكية ، والنسر (اف ـ ١٥) التى تنتجها شركة (دونالد دوجلاس) الامريكية ـ وكلتـا هاتين الطائرتين من أكثر الطائرات المقاتلة حدة وتطورا فى العالم . وقـد وقع الاختيار على هاتين الطائرتين لاسباب عديدة . فهما مزودتان بأكثر نظم الملاحة تقدما فى الترسانة الاسرائيلية . ومداهما اطول من مدى الطائرة اف ـ ٤ ، وخاصة عندما يحملان شحنات وقود اضافية ، بينما يمكنهما فى الوقت ذاته حمل شحنات متفجرة أكثر . كما أن اف ـ ٤ تعـد طائرة أثقل وتحمل شحنة متفجرة أقل بالنسبة لمسافة أصغر ، تطلق محركاتها أثرا ثقيلا من الدخان الاسود مما يجعل اكتشافها واعتراضها اكثر سهولة وعلاوة على ذلك ، يوجد لطائرة اف ـ ٤ مقعدان أحدهما للطيار والآخر للملاح ، وقد يقتضى استخدامها اشتراك عدد اكبر من الأشخاص فى المهمة السرية . مع انه كلما كان عدد الذين يعـرفون بهذه المهمة اقل كلما كان ذلك أفضل . ولكن ، وفوق ذلك كله ، كانت أجهزة الملاحة الافضل ، المزودة بها طائرات اف ـ ١٥ ، اف ـ ١٦ تسمح لهما بالتحليق قريبا من الارض وتحديد الهدف ثم مهاجمته ، والتحليق بعيدا عنه بسرعة أكبر من أى طائرة عمليات أخرى فى العالم . ذلك ان توافر السرعة الكبرى ، أو القدرة على المناورة كانتا أفضل ضمان بأن فى وسعهما مهاجمة الهدف بأسرع ما يمكن ثم الاختفاء مع وجود فرصة ضئيلة لاعتراضهما ـ وهما فى طريقهما للوطن ـ من جانب الطائرات العراقية أو الاردنية ولقد كانت السرعة التى تتمتع بها الطائرة اف ـ ١٦ وحجمها الصغير ميزتين جعلا منها الطائرة المثلى لقصف المفاعل العراقى ، بينما اختيرت الطائرة اف ـ ١٥ لتغطية وحماية الطائرات اف ـ ١٦ المهاجمة من فوق . ومن الناحية النظرية ، يمكن للطائرتين أن تتبادلا الادوار ، بحيث يمكن لـ اف ـ ١٦ ان تتولى الحماية بينما تهاجم اف ـ ١٥ المفاعل . غير أن الحجم الصغير للطائرات اف ـ ١٦ يجعلها اقل عرضـة للاصابة من جانب المدفعية المضادة للطائرات من الطائرات اف ـ ١٥ ذات المحرك .

وفى ظل ظروف المفاجأة الكاملة لن يتوافر للدفاعات العراقية الخاصة بالمفاعل الذرى ، لن يتوافـر لهـا من الناحية العملية اية فرصة لاعتراض الطائرات المهاجمة اف ـ ١٦ واسـقاطها ، وذلك انطلاقا من الافتراض ان الاطقم العراقية المضادة للطائرات (التى تسـتخدم المدفعية السوفيتية الصنع

المضادة للطائرات من طراز زوسيو ـ ٢٣ ـ ٤ والصواريخ المضادة للطائرات من طراز سـام ـ ٦ وسام ـ ٩ أو الصواريخ الفرنسية كروتال) التى تحمى المفاعل ستكون بطيئة جدا فى رد فعلها . وعلى حين أن الدقائق لابد ان تبـدو وكأنها مستمرة الى مالا نهاية بالنسبة للطيارين الاسرائيليين المهاجمين ، كانت دقيقتان لا تساويان اى شىء بالنسبة للمدافعين ضد هجوم مفاجىء .

بل انه اذا كان العراقيون فى حالة تأهب جزئى ، فان الطائرات (اف ـ ١٥) التى تتولى تغطية الطائرات المهاجمة (اف ـ ١٦) كان من المرجح أنهـا تحمل أجهزة الكترونية للتشويش على رادارات بطاريات صواريخ سـام ـ ٦ وسام ـ ٩ وعلى قرون الاستشعار الموجودة فى رأس الصواريخ نفسها . ولقد كان الاسرائيليون قد استولوا على نماذج من صواريخ ورادار سام ـ ٦ خلال حرب يوم كيبور . ويبدو ان السنوات السبع التى مرت منذ ذلك الحين كانت كافية لتصميم اجراءات مضادة لها . وعلاوة على ذلك ، وقبل اسبوع واحد قبل من الغارة ، دمر السلاح الجوى الاسرائيلى بطارية صواريخ ليبيـة من طراز سام ـ ٩ بالقرب من بيروت ، مما اثبت ان السلاح قد طور وسائل مضادة فعالة لتحويل انتباه العدو بعيدا عن الطائرات . ويصدق نفس الشىء بالنسبة لاداء صواريخ (كروتال) ، الفرنسية المضـادة للطائرات وذات المدى المحدود . ولذلك ، كان التهديد الأكثر خطورة بالنسبة للاسرائيليين هو المدفعية السوفيتية الصنع المضادة للطائرات ، واحتمال ان تكون الطائرات الاعتراضية العراقيـة سريعة بالقدر الذى يمكنها من أن ترد فى الوقت المناسب .

وفيما يتعلق بخطر الطائرات الاعتراضية العراقية ، نجد انه اذا ما كان فى وسع الطيارين العراقيين الرد بمجرد قصف الهدف ، فان الطائرات اف ـ ١٦ واف ـ ١٥ الاكثر سرعة يمكنها الابتعاد قبل أن تقترب منها الطائرات العراقية من طراز ميج ـ ٢٣ أو ميج ـ ٢١ وحتى اذا ما تلقى السلاح الجوى العراقى تحذيرا مسبقا ـ وذلك فى حالة اكتشاف الطائرات الاسرائيلية على شاشـات الرادار وهو أمر غير محتمل بسبب تحليقها على ارتفاع منخفض ـ فان الغطاء الذى تقدمه الطائرات اف ـ ١٥ بما لديها من مجموعة من الصواريخ الطويلة المدى مثل سبارو وسايد وندر والطراز المتقدم من الصاروخ الاسرائيلى شافرير سوف لا تسمح للطائرات الاعتراضية العراقية الا بفرصة ضئيلة للغاية للالتحام مع الطائرات الاسرائيلية اف ـ ١٦ . وفضلا عن ذلك ، كانت الخبرة الفائقة التى يتمتع بها الطيارون الاسرائيليون الذين جرى اختبارهم لهذه المهمة سـوف تجعلهم يظهرون براعة اكثر من الطائرات المقاتلة الامريكية الصنع والصواريخ جـو ـ جـو .

ومن المؤكد ان الطيـارين العراقيين اقـل خبرة بالمقـارنة بالطيـارين الاسرائيليين . والواقع أن تضافر المفاجآت والاجهزة المتقدمة والخبرة لا يمكن

هزيمتها ومع ذلك ، بذل المخططون الاسرائيليون اقصى ما فى وسعهم لضمان نجاح الغارة كما لو كانوا يهاجمون عدوا فى حالة تأهب كامل وفى وسعه وامكانه أن يقاتل ردا على الهجوم .

وحتى يتسنى تحقيق المفاجاة الكاملة ، التى تعد افضل سبيل لضمان انجاز عملية نظيفة دون خسارة اى طائرة ، كان الأمر يقتضى تحقيق ظروف معينة وخاصة السرية الكاملة فى تخطيط العملية واختيار الطريق الذى ستحلق فيه الطائرات بحيث لا يكتشفها رادار اى مراقب معاد قد يحذر العراقيين .

والواقع ان السرية الكاملة مسالة من السهل نسبيا تحقيقها فى ظل ظروف الأمن المشددة فى اسرائيل ، وذلك بسبب الألفة الحميمة للمشتركين فى العملية تجاه بعضهم فى مثل هذا البلد الصغير .

ولقد ابلغ على الفور الطيارون الذين جرى اختيارهم بدقة للاشتراك فى المهمة (وكان عددهم حوالى ٢٤ طيارا ، بالرغم من أن ١٦ فقط اشتركوا فى الغارة نفسها ابلغوا فى البداية بطبيعة المهمة فى ايجاز ، بالرغم من ان تاريخها لم يبلغوا به الا فى اليوم السابق على تنفيذ العملية ، ولم يسمح لهم بالتحدث عن المهمة مع اى احد حتى عائلاتهم والواقع ان هذا الأسلوب الخاص بجعل الطيارين يعرفون ان ما يتدربون من اجله يعد نمطا للموقف العسكرى فى اسرائيل . اذ لابد من توافر الحد الأقصى من الثقة فى كافة الضباط والجنود المشتركين فى اى عمليـة ، وغرس الايمان بذكائهم ، وان يسمح لهم بفهم مهمتهم حتى يمكن أن يشاركوا بافكارهم وتفكيرهم الخلاق .

وعلى الرغم من كافة الجهود التى بذلت لابقاء العملية فى طى الكتمان مع وجود دائرة صغيرة فحسب من المشاركين فيها ، على الرغم من ذلك حدث تسريب غير متعمد . ولكن من حسن الحظ أن هذا التسريب ظل فى نطاق دائرة من الأشخاص الموثوق بهم . وان بعض الذين جرى ابلاغهم بها لم تكن لديهم الا فكرة عامة عن التخطيط لعملية ، بينما كان لدى الآخرين معلومات محددة عن تاريخها . ومن هؤلاء الذين كانوا يعرفون مسبقا بالعملية عيزرا وايزمان وزير الدفاع السابق والذى اصبح الآن سياسيا معارضا لبيجين . وكان وايزمان أحد الصقور السابقين الا انه أصبح الآن حمامة وديعة . وقد حاول الحصول على مساندة ضد العملية من جانب زعيم المعارضة شيمون بيريز رئيس الوزراء السابق الذى ناقش بدوره الغارة المخطط لها مع اسحق رابين رئيس الوزراء الأسبق ورئيس الأركان الأسبق (واحد زعماء حزب العمل المعارض) ومع موردخاى جور — رئيس الاركان الأسبق ، وابا ايبان وزير الخارجية الأسبق وغيرهم من كبار اعضاء حزب العمل المعارض . كما وصلت

معلومات الغارة الى احد الصحفيين المقربين من وايزمان ومراسل تليفزيونى سابق واحد المساعدين المقربين لشيمون بيريز .

ولقد ادى تسرب أنباء الغارة الى أن يشعر مناحيم بيجين رئيس الوزراء ومساعدوه المقربون بقلق بالغ . ونتيجة لذلك تقرر ارجاء موعد الهجوم مرتين على الاقل احداهما (يوم ١٠ مايو) بعد ان اعطى لطيارى السلاح الجوى الاسرائيلى الموافقة على المضى قدما فى تنفيذ العملية . وعلى الرغم من أن زعماء المعارضة ، الذين كانوا فى معمعة حملة انتخابية عنيفة ، يعارضون بشدة الغارة لاسباب سياسية ودبلوماسية وعسكرية ، على الرغم من ذلك لم يسربوا اى انباء عنها خارج دائرتهم .

ونظرا لتاجيل العملية بسبب تسرب انباء الغارة ، قرر بيجين الا تتولى اللجنة الدائمة لمجلس الوزراء او لجنة الدفاع والشئون الخارجية مهمة تحديد تاريخ الغارة ، وانما كلف بذلك لجنة فرعية خاصة تضم بيجين نفسه وشامير وزير الخارجية واريل شارون وزير الزراعة (وسميت لجنة الثلاثة) . وقد قررت هذه اللجنة فيما بعد بالتنسيق مع رئيس الاركان الموعد النهائى للغارة وهو ٧ يونيو ١٩٨١ . وقد ادى هذا الاجراء الى تحقيق السرية فيما يتعلق بتوقيت العملية ذاتها ومع ذلك علم زعماء المعارضة بالغارة قبل موعد بدئها بثمانى ساعات وكان لديهم وقت كاف للاجتماع ومناقشة الآثار المحتملة للغارة على الحملة الانتخابية القادمة وذلك قبل ان تحدث الغارة .

ويمكن أن نقدر أن ما بين ٨٠ الى ١٠٠ شخص على الاقل كانوا يعرفون مقدما باعتزام اسرائيل تدمير المفاعل النووى العراقى فى وقت ما ، وان عددا أصغر كانت لديهم معلومات مقدما عن اليوم المحدد للغارة .

وهكذا ، وفيما يتعلق بضرورة السرية لتحقيق المفاجاة ، يتضح انه بالرغم من النظام الداخلى للأسرار لم تصل اية معلومات الى ايد معادية .

غير أن تحقيق المفاجاة الكاملة اعتمد كذلك على التخطيط الدقيق للعملية ذاتها . فقد كان على الطائرة أن تقترب من الهدف بدون أن تكتشف على الاطلاق .

١٥ ـ عمليـة بابل : طريق الاقتراب

كان تخطيط طريق الاقتراب الى الهـدف ينطوى على اهمية كبرى . ذلك ان الشرق الاوسط يعد فى حالة حرب مستمرة ، ومن ثم تجده فى حالة دائمة نسبيا من التأهب ونتيجة لذلك ، تكتظ المنطقة بمحطات الرادار المتداخلة التى تغطى كل الاتجاهات المحتملة تقريبا .

وفى غضون المراحل الاولى للحرب بين العراق وايران ، كان العراقيون يفضلون حماية مطاراتهم باستخدام نظم سوفيتية (كانت تستخدم فوق فيتنام الشماليه) من شأنها اعتراض طائرة العدو وهى تقترب من اهدافها بقـدر الامكان والقرب من الحدود . غيرانه فيما بعد ، ومع النجاح لهجمات الطائرات الايرانيه التى كانت تحلق على ارتفـاع منخفض والتى فشـل العراقيون فى اعتراضـها ، غير العراقيون دفاعاتهم المضادة للطائرات ، وركزوا على النيران المضادة للطـائرات وواجهوا اعتراض الطـائرات الايرانية بالقرب من منشآتهم الكبرى . وقد أدى تغيير هذا « التكتيك » الى تعزيز ضخم للدفاعات الجوية حول المفاعل النووى العراقى . وقد جعل النظام السوفيتى الخاص بالدفاعات الجوية المتقدمة ، من السهل التعرف على الصديق أو العدو .

وعلى الرغم من حقيقة أن العراقيين قد اشتركوا فيما لا يقل عن ثلاث حروب ضد اسرائيل . كان الاسرائيليون لايعرفون سوى قدر ضئيل نسبيـا عنهم (فيما يتعلق بادائهم فى ميدان القتال ، والقيـادة والبادرة وغير ذلك) ولقد اشارت الصعوبات التى واجهها العراقيون فى حربهم ضد ايران الى ان المخابرات الاسرائيليه ربما ضخمت ، فيما بدا ، فى تقدير القدرات العراقية .

ومع ذلك ، نجد ان قدرا كبيرا من الاهتمام قد بذل فى تخطيط وتغطية اقتراب الطائرات الاسرائيلية من هدفها . ومن المرجح أن هذا الامر قد تحقق باستخدام خمسة سبل متداخلة ومتبادلة . أولها كان اختيار طريق الطيران بين رادارات العدو حتى لا يتسنى اكتشاف الطائرات ، وثانيها كان يتمثل فى تحليق الطائرات على ارتفاع منخفض بقدر الامكان وذلك حتى لايمكن للرادار رصد الطائرات فى حالة تحليقها فى منطقة يوجد فيها رادار ، وثالثها كان الالتزام الدقيق بعدم ارسـال أية اشـارات لاسلكية . ورابعها التعتيم على رادارات العدو باستخدام أساليب خداعية والتشويش عليه . وخامسها فى حالة اكتشاف الطائرات فى منتصف الرحلة ، كان على الطيارين الحيلولة دون التعرف عليهم عن طريق استخدام الخدع المباشرة ــ مثل التظاهر بانهم طيارون اردنيون أو سعوديون فى مهمة تدريبية ، وبعدم استخدام علامات واضحة للتعرف عليهم . وباستخدام الاساليب السلبية للتمويه .

١ ــ من المؤكد ان فريق تخطيط الغارة بالسلاح الجوى الاسرائيلى لم يكن ليختار الطريق المباشر للوصول الى بغداد . ذلك ان الطريق الاقصر

الى بغداد يقتضى الطيران فوق جنوبى سوريا وفوق الاردن . وذلك فى الوقت الذى يراقب فيه السوريون والاردنيون هذا الطريق مراقبة شديدة . وفضلا عن ذلك . كان السوريون فى حالة أزمة مع اسرائيل حول الصواريخ السوريه فى سهل البقاع اللبنانى ، وهى الازمة التى نشأت فى أعقاب ادخال السوريين صواريخ سام ــ ٦ المضادة للطائرات فى شرقى لبنان وكانت الازمة لا تزال قائمة ولم يتم التوصل الى حد لها بعد . وكان المبعوث الامريكى فى الشرق الاوسط السفير فيليب حبيب لا يزال يقوم بدبلوماسيه « المكوك » بين دمشق وبيروت والقدس والرياض لبحث حل هذه الازمة وفى الوقت نفسه ، استمر الاسرائيليون فى شن غارات جويه مكثفة فوق لبنان ضد منظمة التحرير الفلسطينية ولذلك كان من المتوقع أن يكون السوريون فى حالة تأهب خاصة ـ وذلك اذا ما اخذنا فى اعتبارنا وعد بيجين بمهاجمة قواعد الصواريخ السورية فى سهل البقاع (وربما فى أى مكان آخر) . ومن ثم ، اهتم السـوريون بمراقبة راداراتهم لحدودهم الجنـوبية . كمـا اهتم الاردنيـون بان تغطى راداراتهم كافة حدودهم الشمالية . ولذلك ، كان الاختيار الوحيد أن تسلك الطائرات الاسرائيلية الطريق الجنوبى الاكثر أمنا وطولا حتى تصـل الى الهدف .

ونحن نعرف الان ان الطائرات الاسرائيلية أقلعت وهى فى طريقها الى بغداد من قاعدة (اتزيون) الضخمة بالقرب من ايلات (وهى واحدة من أكبر وأحدث المطارات العسكريه فى العالم) وتقع هذه القاعدة على بعد ١٥ ميلا (على الاكثر) من الحدود الاردنية ولذلك تخضع لمراقبة راداريه مستمرة وربما مراقبـة بصرية كذلك . ومن ثم اذا لم يجر تغطيـة اقلاع الطـائرات منها باستخدام أجهزة الكترونية لتعتيم الرادارات الاردنية ، فان عليها ان تحلق على ارتفاع منخفض للغايه لتجنب اكتشافها .

٢ ــ وكان الاسلوب الثانى والمكمل للاسلوب الاول لتجنب اكتشـاف الطائرات هو أن تحلق على ارتفاع منخفض جدا . وفى كافة الاحتمالات حلق الاسرائيليون طوال مسافة كبيرة من طريقهم الى بغداد على ارتفاع يتراوح من ٣٠ الى ٦٠ قدما فوق سطح الارض ، وان أقصى ارتفاع لم يتجاوز ٢٠٠ قدم ، وذلك فى ضوء طبيعة الاراضى التى تحلق الطائرات فوقها .

والواقع ، أن الملاحة والطيران ذاته شكلا ضغطا شديدا للغاية وأعباء عمل شاقة على الطيارين ، وكانتا تتطلبان منهم مهارة فائقة وأعصابا باردة وقوة تحمل ذلك أنه فى ظل ظروف الطيران العادية ، كان تحليق الطائرات بمثل هذا الانخفاض ينطوى على خطورة بالغة . ومع ذلك ، كان الطيارون الاسرائيليون قد تدربوا على الطيران المنخفض للغاية ، منذ أن بات معروفا لهم ان ذلك أفضل سبل دفاعهم ضد الطائرات الاعتراضية ونيران المدفعية المضادة للطائرات ـ ومن المرجح ان الاربعة والعشرين طيارا ـ أو نحو ذلك ـ الذين

تدربوا على عملية بابل قد حسنوا تكتيك الطيران على ارتفاع منخفض ، وخبرة الملاحة الجوية على ارتفاع منخفض فى ضوء الصعوبة الخاصة بالملاحة فوق الصحراء .

والواقع ان الطيران على ارتفاع منخفض لا يخلق صعوبات خاصة بالملاحة وانما يقلل الى حد كبير مدى الطائرة . اذ ينطوى على احتكاك أكبر ، وذلك بسبب احتراق الوقود بمعدل أكبر . وحتى يمكن التغلب على مسألة خفض المدى هذه ، يتعين زيادة كمية الوقود المتاح للطائرات المهاجمة . ويمكن أن يتم ذلك بأسلوبين :

* **أولهما** ، بتزويد الطائرات بالوقود عقب اقلاعها ، أو وهى فى الطريق الى الهدف . وكلاهما أمر سهل وان كان يزيد من فرص اكتشاف الطائرات .

* **وثانيهما** ، تزويد الطائرات بتنكات وقود اضافية ويؤدى هذا الى مضاعفة مدى الطائرات ، ولكنه سيقلل تلقائيا من شحنات الذخيرة التى تحملها كل طائرة . وهنا يقتضى الامر مضاعفة عدد الطائرات اللازمة لقصف الهدف وتدميره .

وقد استبعد تماما تزويد الطائرات بالوقود وهى فى طريق العودة لسببين :

* **أولهما** ، انه اذا ما نشأت صعوبات أثناء تزويد الطائرة بالوقود وهى فى طريق العودة فانها لن تعود الى الوطن .

* **وثانيهما** ، اذا افترضنا أن العدو اعترض باحدى طائراته طائرة مهاجمة ، فان اعادة تزويدها بالوقود فى ظل المعركة سيكون مستحيلا وعلاوة على ذلك تعتبر الطائرات التى تحمل الوقود ضخمة وبطيئة ، ومن ثم تكون عرضة للاصابة من جانب طائرات العدو الاعتراضية .

ولذلك ، قرر الاسرائيليون حتى يبسطوا العملية بقدر الامكان ، استبعاد اجراءات اعادة تزويد الطائرات بالوقود فى الجو خلال أى مرحلة من مراحل الغارة وزادوا من مدى الطائرات المهاجمة باضافة « تنكات » وقود اضافية لها . وكان هذا يعنى بالطبع زيادة عدد الطائرات المشتركة فى الغارة .

٣ — وبالاضافة الى ابداء اهتمام دقيق بمسألة الاقتراب من الهدف ، جرى تزويد الطائرات ذاتها (وخاصة طائرات اف — ١٥ ومن المرجح طائرة تجسس خاصة كذلك) باجهزة الكترونية للتشويش على رادار العدو وخديعته . ولم يعرف شىء من هذه الاجهزة . ولكن يمكن افتراض ان الكثير منها قد صنع فى اسرائيل . وبالاضافة الى هذه الأجهزة التى تصنعها اسرائيل ، يوجد لديها

اجهزة امريكية مختلفة مضادة للنشاط الالكترونى . وفى ضوء النتائج كانت الاجهزة التى استخدمت فعالة للغاية ، ولم تكتشف الطائرات وهى فى طريقها الى الهدف . وكما نعرف الآن كانت الغارة مفاجأة كاملة ، لا بالنسبة للعراقيين فحسب ، بل بالنسبة للأمريكيين والأردنيين والسعوديين كذلك .

ذلك ان وجود طائرات الانذار المبكر الامريكية من طراز اواكس فى المجال الجوى السعودى فى أعقاب الثورة الايرانية واندلاع الحرب بين العراق وايران كان يسبب قلقا لاسرائيل . ولم يعرف بعد ان يكون الاسرائيليون قد شوشوا على شاشات رادار الأواكس او خدعوها بتقديم صورة خاطئة (قد تردد أن الطائرات الاسرائيلية حلقت فى شكل تكوين متماسك ، أى قريبة جدا من بعضها بما جعل شاشات رادار الأواكس ترصدها على أنها طائرة واحدة ضخمة مثل طائرة البوينج ٧٤٧) أو استخدموا أى تكنولوجيا اخرى لتقديم صور زائفة — او استخدموا أجهزة لتدمير قدرة الرادار على أن يستقبل أية اشارة كاملة وأيا كان الامر ، فان طائرات الانذار المبكر (الاواكس) لم تكتشف اقتراب الطائرات الاسرائيلية من الهدف أو عودتها بعد تدميره ، ولعل التفسير البسيط يتمثل فى أن طائرات الاواكس كانت تحلق بعيدا فى المنطقة الجنوبية الشرقية ، مركزة جهودها على الجانب الشمالى الشرقى من الخليج الفارسى أو شط العرب ، بحيث لم يتسن لها اكتشاف الطائرات الاسرائيلية .

وبالاضافة الى ذلك ، كان الاسرائيليون — الذين يصلون دائما وهم يفترضون أن الاقمار الصناعية الامريكية والسوفيتية تراقبهم — يتخذون دائما اجراءات احتياطية لتجنب مثل هذه المراقبة . وهذا يعنى أن أهم أوجه النشاط والاستعدادات الخاصة تحدث اما فى أماكن سرية أو فى ملاجىء الطائرات المغلقة ولذلك ، كانت كافة أوجه النشاط التى ترصدها الأقمار الصناعية اما أن تكون غير ذات اهمية أو تشير الى العمليات التى يجرى التخطيط لها أو تستخدم للخداع . والواقع أن المخابرات الامريكية قد وجه اليها اللوم ، بلا مبرر ، لفشلها فى معرفة الغارة أو التكهن بوقوعها . وايا كان الأمر ، فان هذا كان امرا مستحيلا . اذ ان الامريكيين يولون اهتماما كبيرا لاجهزة المخابرات التكنولوجية مثل الأقمار الصناعية ، والتى تنطوى على قصور واضح ذلك ان الحصول على معلومات عن مثل هذه العملية لا يتم الا عن طريق المخابرات البشرية ، اى التجسس من الداخل .

٤ و ٥ — كان من الممكن كذلك تجنب اكتشاف الطائرات وهى فى طريقها الى الهدف عن طريق عدم استخدام الراديو الخاص بها ومع ذلك ، فى حالة اكتشافها من جانب رادار معاد أو برج مراقبة جوية ، كان على الطيارين الاسرائيليين ان يردوا باللغة العربية (أو الانجليزية) ولقد ترددت شائعات فى أعقاب الغارة مباشرة مؤداها ان احد الرادارات فى السعودية اكتشف الطائرات وهى فى طريقها الى الهدف ، وجرى الرد عليه باللغة العربية ، وأن

الاسرائيليين استخدموا ذبذبات ونداءات السلاح الجوى الملكى الاردنى ، وان الطيارين الاسرائيليين تظاهروا بانهم طيارون اردنيون فى مهمة تدريبية (وقد نشرت هذا التقرير مجلة أفيش ويك الامريكية فى ١٥ يونيو ١٩٨١) قائلة : انه سياسى تكنولوجى . غير انه من المشكوك فيه الى حد كبير وقوع مثل هذا الحادث . ذلك ان مثل هذه الشائعات تتردد دائما فى أعقاب عمليات مثل هذه ، وهى تعتبر عادة مجرد اختلاق تتفتق عنه أذهان الصحفيين الخصبة .

والواقع ، أن الطيارين الاسرائيليين الذين تدربوا تدريبا جيدا على العملية قد أبقوا ، فيما بدا ، راديو الطائرة صامتا تماما سواء فى طريق توجههم للهدف أو عند عودتهم بعد قصفه . ويبدو ذلك فى التصريح الذى ادلى به احد الطيارين بعد الغارة وقال فيه أنه كان قلقا جدا وهو فى طريق العودة لانه لم يكن يعرف ماذا حدث للطيارين الاخرين . وهذا يعنى شيئين : **أولهما :** ان الطيارين ابقوا راديو طائراتهم صامتا طوال العملية او على الاقل فى طريق عودتهم الى الوطن. **وثانيهما :** انهم لم يبقوا على اتصال بصرى ببعضهم فى طريق عودتهم ، وذلك حتى تزداد صعوبة محاولة اعتراضهم . فقد طار كل منهم فى طريق العودة عبر الاراضى الاردنية (التى تعد أقصر طريق ممكن) من خلال طرق مختلفة .

وهكذا ، بذل المخططون الاسرائيليون اقصى ما فى وسعهم لتحقيق المفاجاة الكاملة بالنسبة للاقتراب من منطقة الهدف ، وذلك حتى يتسنى تجنب التعرض لأية نيران مضادة للطائرات أو تدخل الطائرات الاعتراضية العراقية خلال الطريق الى الهدف .

ولقد ساعدتهم عوامل أخرى وجهت الانتباه بعيدا عن احتمال شن مثل هذا الهجوم أولها : الحرب العراقية الايرانية ، التى وجهت معظم الجهود العسكرية الخاصة بالمخابرات العراقية الى الشرق فى اتجاه ايران لا الى الغرب فى اتجاه اسرائيل كما يحتمل ان العراقيين كانوا يفترضون ان اى هجوم سيحدث على نطاق صغير (تقوم به طائرتان او ٤ طائرات مهاجمة) .

والواقع أنه لما كان السلاح الجوى الاسرائيلى ، خلال الحروب الثلاث الاخيرة مع العراق ، لم يهاجم أية أهداف عراقية بالقرب من بغداد ، فمن المرجح أن العراقيين لم يتوقعوا احتمال حدوث مثل هذا الهجوم . وفى هذا السياق ، يتعين أن نتذكر ان العراق قد شاركت على نحو فعال واعلنت الحرب ضد اسرائيل عام ١٩٤٨ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ . ولم توقع قط اتفاقية هدنة أو وقف اطلاق النار مع اسرائيل ولذلك يعد البلدان من الناحية الفنية فى حالة حرب دائمة مع بعضهما . ومن ثم لا يمكن اعتبار الهجوم الاسرائيلى على العراق عملا غير شرعى تبعا للقانون الدولى . ففى عام ١٩٦٧ هاجمت الطائرات العراقية من طراز تى يو — ١٦ السوفيتية الصنع مدينة ناتانيا الاسرائيلية الواقعة على شاطىء البحر المتوسط . ولقد تم اسقاط واحدة من الطائرتين العراقيين وهما فى طريق عودتهما الى الوطن ، أما الاسرائيليون أنفسهم فلم

يهاجموا اية اهداف فى العراق من قبل ، باستثناء الهجوم على المطار الجوى العراقى هـ — ٣ الواقع فى منتصف الطريق بين اسرائيل وبغداد وفى ذلك الوقت كان الهجوم على المطار هـ — ٣ يعتبر اكثر مدى يمكن للطائرات الاسرائيلية أن تبلغه .

وربما كان السبب الرئيسى الآخر الذى جذب انتباه العراق بعيدا عن احتمال شن اسرائيل غارة جوية على مفاعلها النووى ربما كان هذا السبب هو ازمة الصواريخ القائمة بين اسرائيل وسوريا والتى كانت تشير، فيما يبدو ، الى ان اسرائيل كانت مشغولة تماما بالوضع على حدودها الشمالية لا بالوضع على حدودها الشرقية مع العراق ولقد زعم بيجين — الذى وجهت اليه انتقادات حادة خلال الحملة الانتخابية الاسرائيلية بسبب ادارته السيئة لازمة الصواريخ لم تكن سوى مبرر لجذب الانتباه بعيدا عن الهجوم على المفاعل العراقى . ومن المرجح أن بيجين قد حاول ان يستفيد من الغارة على العراق بأن يبلغ الناخبين : كم كان ذكيا .. أو ربما كان يحاول تخفيف أزمة الصواريخ بين اسرائيل وسوريا بالاشارة الى ان هذه الازمة لم تكن سوى عرض جانبى او ثانوى وليست ما يشغل بال اسرائيل اساسا . وعلى نحو أو آخر ، كان هذا هو التفسير الذى تنبه بيجين بعد الحادث والذى فشل فى اقناع أى شخص .

ومن المحتمل كذلك ان العراقيين كانوا يدركون انه من غير المرجح أن يهاجم الاسرائيليون المفاعل وقت احتدام معركتهم الانتخابية ، وانهم لن يهاجموا المفاعل الا بعد أن يكتمل العمل فى بنائه ويبدأ تشغيله .

وأيا كان الأمر ، فان تضافر الاعداد التفصيلى للهجوم واقتران ذلك بضوضاء من شأنها تحويل الانتباه عنه قد وفرت الظروف المثالية لشن هجوم مفاجىء ناجح على المفاعل .

١٦ ـ عملية بابل : اختيار الأسلحة

لقد جرى التخطيط على ان تحلق الطائرات الاسرائيلية وهى فى طريقها الى الهدف على ارتفاع منخفض جدا . وكانت الطائرات المهاجمة تطير فى مجموعتين : المجموعة الأولى وهى الطائرات القاذفة وتتضمن ٨ طائرات اف ـ ١٦ الصقر المقاتل ذات المقعد الواحد والمحرك الواحد .

أما المجموعة الثانية فكانت تتضمن ٨ طائرات من طراز النسر اف ـ ١٥ وتعمل لتغطية القاذفات اف ـ ١٦ .

وما أن تقترب الطائرات من الهدف (الذى يقع على بعد ٥٠ ميلا من بغداد) حتى تحلق طائرات اف ـ ١٥ على ارتفاع اكثر لتغطى اقتراب الطائرات اف ـ ١٦ . وكانت طائرات اف ـ ١٥ مزودة كذلك باجهزة الكترونية مضادة او اجهزة تشويش ـ وذلك لشل فعالية الرادار واجهزة توجيه بطاريات صواريخ سام ـ ٦ المضادة للطائرات ورادار المدفعية المضادة للطائرات من طراز سوزيو ـ ٢٣ ـ ٤ . وفضلا من ذلك ، كان عليها ان تغطى الصواريخ جو ـ ارض المضادة للاشعاع مثل صواريخ « شرايك » التى يمكن استخدامها لشن فعالية الدفاعات المحيطة بالمفاعل والمضادة للطائرات ولكن فوق كل ذلك كان على طائرات اف ـ ١٥ ان تحمل عددا كبيرا من صواريخ جو ـ جو ومن المرجح انها مجموعة تتالف من الصاروخ الاسرائيلى الصنع « شافرير » وكذلك صواريخ سايدوندر الامريكى الصنع والصواريخ الطويلة المدى سباروز طراز ام ـ ٧ .

وعلى الطائرات اف ـ ١٦ ان تستمر لفترة فى التحليق على ارتفاع منخفض ثم ترتفع تدريجيا من ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ قدم فى اتجاه الهدف ذاته وعندئذ وهى فوق الهدف تماما ، تنقض مرة اخرى الى مستوى منخفض لضمان تحقيق اصابات مباشرة للهدف .

وكان الاقتراب يقضى بان تقترب الطائرات اف ـ ١٦ أولا من معركة الهدف وهى تحلق على ارتفاع منخفض ثم اكثر انخفاضا . بينما تتولى طائرات اف ـ ١٥ تغطيتها . وهكذا ، فان طائرات اف ـ ١٥ الاسرع ستظهر فى نفس الوقت الذى تظهر فيه طائرات اف ـ ١٦ فوق منطقة الهدف وعلى ارتفاعات مختلفة . وفى اعقاب الهجوم مباشرة ستتجه طائرات اف ـ ١٦ الى اعلى لتلتقى مع طائرات اف ـ ١٥ التى تحلق الى اعلى .

وخلال مرحلة العودة الى الوطن ، سيتغير هيكل المجموعتين مرة اخرى . ففى هذه المرة ، ستشكل كل من طائرة اف ـ ١٥ و اف ـ ١٦ زوجين ، ويتخذ كل زوجين طريقا مختلفا الى الوطن ، وذلك لجعل عملية الاعتراض اكثر صعوبة (اذا ما حاول العراقيون ذلك) . وسيكون الطيران

فى طريق العودة على عكس الطيران فى طريق الاقتراب من الهدف ـ على ارتفاع مرتفع وسيكون الطريق فى العودة بقدر الامكان حتى يمكن توفير الوقود . ولقد كانت عملية الطيران كلها ستستغرق حوالى ٤ ساعات ، منها ساعتان ونصف ساعة فى الطريق الى الهدف ، ودقيقتان فوق الهدف ، ثم حوالى ساعة ونصف الساعة فى طريق عودة الطائرات الى قواعدها .

ولقد اعدت ترتيبات انقاذ تفصيلية وان كان لم يكشف عنها فى حالة اضطرار احد الطيارين الى الهبوط بمظلته . ولم تكشف اية معلومات بشان عملية الانقاذ للطوارىء هذه ، بيد انه من المؤكد انها كانت تفصيلية ودقيقة ، ومن المرجح انها كانت تنطوى على طائرة نقل مثل (هرقل طراز سى ـ ١٣٠) التى يمكنها أن تهبط فى ممر قصير وبدائى وأن تقلع من ممرات قصيرة جدا بالاستعانة باطلاق صواريخ . وتوجد اساليب فنية يمكن بها لطائرات طراز سى ـ ١٣٠ أن تنقذ طيارا تائها وهو على الارض دون ان تهبط .

وتتضمن ترتيبات الانقاذ الأخرى طائرات الهليوكوبتر التى يمكنها ان تقلع من الطائرة سى ـ ١٣٠ بعد هبوطها وان تتقدم الى اراض اكثر صعوبة لا يمكن للطائرة سى ـ ١٣٠ ان تهبط فوقها . وفى ضوء كافة الاحتمالات ، كان عدد قليل من سى ـ ١٣٠ يحلق فى الجو (او على الاقل فى حالة تأهب خاص) طوال الوقت ، مع ترجيح وجود طائرات مقاتلة لتغطيتها والواقع ان احتمالات هبوط أحد الطيارين بمنطقة فوق العراق ، لم يكن ليجعل أى طيار اسرائيلى سعيدا . ذلك انه ما القت السلطات العراقية القبض على اى طيار فانه لن تتوافر له اى فرصة لان يعود قط الى الوطن .

واخيرا ، وفى حالة نجاح الغارة ، وعودة كافة الطائرات الاسرائيلية ، سيكون من الضرورى وضع سلاح الطيران الاسرائيلى فى حالة تأهب لعدة أيام قلائل فى ضوء احتمال أن يسرع العراقيون ويخططوا لغارة انتقامية .

ولقد كان اختيار الاسلحة أو القنابل التى ستلقى على الهدف مسألة حاسمة . فقد كانت الطائرات المهاجمة تقدم على مخاطرة بالغة جدا وهى تقترب من الهدف ، وهى اذا ما فشلت فى تدمير المفاعل خلال المرور السريع فوقه مرة أو مرتين على الاكثر ، فانه لن تتوافر لها فرصة ثانية . وسبب ذلك واضح ، ففى أعقاب الهجوم الاول الواسع النطاق غير الناجح سيعزز العراق بالتأكيد من دفاعاتهم المضادة للطائرات وخاصة حال تعطيل راداراتهم .

وعندئذ سوف تتضاءل فرصة شن هجوم على المفاعل عن طريق تحقيق

المفاجأة الكاملة ، وان اية محاولة اخرى لمهاجمة الهدف من الجو سوف تنطوى على تكلفة باهظة جدا . ولذلك ، كان على الطائرات المهاجمة أن تحمل المزيد من الاسلحة لضمان تدمير الهدف ، حتى فى حالة اذا لم تستطع بعض الطائرات القاذفة فعل ذلك .

وفى ضوء مثال فشل بعثة الانقاذ الامريكية فى ابريل ١٩٨٠ فى الصحراء الايرانية (كنتيجة أساسا لعدم وجود ما يكفى من طائرات الهليكوبتر ضمن البعثة ، فى حالة اذا ما جرى تدمير بعضها خلال العمل) قرر الاسرائيليون لضمان نجاح الغارة تسليم القوة المهاجمة بالمزيد من الاسلحة الاضافية . وهكذا ، فان كانت ٧ اطنان من القنابل (أى ما يساوى تقريبا ١٥ الف رطل من مادتى تى . ان . تى . شديدة الانفجار) تكفى لتدمير الهدف ، فان الطائرات المهاجمة ستحمل ما لا يقل عن ١٥ طنا (او ٣٢ الف رطل) .

ويوجد لدى السلاح الجوى الاسرائيلى فى ترسانته بعض أحدث الذخيرة والاسلحة المتطورة الامريكية الاسرائيلية الصنع وذات التوجيه الدقيق .

ويمكن لأى من هذه الاسلحة أن يحدث تدميرا خطيرا فى المفاعل العراقى وخاصة نظم أسلحة جى . بى يو ١٥ وسلاح والين . وقد قرر فريق التخطيط للغارة بالسلاح الجوى الاسرائيلى ، الا يختار ايا من نظم هذه الاسلحة ، رغبة منه فى جعل شىء متعلق بالغارة بسيطا بقدر الامكان . والواقع انه على حين تعتبر الذخيرة والاسلحة ذات التوجيه الدقيق فى ظل توافر ظروف مثالية اكثر الأسلحة دقة فى التشغيل ، على حين ذلك يتطلب ظروفا خاصة لا يمكن توافرها فى ظل ظروف ميدان القتال . فهى تقتضى مثلا تشغيلها من اقل ارتفاع ممكن ، وان يكون بالطائرة شخصان أحدهما لتشغيل أجهزة التوجيه والاخر لقيادة الطائرة ، وتوافر ظروف مناخية معينة واستقرار الطيران لمدة ٢٠ ثانية أو يزيد . واخيرا فان الاسلحة ذات التوجيه الدقيق تتكون من العديد من الاجزاء الالكترونية مما يؤدى عطل احداها الى تضاؤل امكانية القصف الدقيق . وعلاوة على ذلك يمكن لهذه الاسلحة أن تتعرض دائما للتدخل والتشويش .

ولما كان من الصعب تلبية كافة هذه المتطلبات بالنسبة لهجوم مفاجىء على ارتفاع منخفض على هدف تحوطه دفاعات كثيفة اختار مخططو العملية القنابل التقليدية وكانت القنبلة التى وقع الاختيار عليها هى القنبلة الامريكية الصنع طراز ام كى ٨٤ زنة ٢٠٠٠ رطل (٩٠٧ كيلو جرام) وهى قنبلة تقليدية شديدة الانفجار (أو قنبلة اسرائيلية مماثلة لها) وقد اختبرت هذه القنبلة فى عمليات عديدة ولم تفشل اطلاقا . وهى تحمل شحنة شديدة الانفجار بحيث تسبب دمارا خطيرا لبعض الاهداف الصعبة . وحتى يمكن أن تحقق الاثر المنشود ، أى تدمير الهدف ، لا بد من أن تصيبه اصابة مباشرة فى منتصفه ، وان تاثيرها سيكون غير ذى بال . ويصدق هذا بالنسبة لكل

القنابل التقليدية ، التى توجه ضد هدف محدد ، والتى قد تصيب أو لاتصيب منطقة الهدف مثل مجموعة منتشرة من الدبابات المهاجمة أو كتيبة مشاة أو غير ذلك .

ولقد اشار « بينيت رامبيراج » فى كتابه (تدمير منشآت الطاقة النووية فى الحرب — الفصل الثانى) الى قدرة الأسلحة التقليدية على تدمير حتى اقوى مفاعل نووى .

والواقع أن كل قنبلة من طراز ام كى ٨٤ التى استخدمها الاسرائيليون كانت قوية بحيث تكفى لتدمير المفاعل الذى لم يكن سمكه يزيد بالتأكيد عن ١١ قدما من الاسمنت .

وينطوى هذا النوع من القنابل على ميزة تتمثل فى أنه فى الامكان اسقاطها على الهدف من ارتفاع منخفض جدا . ولذلك كان على الطائرات الاسرائيلية المهاجمة ان تتأكد تماما من أنها ستصيب الهدف اصابة مباشرة وقد تحقق هذا بفضل برنامج التدريب المكثف ، وبتوجيه أجهزة الملاحة بدقة صوب الهدف ، وبالتحليق من ارتفاع منخفض الى ارتفاع يزيد على ٢٠٠٠ قدم واخيرا الانقضاض واطلاق القنابل فوق منتصف الهدف من ارتفاع يتراوح بين ٥٠ الى ١٠٠ قدم لضمان اصابة الهدف اصابة مباشرة . وفيما بعد ، وفى أعقاب الغارة ، كشفت الصور الفوتوغرافية التى التقطتها أقمار التجسس الامريكية أن القنابل قد أصابت المفاعل اصابات دقيقة حتى أن ضباط المخابرات الامريكية كانوا مقتنعين بأن الاسرائيليين استخدموا فى قصفهم الاسلحة ذات التوجيه الدقيق . غير أن مالم يعرفه محللو المخابرات الامريكية ، فيما يبدو هو أن الطيارين الاسرائيليين قد اعتادوا قصف أهدافهم بمثل هذه الدقة من ارتفاع اكثر انخفاضا مما يرى الطيارون الامريكيون انه ارتفاع آمن .

ويمكن للطائرة اف — ١٦ ، فى حالة خفض كمية وقودها ، أن تحمل حوالى ١٥٢٠٠ رطل (أو ٦٨٩٥ كيلو جراما) وذلك بالنسبة لهدف قصير المدى أما فى حالة عدم خفض وقودها ، فانها تحمل ١٢٠٠٠ رطل (أو ٥٤٤٣ كيلو جراما) بالنسبة لهدف طويل المدى .

ولقد اضطر المخططون للعملية الى اضافة كمية كبيرة من الوقود الاحتياطى للطائرة المهاجمة نظرا للمدى الطويل جدا للعملية . وكان هذا يعنى أن على كل قاذفة مقاتلة أن تحمل شحنة وقود أثقل من شحنتها من القنابل . ولذلك حملت كل طائرة من طائرات اف — ١٦ قنبلتين فقط من طراز ام كى — ٨٤ وتبلغ زنة الواحدة منها ٢٠٠٠ رطل . وهكذا حملت طائرات اف — ١٦ الثمانية ١٦ قنبلة ، يبلغ وزنها الاجمالى ٣٢ الف رطل من المواد الشديدة الانفجار . وفى ضوء كافة الاحتمالات ، كان تصويب قنبلتين أو أربع قنابل تصويبا جيدا نحو الهدف سوف يدمر المفاعل العراقى تدميرا كاملا . غير انه رغبة من فريق التخطيط الاسرائيلى فى تحقيق مزيد من الضمان لتدمير المفاعل وكاجراء احتياطى ، قرروا مضاعفة عدد الطائرات والقنابل ، على الاقل .

١٧ ـ عملية بابل : العدد التنازلى

بدأ حوالى ٢٤ طيارا برنامج تدريبهم المكثف فى وقت ما ، فى شهر اكتوبر ١٩٨٠ . ولقد جرت كل تدريبـــاتهم فى ظروف مماثلة للاراضى الصحراوية . وقد تدربوا تدريبا شاقا على التحديد الدقيق للملاحة الجوية والطيران على ارتفاع منخفض جــدا (وهو أمر صعب للغـــاية فوق الاراضى الصحراوية المنبسطة على نمط واحد) فى تشكيلات متقاربة من بعضها تتكون من ٨ الى ١٠ من طائرات اف ـ ١٦ واف ـ ١٥

وقد تعلموا كيف يهربون بسرعة فى حالة وجود تهــديد من جانب الطائرات المقاتلة للعدو ، وحسنوا من أساليب الاتصالات البصرية والتنسيق الوثيق بين الطيار الذى سيحســـم بدوره الاتصالات بين قائدى طيارات اف ـ ١٦ واف ـ ١٥ . وتدربوا على فك التشكيلات والطيران على شكل طائرتين احداهما اف ـ ١٦ والاخرى اف ـ ١٥ للعودة الى قاعدتهم .

وكان عمل تشكيلات الطائرات أن تتعلم كيف تعتمد على ملاحة قائد أو قائدين ، بينما يركزون هم فى الطيران ومراقبة شاشات راداراتهم عن كثب لاحتمال ظهور طائرة معادية . وعلى الآخرين ان يشغلوا ما لديهم من أجهزة تشويش الكترونية .

وكان عليهم أن يتدربوا على الاقتراب من الهدف مرات ومرات حتى يصبح فى مقدورهم أن يفعلوا ذلك وهم مغمضوا العينين . وكان على كل طائرة من طائرات اف ـ ١٦ أن تهاجم الهدف فى وقت لا يزيد عن دقيقتين أو أربع دقائق بالنسبة للطائرات كلها . وكان على كل طائرة أن تحوم حول الهدف لفترة تتراوح بين ١٥ الى ٢٠ ثانية ثم تليها الطائرة الاخرى وهكذا كان كل منها يعرف مكانه وتوقيته المحدد بالنسبة للهجوم . وكان على كل طيار أن يركز على الهدف ، وأن يتجاهل أى نيران مضادة للطائرات وان يسقط القنابل مباشرة على منتصف الهدف أو فى المناطق التى لم يصبها الطيارون الذين سبقوه .

وقد اعتبرت التدريبات مهمة للغاية حتى أن رفائيل ايتان رئيس الاركان الاسرائيلى قد اشترك بنفسه فى احدى التدريبات حتى يحصل على فكرةمباشرة عن فعالية الغارة والمشاكل التى تنطوى عليها .

وعندما حان الوقت المناسب ، أعطيت الاوامر لتنفيذ العملية ، وذلك بعد ارجاء موعد الهجوم مرتين أو ثلاث مرات . وكان الطيارون يعرفون ويعون التدريبات بحذافيرها . وكان الشىء الوحيـــد الذى لم يعرفوه هو ـ يوم الهجوم ـ وقد أبلغهم به قائد القاعدة قبل الهجوم بـ ٢٤ ساعه .

وقـــد شـــبه الرجـــل الذى خطط للغـــارة ، التدريب المكثف ، ببروفة (اوركسترا سيمفونى) فكل الطيارين والمقـــاتلات كانت تعمل تبعـــا بخطة واحدة ، تماما مثل الموسيقيين الذين يعزفون فى أوركسترا .

وقد اشار الى انه بعد هذا التدريب التفصيلى والدقيق تظهر المهـــارة ، ويمكنك أن تقول لهم « كونشيرتو رقم ٤٢ لبرامز ـ وعندئذ سوف يؤدى كل دوره فى العزف فكل واحد يعرف جيدا اى موسيقى سيعزفها .

وقد راى قائد الأوركسترا ان عملهم اصبح منسقا . وان الأمر لا يحتاج الى كلمة اخرى . وفى هذه الحالة لا يقتضى الأمر وجود مشاهدين .

١٨ — عملية بابل : دقيقتان فوق اويزراك

كان يوم الاحد ٧ يونيو ، يوما جميلا مشرقا . وكانت مدينة ايلات الصغيرة ، المركز السياسى الاسرائيلى على شاطىء البحر الأحمر . تكتظ بآلاف من السائحين السكندنافيين والالمانيين والاسرائيليين الذين جاءوا اليها للاستمتاع بشواطىء البحر الأحمر الرملية ، وذلك قبل ان تعود هذه الشواطىء الى مصر كجزء من معاهدة السلام بين الدولتين . وكان يوم الاحد ذاك يقع بين يوم الأجازة الأسبوعية اليهودية وبين عيد شافوث ، الذى يحدد فى التاريخ اليهودى الطويل فى اسرائيل منذ الفى عام مضت يحدد بداية حصاد محاصيل الشتاء .

ولم يدرك اى من هؤلاء السائحين النشاط الخاص الذى كان يجرى فى القاعدة الجوية اتزيون ، التى تقع على بعد حوالى ٢٠، كيلو مترا من ايلات . فطوال ٢٤ ساعة كانت واحدة من احسن واحدث القواعد الجوية فى العالم فى حالة نشاط غير عادى . والواقع ان (الروتين) المعتاد فى اسرائيل يقضى بان يحصل معظم جنود الجيش النظاميين على اجازة آخر الأسبوع . ولذلك يتوقف التدريب المعتاد فى يوم السبت ، وتكون الطائرات على استعداد للطيران فقط فى مهمات قتالية بمقتضى اعلان حالة التأهب بينها لمدة قصيرة . ومع ذلك الغيت اجازة آخر الأسبوع الخاصة هذه ، والغيت كافة الأجازات حتى بالنسبة للقيام برحلة الى ايلات .

وكان هذا احد الاجراءات التى اتخذها فرع خدمة امن الميدان التابعة للجيش ، وذلك حتى تقضى على أية فرصة لتسرب السر الكبير . وقد قطعت لنفس السبب كافة الاتصالات التليفونية ، باستثناء بعض المكالمات الخاصة لمقر قيادة القاعدة . وعلى الرغم من أن الطيارين الذين وقع الاختيار عليهم للقيام بالمهمة وبعض كبار الضباط الآخرين كانوا يعرفون عن الغارة ، على الرغم من ذلك كان المسئولون عن عملية الأمن الخاصة بالغارة يمثل فى ذهنهم حادث وقع منذ خمس سنوات ، خلال الاعداد للغارة على عنتيبى ، وذلك عندما اكتشف بعد ساعات قلائل من اقلاع الطائرات ان جنديا بالقاعدة قد اتصل تليفونيا بصديقته حيث اخبرها انه لن يستطيع التوجه الى المنزل كما وعدها لأننا « نعد شيئا ما خاصا لعيدى امين » .

وكانت القاعدة لاتزال مغلقة حتى ساعة متاخرة من الصباح عندما هبطت طائرة هليوكوبتر بالقرب من مقار قيادتها . وخرج منها رنائيل ايتان رئيس الأركان الاسرائيلى بصحبة الجنرالان ديفيد ايفرى قائد السلاح الجوى الاسرائيلى ، ويوهوشوا ساجيف رئيس المخابرات العسكرية ، وبعض كبار الضباط الآخرين الذين اشتركوا فى تخطيط العملية منذ بدايتها ، واتجهوا جميعا الى داخل مقر القاعدة .

وفى داخل غرفة العمليات الكبيرة المكيفة الهواء التى توجد تحت الأرض، التقوا بـ ١٦ طيارا وكولونيل بالسلاح الجوى يبلغ من العمر ٣٢ عاما ،

وكان الراس المدبر وراء التخطيط للغارة ، والذى بدا الآن القاء توجيه اخير باجراءات تنفيذ الغارة .

وكان كل شخص داخل غرفة العمليات يعلم تمام العلم كل تفاصيل الخطة . فكل منهم يعرف بدقة طريق الطيران ، والطريقة التى يتعين بها الاقلاع بما تحمله طائراتهم من شحنات وقود ونخيرة ثقيلة ، وانماط طيران النسور (طائرات اف — ١٥) والصقور (طائرات اف — ١٦) ، والاجراءات التى اتخذت للانقاذ اذا ما هبط أحد الطيارين من طائرته ، وغير ذلك من الكثير من التفاصيل الصغيرة والهامة جدا واللازمة لنجاح المهمة الجسورة . ولقد اشترك كل منهم فى هذا البيان الموجز الخاص باجراءات تنفيذ الغارة ، على الاقل مرة فى الماضى . وكانوا يعرفون حقيقة ان هذه العملية التى اعدوا انفسهم بدقة للاضطلاع بها قد الغيت فى الدقيقة الأخيرة مرتين على الأقل — وكانوا يأملون ان يبدأ العمل الفعلى هذه المرة . وكان الجو فى الغرفة التى تضيئها انوار (النيون) هادئا ولكنه يتسم بالتوتر .

وفى الخارج ، فى الملاجىء الضخمة للطيارات ، وبعضها تحت الأرض ، كان مئات الفنيين يعدون الطائرات المهمة . وقد جرى فحص جهاز التشويش على الأجهزة الألكترونية المزودة به طائرات أف — ١٥ ، عدة مرات . كما تم تثبيت الصواريخ جو — جو بدقة فى اجنحة طائرات اف — ١٦ . وزودت الطائرات المقاتلة القاذفة بقنابل من طراز ام كى — ٨٤ . والواقع انه حتى هذه اللحظة ، لم يعرف احد من هؤلاء الجنود المهمة التى ستقوم بها الطائرات . ولكنهم بالطبع كانوا يدركون تمام الادراك أن مهمة خاصة سيجرى تنفيذها . غير انه لم يكن فى وسعهم التكهن بهدفها . وخمن بعضهم ان الهدف هو بطاريات الصواريخ السورية على الحدود الشمالية . اما البعض الآخر ، الذين اعتبروا ان هذا الطراز من القنابل الحديدية ليست السلاح الافضل ضد مثل هذه الأهداف ، فقد اعترضوا على اقتراحات اصدقائهم ، وان كانوا لم يستطيعوا تقديم بديل افضل .

وكان الضابط الفنى المسئول عن كل سرب من الطائرات وبصحبته كبار مساعديه يقوم شخصيا باجراء الفحص الأخير لكل طائرة عندما عاد الطيارون من تلقى البيان الموجز بتفاصيل الغارة ، وكان على راس كل منهم خوذته .

وقبل دقائق من الساعة الثالثة ، بالتوقيت المحلى ، دخل الطيارون الشبان طائراتهم ، واغلقت القباب الخاصة بالطيار من اعلى . وكان عدد قليل منهم عصبيا ، وكانوا قد تدربوا لمدة طويلة لكافة الاحتمالات واسوا التطورات المحتملة . ثم ضغط الطيارون على الزر وعندئذ سمع دوى المحركات فى كافة ارجاء القاعدة . وتحركت الطائرات الى الامام وعندئذ رأوا الممر الطويل والعريض وقد اقلعت كل طائرتين معا . مستخدمة طول الممر كله بسبب الوزن الثقيل التى كانت تحمله .

ونظر رئيس اركان السلاح الجوى الاسرائيلى وغيره من الجنرالات الى اعلى وشاهدوا الطائرات وهى تختفى محلقة على ارتفاع منخفض فى السماء الزرقاء ، فى الاتجاه الجنوبى الشرقى . وكانت وجوههم متوترة وان كانت لاتتسم بأى تعبير . وكان عليهم ان ينتظروا ٤ ساعات على الأقل قبل ان يعرفوا هل المهمة نجحت أم فشلت فلقد اتفقوا على عدم استخدام نظم الاتصال — الا فى حالة وضع طارىء — حتى يمكن تجنب ان تكتشف قوات العدو الطائرات . والآن ، لم يعد ثمة شىء يفعله رفائيل ايتان ولا ايفرى ولا غيرهم سوى تدخين السجائر والنظر من حين الى آخر الى ساعاتهم .

وكانت الطائرات تحلق الآن فوق آلاف السائحين الذين يستمتعون على شواطىء البحر الأحمر . ولم يول اى شخص اى اهتمام للمقاتلات التى تطير على ارتفاع منخفض . وكان ما خطر على تفكير الكثير من الاسرائيليين الذين كانوا يشاهدون الطائرات وبينهم بعض طيارى السلاح الجوى الاسرائيلى « أنها طلعات تدريبية أخرى طويلة ومملة » .

لقد كان الطيران الى المفاعل النووى العراقى هادئا فلم تقع خلاله اية أحداث هامة كما قال الطيارون بعد ذلك بساعات . ذلك أنه خلال ساعات تدريباتهم الكثيرة واجه كل منهم العديد من حالات الطوارىء المحتملة — منها أن تكتشف طائرته . وهو فى طريقه الى الهدف ، وأن تطلق عليه نيرانامضادة للطائرات على نحو اشد كثافة مما كان متوقعا ، وان تعترضه المقاتلات السعودية او العراقية او الاردنية وهو فى طريقه الى الهدف او خلال العودة الى الوطن ، وكذا الاحتمال الدائم بظهور بعض الاعطال الفنية .

ومع ذلك ؛ جرى كل شىء على نحو ما كان مخططا له تماما . ولقد كانت الطائرات تطير الآن فوق الأجزاء الشمالية من الصحراء السعودية وكانت اف — ١٥ فى المقدمة تقودهم الى مشروع تموز ، بالرغم من وجود محطات رادار كثيرة فى هذا الجزء من المنطقة . لقد كانت الطائرات تطير على ارتفاع منخفض جدا يتراوح ما بين ٣٠ الى ٦٠ قدما فوق سطح الارض . ولم تسمع أية كلمة فى نظم اتصالاتها . وكان كل طيار يتبع الطيار الذى أمامه ، مكونين بذلك تشكيلا كبيرا خلف قائد الغارة . ولقد مكنتهم الاكتمال الفنى النادر ، مقترنا بأفضل الطيارين وأكثرهم خبرة فى العالم ، من تحقيق هذا الاداء الرفيع للغاية دون أن تنشأ أية مشكلة .

وقد صوب كل من الطيارين الشبان عينيه على المعدات الكثيرة الموجودة أمامه فى لوحة « تابلوه » الطائرة . لقد كانت الساعة الرابعة واتجهوا نحو الجبهة الشمالية الشرقية ، عابرين الحدود بين السعودية والعراق وكانوا يركزون اهتمامهم على شاشات الرادار الاخضر الصغير الموجودة أمامهم ، لرصد أى مصدر للمتاعب أو الانذار . ولكن شيئا لم يظهر . ولم تحاول أية طائرة للعدو اعتراضهم .

وكانت فترة (ساعة ونصف ساعة) طويلة ومملة قد مضت عندما ادركوا ان نصف مهمتهم تقريبا قد انتهى . وفى الساعة ٥ر٢٣ دقيقة تمكن القائد واولئك الذين كانوا بالقرب منه من التعرف على المبانى الضخمة — وفيه مشروع تموز — المشيدة من الأسمنت والتى يبلغ ارتفاعها ٦٠ قدما . وعندئذ بدأت طائرات اف — ١٥ الارتفاع الى حوالى الف قدم ، حتى يمكنها السيطرة على منطقة القتال والتأكد من أن طائرات العدو لن تتعرض للصقور المقاتلة خلال تأدية مهمتها . وارتفعت طائرات اف — ١٦ مئات اقدام قليلة . وكما خطط مسبقا منذ شهور طويلة مضت ، كان عليها ان تقصف المفاعل من ارتفاع منخفض ، حتى تتجنب النيران المضادة للطائرات التى تحمى المشروع .

غير انه لم يطلق بعد اى مدفع مضاد للطائرات نيرانه ، كما لم يطلق اى صاروخ سام ، عندما انقض الطيار الاول بطائرته القاذفة المقاتلة مصوبا نحو منتصف القبة الاسمنتية الضخمة التى يوجد تحتها تموز — ١ وفى اقل من خمس ثوان كان يرتفع مرة اخرى . لقد اصابت أول قنبلتين من طراز ام كى — ٨٤ السقف الاسمنتى ، وفجرته الى قطع صغيرة ، وذلك عندما كانت الطائرة الثانية قد أطلقت بالفعل ذخيرتها . وواحدة تلو الأخرى، وعلى فترات لاتزيد عن ٥٠ ثانية ، قصفت الصقور المقاتلة بالقنابل المفاعل ، بينما كانت تقترب منه من زوايا واتجاهات مختلفة . وعندئذ بدات المدفعية العراقية المضادة للطائرات من طراز سوزيو ٢٣ تطلق نيرانها على النفاثات المهاجمة . غير أن سرعة الطائرات المغيرة ودقتها وتحليقها على ارتفاع منخفض لم تدع للدفاع العراقى المضاد للطائرات اية فرصة على الاطلاق . لقد كان توقيت الطيارين ودقة قصفهم للقنابل امرا لايمكن تصديقه ولقد اثبت التدريب الطويل على قصف هدف مماثل فى اسرائيل فعاليته الآن .

ومن على الأرض ، كان بعض الفنيين الفرنسيين يشاهدون قبة المفاعل وهى تتطاير فى الهواء وتنفجر الى قطع صغيرة . ولقد بدا هذا بالنسبة لواحد منهم كان فى طريقه الى حيث تقف سيارته ، بدا كما لو كان مشهدا سينمائيا . ولقد اشتعلت النيران بسرعة ، بينما انهارت قبة المفاعل ولم تعد تظهر منها الا عدة أمتار قليلة فوق سطح الأرض . وتحطمت الى اجزاء معدنية صغيرة الأجزاء الدقيقة لقلب المفاعل وكذا مكوناته الأخرى الموجودة تحت الأرض بينما كانت القنابل تصيب مركز الهدف مرات ومرات .

ولقد بدا الأمر بالنسبة لمن هم فوق الأرض كما لو كان قد استغرق ساعات اما الطيارون الاسرائيليون الذين كانوا مشغولين جدا فلقد بدا ان العملية استغرقت ثوان . وعموما فى خلال دقيقتين كان كل شىء قد انتهى .

وعندما غادرت آخر طائرة قاذفة منطقة المفاعل ، ترك احد طيارى اف — ١٥ زملاءه الذين كانوا يتولون عملية التغطية من اعلى . لقد كان مزودا بجهاز تصوير خاص . والتقط فيلم فيديو من اعلى . اما الآن فقد انقض بطائرته والتقط الصور الأخيرة للمفاعل الذى جرى تدميره . ولقد كان الدخان والنيران يغطيان المنطقة

كلها ، غير ان الطيار تمكن من التقاط صور المشهد عن طريق اجهزة خاصـــة للأشعة تحت الحمراء .

لقد اصبحت الطائرات اف ــ ١٦ ، بعد اسقاط حمولتها من القنابل ، اكثر سرعة عن ذى قبل . وقد لحقت بها الطائرات اف ــ ١٥ ، وبداوا مما طريق العودة الطويل الى قواعدهم فى اسرائيل .

وعموما ، اسقطت ١٦ تنبلة حديدية من طراز أم كى ــ ٨٤ على المفاعل . ولقد كانت دقة القصف مدهشة ، ولقد حققت كل القنابل اصابات مباشرة فى نطاق ٣٠ قدما من مركز المفاعل . ولقد زعمت الصحف الأجنبية ، فيما بعد ، ان عميلا اسرائيليا سريا وضع بعض الأجهزة الالكترونية فى المفاعل مكنت القنابل من اصابة مركز المشروع النووى . غير ان هذا الزعم لا يعدو كونه هراء . والواقع انه بالنسبة للعديد من الصحفيين كانت دقة تصويب القنابل على الهدف امرا لايمكن تصديقه ولذا لابد من ظهور بعض القصص الخيالية لشرح ماحدث .

وكانت الطائرات تطير الآن كل اثنتين منهما مع بعضهما وعلى ارتفاع شاهق جدا . وكان الطيارون يدركون تماما ان هذا قد يؤدى الى اعتراض طائراتهم . ولكن لم يكن امامهم اى اختيار آخر . ذلك ان الطيران على ارتفاع منخفض جدا قد استهلك الكثير من الوقود ــ بحيث اصبحت الطائرات تعانى من نقصه . وكان الطيارون يأملون الا تعترضهم مقاتلات معادية فى طريق عودتهم الى الوطن . وعلى الرغم من ذلك كانوا يثقون فى تفوقهم فى القتال الجوى وانه اذا حــدث استقبال جوى فسوف يبرهنون على تفوقهم هذا ، مرة اخرى .

وايا كان الأمر ، فلم تعترضهم اية طائرة عــلى الرغم من انه من المؤكد ان محطات الرادار الأردنية والعراقية والســعودية قــد اكتشفت الطائرات التى تحلق فى الجو . وهنـــا ، يمكن افتراض ان الطـــائرات الاسرائيلية لم تعترضها ايه طائرة معادية نظرا لافتقار السلاح الجوى العربى للكفاءة ولوجود قدر من عقدة النقص لدى الطيارين العرب بالمقارنة لخصومهم الاسرائيليين .

وفى الساعة السابعة تماما هبطت أول طائرة اف ــ ١٦ فى قاعدتها . وخلال الدقائق العشرة التالية هبطت بقية الطائرات فى قواعد جوية مختلفة منتشرة فى طول اسرائيل وعرضها .

وكان رفائيل الآن مستعدا . فاتصل تليفونيا ببيجين فى منزله حيث كان اعضاء مجلس الوزراء جميعهم ينتظرون فى توتر وقلق الانباء . وقال رئيس الاركان الاسرائيلى لبيجين الذى كان يشعر بالقلق : « لقد انتهت المهمة . وعادت كل طائراتنا الى قواعدها سالمة » .

وشعر رئيس الوزراء بالارتياح . وابلغ زملاءه بالخبر . وعندئذ جرى لاحضار زجاجـة براندى اسرائيلى وشربوا جميعـا نخـب السلاح الجـوى الاسرائيلى .

وكانت طائرتان اف ــ ١٥ تحلقان عاليا فى سماء تل ابيب حيث تقومان بدورة انتصار . وذلك بعد انتهاء المهمة ، وقبل الهبوط فى قاعدتهما . وقد زادتا من سرعتيهما مخترقتين حاجز الصوت، مما ادى الى تحطيم زجاج عدد من المنازل . ولم يكن احد ممن فى تل ابيب يعرف ما الذى حدث . غير انه بالنسبة للطيارين كانت تلك هى وسيلتهم الشخصية لابلاغ المواطنين الاسرائيليين الذين يساورهم القلق فى المدينة انه لم يعد يوجد ما يثير قلقهم بشأن المفاعل العراقى لقد انتهى الكابوس .

الجـزء الرابـع

الحـــكم

« يوجد خلاف كبير داخل الادارة . ونحن نحاول الآن ان نتحدث على نحو يتسم بالاعتدال » .

(المتحدث باسم وزارة الخارجية الامريكية)

« لا يسعك سوى الاعجاب بمهارتهم الفنية ، على الرغم من اننا ندين العمل بشدة » .

(المتحدث باسم وزارة الدفاع الامريكية)

« لقد تم ابلاغ البيت الابيض ، بصفة خاصة ، بعد ثلاث ساعات من الهجوم . غير ان رجال الاستراتيجية من مساعدى الرئيس ريجان شكوا فى ان الاسرائيليين يأملون ان تسرب واشنطن النبأ وبذلك تعطى انطباعا بالتواطؤ الامريكى » .

(جاك اندرسون ، صحيفة واشنطن بوست ٢٣ يوليو ١٩٨١)

« ان بقاء حضارتنا يتهدده الخطر عندما يسمح بالقدرة على انتاج اسلحة الدمار الجماعى أن تعم الكرة الارضية . ويتعين علينا ان نعمل معا لمواجهة هذه المشكلة . فلا يوجد عمل ، اهم من ذلك » .

الملاحظات الأولى للسناتور آلاف كرانستون الواردة فى البيان الذى القاه امام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الامريكى .

واشنطن
١٨ يونيو ١٩٨١

١٩ — بيـــان القــدس

القـــدس : ٨ يونيو ١٩٨١

لقد هاجم السلاح الجوى الاسرائيلى امس المفاعل النووى أوزيراك الذى يقع بالقرب من بغداد ودمره . وقد عادت كل طائراتنا الى الوطن سالمة .

وتجد الحكومة نفسها ملزمة بأن تشرح للراى العام : لماذا قررت تنفيذ هذه المهمة الخاصة .

لقد تابعنا بقلق بالغ منذ مدة طويلة بناء المفاعل النووى أوزيراك وقد ابلغتنا مصادر لا يوجد اى شك فى الوثوق منها ان المفاعل يستهدف انتـــاج القنابل الذرية ، بالرغم من البيانات المعاكسة لذلك .

وكان هدف هذه القنابل هو اسرائيل . وقد اعلن ذلك صراحة حـــاكم العراق فلقد صرح (الرئيس العراقى) صدام حسين فى اعقاب تدمير الايرانيين للمفاعل تدميرا طفيفا ، انه أمر لا ينطوى على اى معنى أن يهاجم الايرانيـــون المفاعل لانه يبنى ضد اسرائيل وحدها .

ان القنابل الذرية التى كان سينتجها هذا المفاعل ، باستخدام اليورانيوم المخصب أو البلوتونيوم ، هى من نوع القنابل التى ألقيت على هيروشيما . وعلى هذا النحو ، نجد أن خطرا بالنسبة لوجود اسرائيل كان يجرى انتاجه .

وقد أبلغتنا المصادر الموثوق منها جـــدا بتاريخين لاستكمال بنـــاء المفاعل وبدء تشغيله . أولهما بداية شهر يوليو ١٩٨١ ، والاخر بداية شـــهر سبتمبر من العام الحالى .

وهكذا ، وفى خلال فترة قصيرة ، كان سيجرى تشغيل المفاعل ويصبح ساخنا . وفى مثل هذه الظروف ، لن يكون فى وسع أى حكومة اسرائيلية اتخاذ قرار بنسفه . لأن ذلك كان من شأنه أن يســـبب موجـــة ضخمة من الاشعاع الذرى فوق مدينة بغداد مما يلحق الضرر بمواطنيها الابرياء .

ولذلك ، اضطررنا الى الدفاع عن أنفسنا ضد انتاج قنبلة ذرية فى العراق التى لم تكن لتتردد فى استخدامها ضد اسرائيل ومراكزها السكانية .

ومن ثم ، قررت الحـــكومة الاسرائيلية ان تعمـــل بدون اى ابطاء آخـــر لضمان سلامة شعبنا .

لقد كان التخطيط دقيقا . وكان قد تقرر أن تبدأ العملية يوم الاحد على افتراض أن ما بين ١٠٠ الى ١٥٠ خبير أجنبى يعملون فى المفاعل ، لن يكونوا فى موقع العمل لانه يوم أجازتهم الاسبوعية ، ولقد ثبت صحة هذا الافتراض . ولم يصب أى خبير أجنبى .

لقد كانت حكومتان أجنبيتان تساعدان الدكتاتور العراقى فى صناعه الاسلحة النووية مقابل الحصول على البترول . ونحن ندعوها مرة أخرى الى الاقلاع عن هذا العمل الفظيع غير الانسانى .

ونحن لن نسمح قط لأى عدو بان يطور أسلحة الدمار الجماعى ضـــد شعب اسرائيل .

(بيان الحكومة الاسرائيلية الذى أذيع فى اليوم التالى للغارة)

٢٠ – بيـان بغـداد

بغداد : ٨ يونيو ١٩٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشعب العراقى العظيم ، يا أبناء الأمة العربية المجيدة ، لقد كنا نعرف منذ البداية أن أطرافا كثيرة ، محلية ودولية ، كانت ولا تزال وراء رغبة النظام الايرانى المتخلف والمشبوه فى اثارة النزاع مع العراق وشن العدوان وبدء الحرب ضدها .

لقد كانوا وراء استمرار هذه الحرب التى امتدت عدة شهور وذلك بسبب مساندتهم وتأييدهم السياسى والعسكرى لايران ، ومن بين ذلك المشاورات الاعلامية والفنية والمخابرات العسكرية المباشرة وغير المباشرة – حتى يحققوا هدفهم الشرير ضد العراق . وكان الطرف الاساسى هو الكيان الصهيونى ، الذى يفهم تمام الفهم أن العراق المتحرر والمتطور والقادر ، يعتبر عاملا حاسما فى تحديد نتائج النزاع العربى ضده ، اليوم وغدا .

ويفهم الكيان الصـهيونى أن أحد العوامل الاكثر حسما فى تحديد مستقبل الصراع الذى تخوضه الامة العربية ضده ، هو الوجود المستمر للفجوة التكنولوجية والعملية بينه وبين الأمة العربية ولذلك يحاول بشتى الاساليب ابقاء هذه الفجوة فى نطاق حدود لا تمكن الامة العربية من تحقيق الانتصار عليه فى النزاع القائم .

وانطلاقا من هذا الهدف الاستراتيجى ، اشترك العـدو الصهيونى فى اكثر من مناسبة سواء مباشرة أو غير مباشرة ، مع ايران ضد العراق ويتضمن ذلك تزويد ايران بالمعدات وقطع الغيار العسكرية . كما اغارت طائرات العدو الاسرائيلى على العراق خلال الأيام الأولى من الحرب ، وبذلك تستغل ظروف الحرب ضد ايران ، بالتواطؤ مع النظام المشـبوه فى ايران . ولقد كانت الغارات تستهدف بصفة خاصة المنشآت النووية العراقية .

ولقد عرفنا وكشـفنا المحاولة التى وقعت فى ٢٧ يوليو ١٩٨٠ . فلقد أذعنا ، فى ذاك الوقت ، بيانا عن غارتين على بغداد . غير اننا لم نذكر العدو الصهيونى بالاسم لأسباب عسكرية وسياسية ولأسباب معنوية ولاننا نعـرف من التجربة ان البيانات التى تصدرها النظم العربية عن اشتراك اطراف أخرى فى النزاعات الناشبة بينها وبين العدو كانت تقترن دائما بالفشل ، كما تعتبر ذريعة وتبريرا لهذا الفشل . ولهذا لم نشر الى هذه الحقيقة فى ذاك الوقت ، ولم نكشف رسميا كافة تفاصيلها .

أيها المواطنون ، اننا نعلن اليوم أن طائرات العدو الصهيونى قد اغارت امس عـلى بغـداد .

ففى الساعة السادسة و ٣٧ دقيقة اغار تشـكيل من ٩ طائرات على المبنى النووى . وكما حدث فى ٢٧ سبتمبر ١٩٨٠ ، آثرنا الا نتسرع فى الاعلان عن هذه الغارة . وبينما كنا نعد هذا البيان بعد أن توافرت كل الدلائل على هذه الغارة ، اعلن العدو الصهيونى بعد ظهر اليوم مسئوليته عنها . ايهـا الأخوة ، يا ابناء العراق ، ويا أبناء الأمة العربية : ان هذه العملية تكشف لكم جانبا هاما وأساسيا عن الاسباب التى دفعت النظام المشبوه فى ايران لاشعال الحرب مع العراق واستمرار هذه الحرب لمدة عشرة اشـهر بالرغم من كافة الجهود التى بذلت لوقفها على أسس عادلة ومشرفة تضمن الحقوق الشرعية ومصالح كل من العراق وايران . ويحاول العدو الصهيونى تحقيق اهدافه وان يحقق للحكام فى (طهران) و (قم) ما فشلوا فى تحقيقه خلال الاشـهر العشرة من هذه الحرب الغادرة .

انهم لن يزعزعوا هذه الثورة العملاقة عن تصميمها فى ان تكون ثورة مع الجماهير وان تعبر عن الآمال والتطلعات . ان الرجال الذين استطاعوا من خلال ولائهم لشعبهم ولأمتهم ، ومن خلال ايمانهم بقضيتهم وبفكرهم وجهودهم ، ان يصلوا بالامكانية النووية للعراق الى المستوى الذى اثار هذا القـدر من الحقد والعدوان السافر من جانب الاعداء الصهيونيين والفارسيين . نحن نثق فانهم قادرون كذلك على مواصلة هـذا الاتجـاه برغم ما يمكن أن يحققه العـدو فى محاولاته ، من الحاق ضرر مباشر أو غير مباشر .

ان الطريق الذى يسير العراق على دربه فى ثورته المنتصرة . طريق الحرية والاستقلال والتقدم ، طريق التلاحم بين الزعامة والجماهير — ان هذا الطريق لن نتراجع عنه . وسيبقى طريقا مفتوحا .

وبمشـيئة الله ، النصر لشـعبنا البطل والمجـد لامتنا العربيـة

(بيان اذاعته لجنة قيادة الثورة العراقية
فى اليوم التالى للغارة)

٢١ ـ اسقاط القنابل والضجة الصاخبة :

اسرائيل بعـد الغـارة

كان يـوم الأحد ٨ يونيو يـوم اجازة عيـد الشانوت . وقد امضى الاف الاسرائيليين اليـوم على شـواطىء تـل أبيب وحيفـا وايلات ، يستحمون ويستمتعون بحمامات الشمس ، ويتجاذبون أطراف الحديث ، ويستمعون الى « راديوهاتهم الترانزستور » .

وفى الساعة الثالثة والنصف ظهرا ، أوقفت الاذاعة الاسرائيلية برامجها والقت بقنبلة على الشعب الاسرائيلى .

وقال المذيع بصوت متوتر « نقطع برامجنا العادية لنذيع بيانا خاصا » ومضى قائلا : « لقد هاجم السلاح الجوى الاسرائيلى أمس المفاعل النـــووى أوزيراك الذى يقع بالقرب من بغداد ، ودمره تماما . وقد عادت جميع طائراتنا الى قواعدها سالمة » . واستطرد البيان ليشرح الدوافع الكامنة وراء الهجوم . وعندئذ تردد رجع صدى الصدمة فى جميع أنحاء اسرائيل واتصل الاصدقاء تليفونيا ببعضهم . وأوقف الغرباء بعضهم فى الشوارع . وفى أقل من سـاعة ، كان كل شخص يعرف مـا حـدث . وسرعان مـا أذاعت محطات التليفزيون والاذاعة الخبر لبقية العالم .

ولكن القصة الحقيقية الكامنة وراء هذا البيان الاسرئيلى لا تزال فى حاجة الى الكشف عنها .

بينما كانت الغارة لاتزال مستمرة دعا بيجين عن طريق سكرتيره كل وزرائه ومساعديه المقربين سرا الى المجيء الى شقته . وقد تلقى كل منهم الدعوة عن طريق مكالمة تليفونية . ولم يبلغوا بسبب الدعوة . وقد فوجىء الوزراء عندما شاهدوا بعضهم بعضا ، وازدادت دهشتهم عندما عرفوا سبب دعوتهم وفى هذا الجو التآمرى بدأوا يدبرون خطتهم .

وفى أعقاب الغارة مباشرة ، بدا بيجين ومساعدوه فى اعداد بيان رسمى . ولـــكن نظرا لأن بعض الوزراء وكذا بعض كبار الضباط فى الجيش ، وخاصـــة ضباط المخابرات والسلاح الجوى ، كانوا يفضلون تجنب الادلاء باعتراف حكومى بأن الاسرائيليين قد نفــذوا الغارة فقــد اتفق كحل وسط ان يذيع الاسرائيليون ببيانهم الرسمى بعد أن تكشف اى دولة عربية حقيقة الغارة .

ولذلك تلقى ضابط المخابرات الاسرائيلى المسئول تعليمات خاصة بأن يبلغ أية أنباء أو رسائل عربية عن النشاطات الاسرائيلية فى العراق . ومن المرجح ان الضابط نفســــــه لم يكن يعرف شيئا عن الغارة . فحتى هذه اللحظة كانت الغارة تعتبر أمرا سريا جدا حتى فى اسرائيل .

وعند الظهيرة سجلت احدى محطات الاستماع الاسرائيلية التى كانت تستمع الى مناقشة عامة فى البرلمان الأردنى خطابا القاه رئيس الوزراء الأردنى ، واتهم فيه الطائرات الاسرائيلية بالاشتراك فى الحـرب الدائرة بين العــــراق وايران ، وبالتعاون مع الايرانيين .

وعندما عرضت هذه الرسالة على الضـــــابط المسئول ، بادر بابلاغها للمساعد العسكرى لبيجين . ولم يعرف بالتحديد ما الذى حدث فى هذه المرحلة . ولكن يوجد احتمالان وهما : اما انه قد اسىء فهم الرسالة وان مساعدى بيجين اعتبروها بمثابة بيان اردنى يكشف الغارة ، أو انها استخدمت كوســـيلة لاعلان البيان الذى كانوا قد أعدوه بالفعل .

وعلى اية حال ، كان الوقت عندئذ يقترب من الساعة الثالثة بعد الظهر ، عندما طلب المتحدث الصحفى فى مكتب بيجين محطة الاذاعة . واتصل على الفور بالمذيع المسئول واملى عليه البيان الرسمى بالتليفون ولما كان المتحدث الصحفى يورى بوراث مايزال جديدا فى منصبه ، ولم يكن معروفا بصفة خاصة للعاملين فى الاذاعة ، فان المذيع اعتبر هذا البيان نكتة سيئة . فلم يصدق ماورد فيه . ولذلك لم يذع البيان فى نشرة الساعة الثالثة . غير أن أحد العاملين فى الاذاعة الذى تصادف أنه قريب لبيجين ، اتصل تليفونيا برئيس الوزراء قائلا له : عمى . لقــد تلقينا توا بيانا مثيرا للســخرية من شــخص يزعم انه المتحدث الصحفى باسمك » ولم ندع هذا البيان لاننا نعتقد أنه ما ورد فيه أمرا لا يمكن تصديقه » .

وكان بيجين غاضبا جدا . فقد كان يريد أن يذاع البيان فى اقرب وقت ممكن . وها قد حدث الآن هذا الارجاء الغبى غير الضرورى . وعندئذ أصدر اوامره الى قريبه هذا بقطع البرامج واذاعة البيان . وهكذا ، فى الساعة الثالثة والنصف قطع راديو صوت اسرائيل برامجه وأذاع الرسالة الدرامية .

أن أحد الاسباب ـ وان لم يكن أهم سبب وراء رغبة بيجين ومساعديه فى اذاعة البيان الخاص بالغارة هو ما تحققه هذه العملية الناجحة من رصيد سياسى داخلى . ذلك ان الانتخابات الاسرائيلية كانت ستجرى فى اسرائيل بعد ثلاثة اسابيع ، وكان بيجين فى حاجة ماسة الى أصوات الناخبين ففى خلال العام والنصف الماضى كان الاسرائيليون وكذا أجهزة الاعلام الاجنبية تعتبر أن ادارته فاشلة . والآن ، كان عليه أن يثبت أنه الرجل المناسب لقيادة اسرائيل خلال هذه الفترة المضطربة والخطيرة .

وعلى الرغم من أن بيجين وزملاءه فى كتلة ليكود زعموا فى أعقاب الغارة انهم لن يستخدموا العملية التى قام بها السلاح الجوى الاسرائيلى كســلاح فى حملتهم الانتخابية ، الا ان كل شخص فى اسرائيل تقريبا كان يدرك معنى توقيت الغارة ـــ انه توقيت قريب جدا من يوم الانتخابات .

غير ان بيجين نفسه ارتكب سلسلة من الاخطاء الفاحشة غير العادية والغبية فى أعقاب الغارة . بعضها يمكن ان يرجع الى تجاهل الاعداد لشرح ضرورة الهجوم ، للجمهور . ولم تكن وزارة الخارجية الاسرائيلية تعرف الغارة اوشيكة ، ولذلك لم يكن فى وسعها ان تعد حملة لتشرح ضرورتها . كما استشهد بيجين بأن صدام حسين قال فى ٤ اكتوبر ١٩٨٠ ان المفاعل العراقى كان موجها ضد اسرائيل .

ولقد كان استشهادا مفيدا ، ولكن تبين بعد اسبوع أن صدام حسين لم يقل قط شيئا كهذا فى هذا التاريخ . ولذلك اضطرت وزارة الخارجية الاسرائيلية الى اصدار تعليمات للمحلفين الصحفيين الاسرائيليين فى كافة انحاء العالم بعدم الاستشهاد بقول صدام حسين هذا . ولقد وصلت هذه التعليمات الى (يهودا بلوم) المندوب الاسرائيلى فى الامم المتحدة فى الوقت المناسب ، فقد كان (بلوم) قد استند فى كلمته التى كان يزمع القاءها فى الجمعية العامة للامم المتحدة على قول صدام حسين هذا . وعندئذ كان على (بلوم) الذى شعر بالاضطراب ان يبحث عن كلام آخر . ومن حسن الحظ انه كان لصدام حسين العديد من الخطب التى ألمح فيها الى أن هدف المفاعل النووى العراقى كان تدمير اسرائيل . ولذا لم يكن على (مستر بلوم) ان يعمل كثيرا .

أما بالنسبة للحملة التى يشنها الكيان الصهيونى ضد استخدام العراق للتكنولوجيا النووية . فان الماضى العريق والمجيد للعراق سيمكن تقديره فقط عندما يصب جام غضبه على الكيان الصهيونى ، وعندما تخدم مثل هذه التكنولوجيا قضية الأمة العربية ، ان العراق سيستخدمها لتحرير فلسطين وليس لأى غرض آخر .

(بيان القاه صدام حسين فى ١٩ أغسطس ١٩٨٠ ، وأذاعته وكالة الأنباء العراقية الرسمية)

اما بالنسبة (للبيان المشترك) العراقى السعودى بمقاطعة الدول التى نقلت سفاراتها (من تل ابيب)الى القدس ، فان أفضل قرار فى الواقع هو تدمير تل أبيب بالقنابل وأول ما يجب أن نفعله (الآن) – مع ذلك – هو أن نستخدم كل مافى حوزتنا من أسلحة الى أن يمكننا الرد على العدو بالقنابل أن أشقاءنا العرب يمكنهم التعاون معنا فى هذا المجال .

(بيان لصدام حسين أذاعه راديو بغداد فى نفس التاريخ السابق)

غير أن بيجين ارتكب بعد ذلك بأيام قلائل خطأ أكثر جسامة . ففى حفل أقيم بمنزل (باتريك موبرلى) السفير البريطانى الجديد لدى اسرائيل قال بيجين أن الطائرات الاسرائيلية دمرت معملا سريا كان مقاما تحت الارض

فى موقع المفاعل . بل انه حدد بدقة عمق هذا المعمل : ٤٠ مترا (١٢٠ قدما) تحت سطح الأرض .

ولقد أصيب كل شخص بصدمة . اذا ما كان فى وسع الطائرات الاسرائيلية تدمير هدف مختبىء على عمق ٤٠ مترا تحت المفاعل ، فان لدى اسرائيل اذن امكانية مدهشة على شن غارات جوية . كما كان يعنى أيضا ان العراقيين اقاموا بعض المنشآت السرية التى لا يعرف العلماء الفرنسيون ولا الوكالة الدولية للطاقة الذرية أى شىء عنها . ولقد كان ذلك حجة جيدة جدا للهجوم وتسابق الصحفيون لنشر هذه القصة الاخبارية .

ولكن لم تكد تمضى ٢٤ ساعة حتى تبين ان رئيس الوزراء قد اخطأ . فلقد اصدر مكتبه اعتذارا جاء فيه أن رئيس الوزراء كان يقصد أن عمق المعمل يصل الى ٤ أمتار فقط (١٢ قدما) وليس ٤٠ مترا . وقد وصفت الحكومة الفرنسية تصريح بيجين الاخير بشأن المعمل السرى بانه « محض خيال » .

واعترفت المصادر الامريكية انها لم تعرف شيئا عما كان بيجين يتحدث عنه وعندما سأل التليفزيون الاسرائيلى ديفيد أفرى قائد السلاح الجوى الاسرائيلى عما يمكن أن يقوله حول قصة بيجين الخاصة بالمعمل السرى ، أصاب باقتضاب انه ليس لديه ما يقوله غير انه كان من الواضح أن «القصة» كانت خطيرة للغاية وذلك بعد فشل الدعاية فى أعقاب الغارة .

بيد أن الرفض الاكبر الذى عانى منه بيجين فى أعقاب الغارة لم يأته من خارج اسرائيل ، وانما جاءه من مجموعة من الرجال المقربين جدا ، والذين يقدرهم بيجين وهم : الطيارون الذين نفذوا الغارة .

ذلك أن عددا كبيرا من الطيارين الاسرائيليين ينحدرون من الكمبوتزات (المزارع الجماعية) والموشاف (مستعمرات صفا الملاك) وتنزع هذه القطاعات الى التصويت لصالح حزب العمل وتقف ضد بيجين وضد ادائه كرئيس للوزراء بشدة .

لقد قرر بيجين انه يود اجراء حوار خاص مع الطيارين الذين نفذوا الغارة . وأن تلتقط له صور معهم . وكان هذا يعنى الكثير بالنسبة له . وبالنسبة لحملته الانتخابية . ولذلك اتفق على دعوة الطيارين الى لقاء حكومى خاص بعد أسبوع من الغارة .

غير أن الطيارين رفضوا حضور اللقاء ..

وأوضح بعضهم لأصدقائه المقربين أنهم قاموا بالغارة من أجل وجود الشعب الاسرائيلى وليس من أجل وجود بيجين كرئيس للوزراء .. ولهذا ، قررت الحكومة الاسرائيلية انه اذا كان الجبل قد رفض الحضور الى بيجين ،

فان على بيجين ان يذهب الى الجبل . ولذا فقــد قرر بيجين والوزراء زيارة القاعدة الجوية التى أقلع منها الطيارون والالتقاء بهم شخصيا .

ولم يكن لدى الطيارين أى خيار هذه المرة . فقد كان عليهم أن يجتمعوا مع بيجين ، غير أنهم كانوا لا يزالون يضمرون تنفيذ خطـــة ما . فعندما وصل بيجين وزملاؤه الى مقر قيادة القاعدة الجوية حيث كان الطيارون فى انتظارهم ، وجدوا صفا أنيقا من السيارات الواقفة أمام المبنى — وهى السيارات الخاصة بالطيارين — وكان على الزجاج الأمامى والخلفى لكل سيارة ملصق ضخم يدعو الى تأييد شيمون بيريز زعيم المعارضة وضد كتلة ليكود التى يتزعمها مناحم بيجين ، وقـــد احتقن وجه بيجين ووجوه بعض زملائه . وفهمـــوا تمـــاما ما يقصده الطيارون . وقد كتب أحد كبار المعلقين الاسرائيليين ، فيما بعد ، أن حزب العمل حاول طوال ســـنوات هزيمة بيجين . والآن ، نجد بعض الطيارين الذين ينتمون الى الجناح اليسارى والذين هم ضد بيجين ، قد طاروا عدة ساعات مخاطرين بأرواحهم من أجل بلادهم . وقد أنجزوا مهمتهم بنجاح ليجدوا أنهم قد حققوا بذلك تأييدا جماهيريا لبيجين فى الانتخابات .

والواقع أن الانتخابات كانت قريبة من الوقت الذى جرت فيه الغـــارة وان كل حزب سياسى كان يحاول الحصول على رصيد سياسى من الغارة ، وهذا كله من شأنه أن يلحق ضررا بالغا بأمن اسرائيل فعندما كان وزراء الحـــكومة لا يحاولون اثبات أنهم كانوا دائما يؤيدون الغـــارة ، وليسوا ضدها ، كان زعماء المعارضـــة يزعمون أن أجهزة المخـــابرات الاسرائيلية قد أبلغت بيجين بأن المفاعل النووى العراقى لن يجرى تشـــغيله فى يوليو (كما زعم بيجين لتبرير الغارة) وأن هذا المفاعل لم يكن من المحتمل أن يصبح « ساخنا » قبل سبتمبر ، وهكذا كانوا يتجادلون ، وبذلك اصبح قرار الغـــارة مجرد تكتيك انتخابى من جانب رئيس وزراء انتهازى كان يتعلق بقشة سياسية مؤثرة .

ومما يثير الدهشة أنه فى ظل هذا الجو المحموم للغـــاية — انتخابات ١٩٨١ فى اسرائيل ، من المرجح أنها أكثـــر الانتخابات هستيريا فى تاريخ اسرائيل — بدات تتسرب تفاصيل سرية عن الغارة . من بينها ما زعمه بيجين من أنه كان يوجد تعاون مع الولايات المتحـــدة الامريكية بشـــأن المفـــاعل العراقى .

وكان الانطبـــاع الذى رسخ لدى الشعب الاسرائيلى خـــلال الاسابيع الثلاثة التى سادها التوتر والتى تبـــدأ من وقت وقوع الغـــارة حتى يوم الانتخابات العامة — هو ان رئيس وزارتهم كان يكشف السر تلو الآخر حتى يفوز فى الانتخابات .

ولم يكن هذا هو انطباع الجمهور العام فحسب ، وانما كان ايضا انطباع رئيس المخابرات الاسرائيلية (الموساد) الذى يعتبر اسمه سرا من أسرار الدولة .

فقد ادلى بحديث صحفى لصحيفة « هاآرتس » الاسرائيلية ، طالب فيه بأنه يتعين الكف على الفور عن الكلام على الغارة . وزعم ان كل هذه الأسرار التى تسربت قـــد أضرت بأمن اسرائيل . ذلك ان بعض أجهـــزة المخابرات الأجنبية التى كانت تتعاون بطريقة غير رســـمية مع المخابرات الاسرائيلية فى الماضى ، ستفكر مرة ثانيـــة فى مسالة تعاونها بعد كل هـــذه المناقشات التى تجرى فى اسرائيل بشأن الغارة .

ولقد اصبح ممكنا نشر هذا الحديث الصحفى الذى لا مثيل له من قبل مع رئيس الموساد لأنه أدلى به دون التشاور اولا مع بيجين . وكان يعـــرف أن بيجين ســـيرفض ذلك لأن بيجين نفســـه هـــو المصـــدر الاساسى لتسريب أسرار الغارة .

وعنـــدما استدعاه رئيس الوزراء الى مكتبـــه ووبخه ، اعتـــذر رئيس الموساد ولكن الحقيقة كانت لا تزال باقية . لقد أوضح وجهة نظره . انه يتعين على الفور الكف عن الكلام حول الغارة .

وعلى حين ان الغارة قد جرى التخطيط وتنفيذها على نحـــو رائع . نجد ان ما حدث فى اسرائيل فى اعقابها كان عملا من اعمال الهواة الى أقصى حـــد ، وذلك يرجع أساسا الى فوضى الانتخـــابات كما يرجع الى ســـلوك بيجين . لقد ادت اسرائيل خدمة عظيمة الى العالم بأسره بتدميرها المفاعل العراقى ، الذى كان ضد مصالح كل البلاد المحبة للســـلام ، ولكن بسبب عدم فطنة بيجين وفشل حملة الدعاية المضادة ، وجه اللوم الى اسرائيل باعتبارها دولة قراصنة انتهكت القـــانون الدولى وقد اعتبرتها المنظمة الدولية للطـــاقة الدولية خارجة على القانون وادانتها الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وعلى الرغم من أن اسرائيل قد نجحت فى شن غارة ناجحة ضد واحدة من أكثر المشروعات تهديدا لوجـــودها ، على الرغم من ذلك فشلت فى شرح الأسباب التى حتمت عليها ان تشن هذه الغارة فلقد تجاهلت اسرائيل تماما أن تعد وان تشن حملة اعلامية تشرح فيها اسباب الغارة للراى العام العالمى وقد تكون فى ذلك مثل الذين يجيدون الأفعال لا الكلام .

٢٢ ـ حـــرب الدعاية :

حسين يرد على الهجـوم

فاجأت الغارة على مشروع تموز العالم بأسره . لقد فاجأت الأمريكيين وكذلك الروس واوربا والصين ، بل الاسرائيليين انفسهم . ولــكن ما هو اكثر من ذلك انها اصابت العالم العربى بصدمة ، وخاصة النظام العراقى .

وكان العــراقيون ، طوال اكثر من عامين ، يدركون تمام الادراك ان حربا سرية تخاض ضد اكثر مشروعاتهم طموحا . وبعــد الهجوم الجــوى الايرانى فى سبتمبر ١٩٨٠ كان النظــام الدفاعى العراقى ، وكذا الزعامة السياسية تشعران بالصدمة من احتمال غارة اسرائيلية .

والواقع انه لا توجد تفاصيل كثيرة عما حدث فى بغــداد خلال الاربع والعشرين ساعة التى اعقبت الغارة . غير ان ثمة شيئا واحدا كان يبدو واضحا لكل من حلل بعناية رد الفعل العراقى خلال هذه الأربع والعشرين ساعة ان العراقيين لم تكن لديهم اية فكرة عمن قام بالغارة ، ولا ما تم تدميره بالتحديد ، ولا كيف تمت الغــارة . ذلك ان كافة اجهزة المراقبــة فى بغــداد كانت فيما يبدو ، فى حالة فوضى شاملة . ولقد اختفى فجــاة الرئيس العراقى ، الرجل القوى للنظام البعثى ، واخذ مساعدوه يبحثون عنه لابلاغه بنبأ الغارة وتلقى تعليماته ، ولكنهم لم يعثروا عليه طوال ٦ ساعات او نحو ذلك .

وفى مؤتمر صــحفى عقد فى روما اثار طه احمد داود السفير العراقى لدى ايطاليا جوا من الاثارة عندما اعترف بعــد ٥ ايام من الغــارة انه حتى صدور البيان الاسرائيلى لم تكن لدى حكومته اية فكرة عمن قام بالغارة .

وفى ظل هــذه الظروف ، كان من الواضح تماما ان البيــان الرسمى الاسرائيلى بشان الغارة المفاجئة جاء كصدمة ثانية لنظام صدام حسين .

وهكذا ، لم يكن لدى النظام الثورى العراقى اى خيار سوى الاعتراف بان اكثر مشروعاته طموحا وهــو ١٧ تموز ، قــد دمرته غارة اسرائيلية . ففى مساء ٨ يونيو اصدرت القيادة الثورية فى العراق بيانا ردت فيه لأول مرة على الغــارة الاسرائيلية .

وكانت بداية البيان تصف اساسا ما اسمته « الدعم والمساندة العسكرية الاسرائيلية لايران » ثم استطرد البيان لتوجيه اللوم ضد اسرائيل لمحاولتها تدمير كل جهد عربى لتقريب الفجوة العملية بين العالم العربى والكيان الصهيونى. ثم اتهم اسرائيل مرة اخرى بالتورط فى الحرب الدائرة بين العراق وايران ، ربما ليبرر عدم نجاح العراق فى هذه الحرب . وفى ضوء هذا المعنى اعلن البيان قائلا : « ايها المواطنون اننا نعلن اليوم ان طائرات العدو الصهيونى قد اغارت امس على بغداد . ففى الساعة السادسة و ٣٧ دقيقة اغــار تشكيل من ٩ طائرات على المبنى النووى » .

وحتى يشرح البيان حقيقة ان النظام العراقى انتظر اكثر من ٢٤ ساعة قبل الاعتراف بذلك ــ بالرغم من حالة الفوضى التى سادت بغداد فى اعقاب الغارة ــ قال البيان « وكما حدث فى ٢٧ سبتمبر ١٩٨٠ آثرنا الا نتسرع فى الاعلان عن هذه الغارة . وبينما كنا نعد هذا البيان ، بعد ان توافرت كل الدلائل على هذه الغارة ، اعلن العدو الصهيونى بعد ظهر اليوم مسئوليته عنها .

ثم حاول البيان ابداء تفسير خاص للغارة الاسرائيلية المفاجئة بالنسبة للحرب العراقية الايرانية . فقال : « ان العدو الصهيونى يحــاول تحقيق اهدافه وان يحقق للحكام فى طهران وقم ، ما فشلوا فى تحقيقه خلال الاشهر العشرة من هذه الحرب الغادرة » .

وينتهى البيان العراقى بوعد الشعب العراقى بان الطريق الذى تسلكه القيادة البعثية حتى الآن سيستمر ليحقق للشعب الحرية والاستقلال والتقدم.

وبعد ذلك بيوم واحد ، اصبح المتحدثون باسم الحكومة العراقية اكثر تشددا فى موقفهم تجاه اسرائيل . فقد اذاع راديو بغداد :

« تؤكد الهجمات الصهيونية التى وقعت مرتين (١) على المنشآت النووية العراقية خلال عدة اشهر حقيقة ان العدو الصهيونى يعرف ان العراق بما لديها من طاقة حرب تكنولوجية متقدمة ــ سيكون فى مقدمة القوات العربية المقدر لها ان تشتبك مع العدو الصهيونى فى اية حرب قومية فى المستقبل . ذلك ان العراق بما لديها من طاقة عسكرية متقدمة ستكون فى الصفوف الاولى فى اية مواجهة قومية مع العدو الصهيونى .

وهكذا غنى راديو بغداد فى اذاعة هذا النوع من الدعاية لعدة ساعات. والواقع ان الكلمة المكتوبة او المذاعة فى العالم العربى تعتبر فى بعض الاحيان اكثر ايحاء ومعنى من التجربة الشخصية . لقد تعرض النظام فى العراق لاذلال شديد وغدت مكانته يتهددها الخطر . وكان صدام حسين يعرف انه لا يمكنه ان يرد على اسرائيل عن طريق استخدام القوة ــ على الاقل لا يمكن الرد على الفور ــ ولذلك كانت الحملة الاعلامية التى شنتها اجهزة الاعلام العراقية ضد اسرائيل هى اقصى ما يمكنه القيام به لتخفيف حالة الاحباط التى تشعر بها القيادة وكذا الشعب العراقى ، فى اعقاب الغارة التى بينت الى اى مدى كانت العراق مكشوفة بالنسبة للغارة الاسرائيلية . ولكن من المثير ان نلاحظ ان صدام حسين نفسه ظل صامتا لمدة ١٠ ايام بعد الغارة . فباعتباره زعيما للشعب العراقى ، كان من المرجح انه يعلم ان الامر يقتضى رد فعل آخر ضــد اسرائيل بغض النظر عن الحملة الدعائية .

(١) يشير العراقيون الى الغارة الايرانية التى وقعت فى سبتمبر ١٩٨٠ على انها غارة نفذتها اسرائيل وليست ايران .

٢٣ – مسألة توازن دقيق :

رد الفعل الأمريكي

فى أعقاب تدمير المفاعل العراقى لم يعد الشرق الاوسط كما كان فلقد تغير ميزان القوة فى الشرق الاوسط والخليج تغيرا عنيفا .

وقد تسللت الثورة التكنولوجية أخيرا الى هذه المنطقة المضطربة وغير المستقرة ، وان كانت منطقة حيويه من الناحية الاستراتيجية . ولقد مزق تدمير المفاعل العراقى قواعد السلوك الدولى الذى كان معروفا من قبل فى الشرق الأوسط . ولقد كان العمل الاسرائيلى تعتبر اول تدمير لمفاعل نووى لعدوه ، ومن ثم يعتبر منعا بالقوة لانتشار الأسلحة النووية وتلك تعتبر سابقة دولية خطيرة .

والواقع انه بتدمير المفاعل ، احتفظت اسرائيل ورئيس وزرائها بيجين لانفسهم بالاحتكار النووى فى الشرق الاوسط . ويمكن للمجتمع الدولى أن يتناقش الى غير نهاية فى كون اسرائيل قد دمرت بالفعل الامكانية النووية العراقية ، بيد أن ما حدث يعتبر أمرا ينطوى على أثر أبعد مدى مما قصد مستر بيجين . فلقد تلقى العالم العربى صدمة حرب ١٩٦٧ ، وهى صدمة لم يخفف من أثرها ادانة الامم المتحدة لاسرائيل . ولقد سعى العرب للثأر فى أعقاب ١٩٦٧ ، وسوف يفعلون ذلك الآن ، حتى انه من المتوقع ان يسرع ايقاع الانتشار النووى فى ليبيا وسوريا ومصر وباكستان ، ومن المؤكد أن يسرع كذلك مرة أخرى فى العراق . ولذلك ، فان ما نجح الاسرائيليون فى فعله هو أن تكسب اسرائيل لنفسها بعض الوقت – وهى سلعة تنفد دائما .

ولقد قال (زيف سشيف) المحلل العسكرى العليم ببواطن الامور فى صحيفة « هاآرتس » الوقورة : انه فى أعقاب تدمير المفاعل العراقى أرسى رئيس الوزراء بيجين وأعلن قاعدة جديدة وغير مرنة بالنسبة لسياسة الامن الاسرائيلية .. وهى أن اسرائيل لن تسمح للعرب بأن يزودوا انفسهم بأسلحة الابادة الجماعية (١٩ يوليو ١٩٨١) ، والواقع أن مبدأ الاحتكار هذا يعلن بوضوح أن هذه الحكومة وأية حكومة أخرى (أى حكومة حزب العمل المعتدلة) لن تسمح بوجود مثل هذه الأسلحة ، وخاصة عندما يحكم الدول حكام رافضون ومتهورون مثل صدام حسين والقذافى الذين يعتبر هدفهم الوحيد فى التعامل مع اسرائيل هو تدميرها . غير أن بيجين لم يعلن رأيه فى كون اسرائيل تعتبر أن امتلاك الدول العربية المعتدلة لمثل هذه الاسلحة ، أمر من المحتم تدميره كذلك . ويمكن للمرء أن يفترض انه قد جرى تحديد هذا التمييز ، كما هو الأمر فى حالة مصر التى اعلنت نبذها للحرب كاداة سياسية ازاء اسرائيل .

وفى الواقع يمكن للمرء ان يتكهن بالاسباب التى تدعو النظم العربية المعتدلة الى السعى للحصول على أسلحة الابادة الجماعية ، اذا لم يكن هذا احد عناصر السياسة الوطنية كما هو الحال بالنسبة لصدام حسين ومعمر القذافى . كما اصبح من الضرورى من أجل انتهاج سياسة ردع اسرائيلية تدمير المفاعل فى فترة كانت فيها معدل التسليح التقليدى بين اسرائيل والدول العربية يتحول لغير صالح اسرائيل : « ذلك أن اسرائيل لا يمكنها الحفاظ على تفوقها العسكرى التقليدى لمدة طويلة ، فمن المتوقع أن يحقق العرب تفوقا على اسرائيل فى مجال العدد والاجهزة والمعدات العسكرية بنسبة خمسة الى واحد بحلول عام ١٩٨٥ .

ويرجع الى مفهوم الرد المرن للردع الذى كان يتبناه كل من بن جوريون وديان وبيريز . ذلك ان حروب ١٩٦٧ و ١٩٧٣ وحرب الاستنزاف التى استمرت من ١٩٦٨ حتى ١٩٧٠ قد أثبتت أن السلاح الجوى الاسرائيلى وأسلحة اسرائيل التقليدية ليست كافية لردع العرب . ففيما وراء العرب يكمن التهديد السوفيتى بينما لم تضمن القوة الامريكية حدود اسرائيل فيما بعد حرب ١٩٦٧ .

وكان بيجين ومستشاروه يأملون فى أن تكف أوربا الغربية وخاصة فرنسا وايطاليا عن تزويد العراق بمواد الانتشار النووى المميتة . ففى أعقاب شهر أكتوبر من عام ١٩٨٠ ، وربما قبل ذلك ، كانت المخابرات الامريكية تعتقد أن اسرائيل تعد لشىء ما ، والواقع أن اسرائيل لم تخف حقيقة ما كانت تعتزم الاقدام عليه . فقد حثت ادارة كارتر على أن تمارس ضغطا دبلوماسيا شديدا على الفرنسيين والايطاليين فيما يتصل بامدادهم العراق بالاجهزة والمواد النووية . غير أن هذه الضغوط لم تسفر عن أى شىء فلم يعد نظام جيسكار ديستان المتغطرس أية اهمية للطلبات والتحذيرات الاسرائيلية والامريكية .

وهكذا ، بعد أكتوبر ١٩٨٠ ، كانت الولايات المتحدة تدرك الأغراض والمبادىء التى تكمن وراء هذا القرار ، غير أنها لم تكن تعرف أى شىء عن الاجتماع السرى لمجلس الوزراء الاسرائيلى . ان ما لم تكن تعرفه الولايات المتحدة وما لم يجر التشاور معها بشأنه هو « توقيت » الغارة على المفاعل وخطط اسرائيل لذلك ، وتدريب واستعداد السلاح الجوى الاسرائيلى للهجوم (ومن ثم كان رد الفعل الذى اتخذه كاسبار واينبرجر وزير الدفاع الامريكى مرنا وتمثل فى فرضه حظرا على تسليم ٤ طائرات أمريكية من طراز اف–١٦ لاسرائيل كان من المقرر أن تتسلمها اسرائيل بعد الغارة بأيام قلائل) كما لم يجر التشاور مع واشنطن حول قرار تدمير المفاعل العراقى .

ولقد كان توقيت الغارة بالنسبة للمخابرات الأمريكية مفاجأة كاملة حتى على الرغم من ادراكها لمخاوف اسرائيل الحقيقية من طبيعة وغرض المفاعل .

وكان رد الفعل الامريكى ينطوى على المفاجأة والامتعاض والقلق . فلقد أقضت اسرائيل ، فيما يبدو ، على مفهوم الجنرال هيج (وزير الخارجية الامريكى) الخاص بالاجماع الاستراتيجى وعلى السياسة الامريكية فى المنطقة. ورغم أن ادارة ريجان تبدى عدم اهتمام نسبى تجاه مشكلة الانتشار النووى ، اتسم رد الفعل الامريكى ازاء الغارة الاسرائيلية ، بالاضطراب والسرعة وعدم الارتياح .

ومن ثم — وفى وسط الضجة التى كانت مثارة حول بيع طائرات الانذار المبكر الامريكية (الاواكس) للسعودية — كان يبدو بوضوح شيء واحد هو : « ان الولايات المتحدة — ادارة ريجان — ليس لديها أية سياسة شاملة واضحة تجاه الشرق الاوسط والخليج الفارسى . وانها تعيش بالاحرى على بقايا المبادرات القديمة والمتآكلة لنيكسون وكارتر » .

وقد قرر هيج ، وزير الخارجية الامريكية ، ارجاء اتخاذ قرار بشأن وضع استراتيجية للشرق الاوسط والخليج الفارسى خلال الاشهر الستة الاولى على الاقل لتولى الادارة السلطة ، ومع ذلك لم تتوقف الحركة فى الشرق الاوسط . فلقد اتخذ الفلسطينيون والمصريون والعراقيون والسوريون قرارات سياسية وعسكرية لم تكن تتعلق بالقوى العظمى . ولقد ابتكر هيج — فى أعقاب المشروعات الكبرى للرئيس (ريجان) الخاصة بأنه فى ضوء الاستراتيجية الامريكية سوف تطغى العلاقات بين الشرق والغرب على مفهوم الشمال والجنوب ، وأنه على الولايات المتحدة أن تواجه الامبريالية العسكرية السوفيتية والارهاب الدولى الذى تمثله منظمة التحرير الفلسطينية — ابتكر هيج مبدأ جديدا هو الاجماع الاستراتيجى فى الشرق الاوسط الذى كان يفترض أن تدخل اسرائيل والعالم العربى فى اتفاق أمن جماعى فى ظل حماية الولايات المتحدة على أن يكون عدوه المشترك هو الشيوعية والارهاب الدوليين.

والواقع أن مفهوم الاجماع الاستراتيجى لم يكن جديدا . فهو الوجه الآخر لسياسة التسوية الشاملة التى انتهجها كارتر وبريجنسكى (مستشار الامن القومى للرئيس كارتر) . ولقد كانت سياسة التسوية الشاملة تتطلع الى اشتراك اسرائيل والدول العربية فى مؤتمر سلام شامل .. وكان هذا حلما خياليا . ومع ذلك ، تتطلع سياسة الاجماع الاستراتيجى الى اشراك اسرائيل والعرب فى مجلس حرب مشترك بقصد حماية الشرق الاوسط من السوفييت . ولم يكن هذا التطلع أقل خيالا .

ان الاجماع الاستراتيجى هو ابتكار أمريكى حديث للتعامل مع مشكلة الشرق الاوسط . وتنطوى فكرته والامل المرجو منه على امداد الدول العربية المعتدلة مثل مصر والاردن والسعودية (ومن المرجو كذلك سوريا والعراق) بالأسلحة اللازمة للتصدى للتحدى السوفيتى . وهكذا فان كل دولة — على أساس ثنائى وأخيرا على أساس جماعى — سوف تستظل بالحماية الامريكية المناهضة للسوفييت ، كنوع من منظمة حلف الاطلنطى بالشرق

الاوسط . غير ان هذه الفكرة الاستراتيجية تعتبر فكرة غير واقعية طالما ان الدول العربية المعتدلة ، مثل السعودية والاردن ، تؤيد ، بل تتحالف فى الواقع مع العرب الرافضين مثل العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية .

وطالما أن جبهة الرفض العربية تحصل على ما يلزمها من الاموال من شيوخ شبه الجزيرة العربية ، وأن الجيش العراقى يزود بالاسلحة السوفيتية فان ثمة فرصا ضئيلة لتكوين جبهة عربية اسرائيلية مشتركة ضد السوفييت. والواقع أن الاجماع الاستراتيجى قد طرح كبديل للتوازن الاستراتيجى ، وهى الصيغة الامريكية الخاصة بالشرق الاوسط طوال العقود الأربعة الماضية . ذلك أن الاعتبارات الاستراتيجية كانت تستند ، فى الماضى ، على أن تكون نسبة القوة العسكرية العربية الاسرائيلية ١ الى ٣ ، وأن كلا من الولايات المتحدة واسرائيل كانتا تسعيان للحفاظ على هذا التوازن . وكان هذا التوازن يستند فى ذلك الوقت على قدرة الدول ، لا على طموحاتها وتطلعاتها .

ومن ثم ، سيغير المفهوم الجديد ، فى الواقع ، التوازن العسكرى فى الشرق الاوسط لصالح الدول العربية . ذلك أنه بمقتضى مبدأ الاجماع الاستراتيجى لن تكون الولايات المتحدة فى حاجة الى الاجماع من الناحية العملية على أن تزود الشرق الاوسط والخليج بالاسلحة بدون أية حدود ، ويكون ذلك خاضعا فقط لنزوات كل دولة .

وبهذا يمكن للاجماع الاستراتيجى أن يصبح ترسانة عسكرية حتى ان الولايات المتحدة ، بالرغم من تواجدها فى مركز القيادة والمراقبة قد تجده يوما وقد أصبح جحيما ثوريا يسيطر عليه قذافى سعودى أو ما هو أسوأ خومينى سنى سعودى . ذلك أن السعودية تعتبر دولة ضعيفة . وبعض المحللين فى المخابرات المركزية الامريكية تساورهم الشكوك فى كون الأسرة الحاكمة السعودية ستستمر حتى نهاية الثمانينيات .

ولقد كان خطأ الاجماع الاستراتيجى يثير الاسرائيليين ويستفزهم بأكثر مما يستفز أقرانهم الامريكيين . ذلك أن العرب يعتبرون اسرائيل لا الاتحاد السوفيتى ، عدوهم الاساسى ، ولعل أفضل بيان عن الوضع الامريكى هو ذلك الذى أدلى به جيمس شليزنجر وزير الدفاع الامريكى السابق ، وقد قال فيه :

« ان منهاج الادارة يركز على التهديد السوفيتى والسعى الى تحقيق اجماع استراتيجى يصل فى النهاية الى عمل جماعى من جانب دول المنطقة بالنسبة لتحسين قدرتها على الردع العسكرى ضد التدخل السوفيتى . وعلى حين أن مثل هذه النتيجة سوف ترضى الى حد كبير الكثيرين منا ، الا أنه من قبيل الاستغراق فى الذات الامريكية أن تفترض أن دول المنطقة سوف تتخلى عن همومها المباشرة وتحتضن همومنا . ذلك أن كلا من اسرائيل وجيرانها العرب ، يساورهم القلق بشأن النوايا والاعمال التى من شأنها أن تشكل خطرا راهنا وواضحا بالنسبة لبعضهم . والتى لا يمكنهم ببساطة نسيانها

وتبنى قلقنا الذى يتمثل فى احتمال التهديد السوفيتى للمنطقة . ولذلك ، ينبغى التخل عن أى أمل فى أن يتركز الاهتمام الاقليمى نحو الشمال ، فى ظل غيـــاب معالجة فعالة متزامنة للتوترات الداخلية فى المنطقة . والواقع أن الغارة الاسرائيلية على المفاعل العراقى تعنى نهاية هـــذا الاتجاه الخاص فى أولويات السياسة الامريكية ، لأنها زادت من هذه المخاوف الخاصة بشأن الصراعات الداخلية التى لم يتم التوصل لحل لها بعـــد ، بينما تثير شكوكا متزايدة حول فعالية الدور الامريكى فى المنطقة .

وفيما يتعـــلق بهذه التوترات الاقليمية ، نجد أن الولايات المتحـــده ربما فضلت أن تتجنب اتخاذ قرار بشأنها ، كسبا للوقت . ولكنه لم يعد فى وسعها ذلك بعد . فقد جعلت الغارة هذه التوترات أمرا رئيسيا ، وكشفت عجز الولايات المتحـــدة عن انجاز دورها المتوقع بشـــأن ضمان كبح الجماح الاسرائيلى . وعلى الولايات المتحدة ان تختار الآن . فمن ناحية ، قد تتغاضى صراحة عن الغارة بالاستمرار فى تزويد اسرائيل بالاسلحة . غير أن النتيجة الحتمية لذلك هى تحقيق مزيد من الخلاف بين الولايات المتحدة والـكثير من دول العـــالم العربى . ومن ناحية أخـرى ، سيثير وقف شحنات الاسـلحة لاسرائيل تلقائيا مشكلة عمق الالتزام الامريكى بضمان أمن اسرائيل . ولقد كان فرصة هذا الاختيار على الولايات المتحدة ملائما للصالح الاسرائيلى .

ذلك أن ادانة الهجوم ـــ وفى ذلك اســـتخدام اسرائيل للأسلحة الأمريكية على نحو مخالف للقانون الأمريكى ـــ يقتضى منطق اعطاء الأولوية للسياسات المناهضة للانتشار النووى بدرجة اكبر مما تعطيها الادارة الأمريكية حتى الآن . وربما يجد (السناتور آلان كرانستون) وآخرون غيره ان الغارة الاسرائيلية لها ما يبررها فى ضوء اصرارهم منذ امد طويل على منع الأسلحة النـــووية . وهكذا كان يمكن لحكومة كارتر لسياستها المعلنة ـــ وان كانت غير فعالة ـــ بشأن منع الانتشار النووى . ولـــكن ادارة ريجـــان تعتبر حتى الآن ، غير مهتمة ، أو قدرية ، بشأن انتشار الاسلحة النووية ، ويبدو هذا بوضوح فى مساعـــدتها العسكرية لباكســـتان . ومن ثم ، اذا ما بادرت الادارة بادانة الغارة ، فانها ستجد ان من الصعب عليها بعـــد ذلك التغاضى عنها عـــلى اساس اهداف منع الانتشار النووى التى لا توليهـــا اى اهتمام حتى الآن . واذا ما تدفقت الأسلحة على اسرائيل بالرغم من القانون الأمريكى ، فسوف يزداد عدم الثقة فى الدوافع الأمريكية وفى دورها كوسيط امين فى حل الخلافات العربية الاسرائيليه .

ولمـــا كانت القوة الخاصة باسرائيل محدودة تماما ، فان جهدها الفردى لمنع انتشار الأسلحة النووية فى المنطقة سوف يثبت انه امر عابر .

ذلك ان موضـــوعا تتفق عليه الدول العظمى ـ بالرغم من أن قدرتها محدودة بالنسبة للتصدى لمشاكله ـ من المؤكد ، والامر كذلك ، أن يتجاوزهذا

الموضـوع قدرة اسرائيل المحدودة جدا . بل ان عمل اسرائيل قد يعزز تصميم العرب على الحصول على أسلحة نووية . وما هـــو اكثر اهمية ، انه يتعين ان تتذكر ان الحركة الأولية نحو انتاج « قنبلة اسلامية » وطلب الدعم لهـــذا المشروع قد جاءت من جانب باكستان ابان حكم الرئيس ذو الفقار على بوتو فى منتصف الســـبعينيات . وعلى الرغم من بلاغة بيجين الاســـتفزازية تقع باكستان فى مكان لا تستطيع الطائرات الاسرائيلية ان تبلغـــه ، كما انهـــا ، فضلا عن ذلك ، تستظل بالحماية الأمريكية .

وهكذا ، فان قدرة اسرائيل تعد محدودة جـــدا بالنسبة لمنع انتشـــار الاسلحة النووية فى المنطقة . ولعل افضل ما يمكن أن نرجو من جراء هـــذه الغارة التى كان التفكير فيها أمرا سيئا بالرغم من أن تنفيـــذها كان بارعا هو أن تركز الاهتمام الدولى مرة اخرى على مشكلة الانتشار النـــووى . غير انها ستفعل ذلك فى مناخ دولى يتدهور تدهورا بالغا .

(جيمس شليزنجر ، صحيفة « واشنطن
بوست » الأمريكية ، ١٢ يونيو ١٩٨١)

ان من الحماقة الزعم بان اسرائيل تعتبر بمثابة حامية ضـــد الاتحـــاد السوفيتى . ذلك ان حرب ١٩٧٣ لم تثبت ذلك . فلقد هبت امريكا فى الواقع ، وليس اسرائيل ، الى مســـاعدة ما يسـمى « المدافع » الاسرائيـــلى المناهض للشيوعية . ولهذا ، لا يعتبر الاجماع الاستراتيجى سياسة بل هو كارثة . اذ أنه توجد سبل أخرى للتوصل الى تقارب اسرائيلى ـ سعودى . والواقع ان الأساس الوحيد الذى يمكن ان تقام عليه سياسة خاصة بالشرق الأوسط هو عملية كامب ديفيد ، وانه يمكن ان ينضج فى النهاية فى اطار هذه العملية استراتيجية أمريكية اسرائيلية عربية .

ولقد كانت الولايات المتحدة اعتبارا من الســـتينيات متحمســـة على نحو يتصف بالشهرة السيئة ، بانتشار الأسلحة النووية عندما كان انتـــاج هـــذه الأسلحة النووية فى بدايتـــه ، ثم انضـــمت الى العملية دول العالم الثـــالث الصغرى ـــ الهنـــد وباكســـتان وتايوان وجنوب افريقيا والعـــراق واسرائيل وليبيا ، وربما دول أخرى . ولقد وضعت الولايات المتحـــدة أخيرا قـــاعدة قانونية دولية هى معاهدة حظر انتشـــار الاسلحة النووية ، التى وقعت عليها معظم دول العالم الثالث وغيرها من الدول الصغرى غير ان اسرائيل والهند لم توقعا عليهـــا .

ومع ذلك ، ليست معاهدة حظر الانتشـــار النووى اداة قوية تكفى لمنع الانتشار النووى . وليس ادل على ذلك من أن العراق وهى احدى الدول التى وقعت على المعـــاهدة ـــ ماضية فى عملية خلق قـــدرة نووية خاصة بهـــا . ولقد اصبحت معـــاهدة حظر الانتشـــار النووى أيديولوجيـــة أمريكية ليبرالية

وكـــذا وسيلة لضمان الا يتسع نطاق النـــادى النووى الدولى . والواقع ان المنظمة الدولية للطاقة الذرية — هى احدى الوكالات التى انشـانها الأمم المتحدة لرصـــد الانتشار النووى ـ تعتبر هيئة ذات صـبغة سياسية الى حد كبير . ومن الواضح ، حتى اذا ما اخذنا حالة العراق مثلا — ان العـــراق لا تسمح لاحـــد باجـــراء تفتيش على مفـــاعلها النـــووى الا ممثلى الدول التى ترى ان علاقاتها بهـــا ودية .

وهكذا ، كان اتفاق المنظمة الدولية للطاقة الذرية امرا واضحا : لمـــاذا لم تسحب اوراق اعتماد الهند فى عضويتهـــا ، بالرغم من انه من المحتمل ان تطرد اسرائيل من عضويتها ، على حين أن الهند تعد الآن دولة أقوى من اسرائيل نوويا . وذلك السحب لاوراق الاعتماد ، والطرد من المنظمة هو من وجهة نظر المجتمع الدولى وخاصة الولايات المتحدة . ولقد كانت الولايات المتحدة تقوم بعد ١٩٦٠ بزيارات مستمرة لديمونا حيث يوجد المفاعل الاسرائيلى ، الا ان هذه الزيارات قد توقفت منذ تولت ادارة ريجان السلطة . ولقد كانت ادارة كارتر بصفة خاصة ، لا تشعر بارتياح لعدم امتثال اسرائيل لمعاهدة حظر الانتشار النووى . بيد أن الضغوط على اسرائيل فى هذا المجال كانت تتغير تبعا لتوجيهات الادارات الامريكية المتعاقبة . ومن المؤكد ان الولايات المتحدة كانت تشـــعر بالقلق ازاء المفاعل العـــــراقى ، وليس ادل على ذلك من ان ادارة كارتر قد ضغطت على فرنسا حتى لايستخدم الفرنسيون اليورانيوم المخصب الامريكى فى المعامل الفرنسية .

وهكذا ، كان رد الفعل الامريكى المفاجىء والغاضب ، بالرغم من انه كان متوقعا فى اسرائيل — كان يثير القلق . وخاصة عندما تشعر اسرائيل بان الولايات المتحدة قد اخفقت فى فهم مايثير قلقها ، وان وجود أسلحة نـــووية فى ايدى حكام دكتاتوريين متعصبين وارهابيين يلتزمون بابادة اسرائيل يعد سببا يبرر الحرب بالنسبة لها ، وانه لايسع اسرائيل ان تدع نفسها تحت رحمة اسلحة دمار فى حوزة اكثر النظم انحطاطا فى الشرق الأوسط فى الوقت الحاضر .

بل ان رد الفعل الامريكى على صعيد الراى العام لم يكن مفهوما بالنسبة لاسرائيل لماذا تهاجم اجهزة الاعلام الامريكية ، والمقالات الافتتاحية . لمعظم الصحف الامريكية المؤثرة اسرائيل بشدة ؟ هل هى حالة من حالات ســـوء الفهم ؟ ان اسرائيل كانت (جوليات) ، وأن العرب كانوا دواود ؟ أو أن العالم « المسيحى » يتناسى مرة أخرى الوجود اليهـــودى والمخاطر التى تتهـــدده ؟ لقد حدث كل ذلك . لقد أدانت أجهـــزة الاعلام فى الايام الأولى التى أعقبت الغارة ، العمل الاسرائيلى (باستثناء صحيفة وول ستريت جورنال) وتعالت الاصوات فى الكونجرس — وفى ذلك أصدقاء اسرائيل — فى « كوراس » صاخب ضد اسرائيل ، وبلا تمييز .

وفى رد فعل عصبى وصفت صحيفتا « نيويورك تايمز » و « واشنطن بوست » الهجوم الاسرائيلى بانه « حقـــير وجدير بالازدراء » وعمـــل لايمكن تبريره ، وعدوان قصير النظر (٩ يونيو) . واستطردت صحيفة واشنطن بوست الى ماهو ابعد من ذلك قائلة « لقـــــد ارتكب الاسرائيليون بتدميرهم للمفاعل العراقى خطأ جسيما . فقد تصرفوا ، فيما يعتقد ، على نحو معاكس لمصالحهم طويلة الأمد ، وعلى نحو معاكس للمصالح الامريكية كذلك » (٩يونيو) ولقد كانت الحكومة الامريكية تدرك فى الواقع ، تمام الادراك التهديد العراقى وان الغارة الاسرائيلية قد اسهمت فى دعم المصالح الامريكية .

وفى أعقاب الغارة ، ارسل بيجين مذكرة تفسيرية الى ريجان قال فيها : انه اذا كان العراقيون قد قصفوا منطقة تل ابيب بقنبلة نووية ، فان ذلك كان من المتوقع أن يسفر عن مصرع ٦٠ الف اسرائيلى . ولم تنشر هذه الحقيقـــة فى اسرائيل حتى لاتثير الذعر . ولقد قدر الجنرال شارون ان هجوما مماثلا من شأنه ان يسفر عن مصرع ٥٠ الف شخص واصابة ٢٥٠ الف آخرين بالاشعاع النووى . والرئيس ريجان كان متعاطفا مع قلق اسرائيل ومخاوفها . ولكنه واجه — رغم ذلك — ورطة معينة بالنسبة لرد فعله الأولى ازاء الغارة . لقد كان يقر ضرورة ابعاد الولايات المتحدة عن الغارة ، والا تتساهل تجـــاه اسرائيـــل ، الا انـــه كان يرى كذلك مبررا طيبا لعـــدم طرح الموقف الامريكى الأساسى ازاء اسرائيل للمناقشة لقد ادان الغارة ، الا انه لم يفعل اى شئ لتغيير الدور الامريكى المستمر باعتبار الولايات المتحدة الحامية الوحيدة لاسرائيل والمصدر الأجنبى الوحيد لتسليحها . ولقد اكد الرئيس ريجان للسفير الاسرائيلى لدى واشنطن ان الهجوم لن يؤثر على العلاقات الامريكية الاسرائيلية . ولقد صرح السفير بأن الرئيس أكد العلاقة القوية والراسخة مع اسرائيل ، وقال انه لن يسمح بظهور اختلال نوعى فى القوة فى المنطقة » .

وقد كان هناك خلاف كبير داخل الادارة الامريكية بالنسبة لسبل عقاب اسرائيل على الغارة التى شنتها على العراق . وثمة سبب آخر لتفسير ذلك الخلاف وهو انه عندما أعرب الرئيس عن تعاطفه على ضـــــحايا العدوان الاسرائيلى ، شعر المسئولون العاملون معه بالارتباك . ولقد كتب الصحفى المحترم « جورج ويل » يقـــول : ان زعماء اسرائيل الذين كانـــوا يعلمون ان استخدام سلاح نووى واحد ضد تل ابيب سيدمر اسرائيل ، لم يكن فى وسعهم ان يجعلوا أمن اسرائيل يرتكز على تاكيد مسكن بأن أعداءها متخلفون تكنولوجيا ولكنهم متقدمون سياسيا . (واشنطن بوست ، ١٤ يونيو) .

وتساءلت المقالة الافتتاحية فى صحيفة « لوس انجلوس تايمز » هل حالة اسرائيل أمر يمكن تصديقه ؟ واختتمت مقالها قائلة : « ان اسرائيل ستستمر فى اثارة قدر كبير من الغضب العالمى الموجه ضدها ، بسبب ما حدث . ومن

السخرية ان ما قامت به اسرائيل ــ من عمل مخيب للأمال قد يؤدى فى النهاية الى جعل الشرق الأوسط مكانا اكثر امنا لكل الاطراف المعنية . (١١ يونيو)

ولخصت صحيفة (وول ستريت جورنال) حالة الانفصام النفسى الامريكى بقولها :

« منذ الوقت الذى وقعت فيه الغارة ، تصرفت الولايات المتحدة كما لو كان ممكنا ان تتخذ موقفا وسطا ازاء هذه القضية وان نخرج منها دون أن تصاب باى أضرار ، ومن ناحية اعرب الرئيس ريجان عن تعاطفه مع الورطة الاسرائيلية . غير أنه من ناحية اخرى كانت هناك جهود كثيرة تبذل بقصد استمالة الراى العام العربى . وباختصار ، لقد تحولت العملية الى درس آخر فى : كيف يمكننا أن نتصرف بحيث ننجح فى ألا تسوء علاقتنا باسرائيل ، وألا نضعف وضعنا كوسيط موثوق به فى عملية اقرار السلام فى الشرق الاوسط ، وألا تسوء سمعتنا بالنسبة لزعامتنا فى العالم ؟

انها لعبة خاسرة . فلا يوجد سبيل الآن لمعاقبة اسرائيل عقابا يرضى أعداءها دون أن تنال قضمات مخدرة من اسرائيل بينما نظهر لدول الشرق الاوسط الاخرى ما يمكننا أن نفعله لهم فى اطار استراتيجية تبشر بالنجاح فى الوقت نفسه . لقد أثبتت حكومة كارتر هذا بما حققته من فشل ومن نجاح على السواء . ونحن نعتقد أن رجال ريجان قد جاءوا الى السلطة وهم يعرفون ذلك . ومن حسن الحظ أنه لا يزال يوجد بعض الوقت للتعلم . (٧ يونيو) .

لقد فجر الهجوم الاسرائيلى رد فعل عنيفا وقويا فى الولايات المتحدة ، حيث أدانت رسميا الغارة فى ٨ يونيو ١٩٨١ باعتبارها عملا (لا مثيل له من قبل) . وقالت السلطات الامريكية ان استخدام الاسلحة الامريكية فى الغارة قد يكون انتهاكا للقانون الامريكى . ولقد أعدت وزارة الخارجية الامريكية تقريرا صيغ بلغة عنيفة للغاية لم تستخدمها الادارة الامريكية من قبل للاحتجاج ضد عمل اسرائيلى ويتناول التقرير الانتهاك المحتمل للقانون الامريكى بالنسبة لتصدير الاسلحة . ويطالب بعرضه على الكونجرس بسرعة .

ولقد جاء رد فعل الادارة فى أعقاب دعوة عدد من السفراء العرب . كل منهم على حدة ، للولايات المتحدة الى أن تتنصل من الغارة . والواقع أن الولايات المتحدة التى فاجأتها الغارة ، قد جاء رد فعلها متأخرا .

وهكذا كانت الولايات المتحدة تجاهد للتوصل الى وسيلة لمعاقبة اسرائيل لاستخدامها الطائرات الامريكية الصنع فى شن غارتها الجوية ضد العراق ـــ على ألا يؤدى هذا العقاب الى قطع المساعدات الامريكية لها على نحو مؤثر .

وكان المسئولون فى البيت الابيض ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع يجرون مناقشات حامية عما يتعين على الولايات المتحدة أن تفعله .

قال أحد المسئولين فى الخارجية الامريكية انه يوجد خلاف كبير داخل الادارة فى هذا الصدد ، ونحن نحاول الآن عملا يتسم بالاعتدال .

وبينما كان الرئيس ريجان يفكر مليا فى المشكلة ، كان واينبرجر وزير الدفاع يتخذ خطا واضحا . لقد طرح الامر فى ضوء احتمال أن تكون اسرائيل قد ارتكبت انتهاكا جوهريا للقانون الامريكى . وقال انه اذا تبين أن الانتهاك جوهرى فان اسرائيل لن تكون مؤهلة لأن تحصل فى المستقبل على أسلحة من الولايات المتحدة .

وفى ٩ يونيو ، أبلغ الكسندر هيج وزير الخارجية الكونجرس بأنه يحتمل أن تكون اسرائيل قد ارتكبت انتهاكا جسيما لاتفاقات الاسلحة المبرمة بينها وبين الولايات المتحدة باستخدامها الطائرات الامريكية الصنع فى قصف المفاعل . والواقع أنه يحق للرئيس بمقتضى الرقابة على صادرات الاسلحة أن يوقف المساعدات العسكرية اذا تبين ذلك . ثم قال هيج انه بينما كانت الادارة مستمرة فى المحادثات مع اسرائيل وبينما كان الكونجرس يعقد جلسات استماع حول الموضوع ، قرر الرئيس ريجان وقف تزويد اسرائيل فى الوقت الحاضر بأربع طائرات اف ـ ١٦ كان من المقرر أن تتسلمها خلال الاسبوع الحالى .

وكانت استجابة زعماء الكونجرس لاجراء الرئيس هذا ، ايجابية ، فقد انتقد (كلينت زابلوكى) رئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب الامريكى القصف الاسرائيلى للمفاعل ، وقال ان قرار الرئيس كان قرارا حكيما ومدروسا كما أنه ضرورى . وقال السناتور (تشارلز بيرسى) رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الامريكى ـ وهو ليس من أصدقاء اسرائيل ـ أشد عنفا فى تعليقاته . فقد أعلن بأن الغارة قد تقوض الجهود الدبلوماسية التى يبذلها السفير فيليب حبيب (المبعوث الامريكى فى المنطقة) ، وتقلل احتمال اقرار سلام فى الشرق الاوسط على أساس كامب ديفيد . وكان من السهل أن يصدر مثل هذا التصريح من الرياض أو عمان .

غير أن السناتور الجمهورى المحافظ (الفوتو داماتو) كان له رأى مختلف . فقد قال « ان القصف كان عملا شرعيا ، وكان غارة وقائية كان علينا أن نتوقعها » . ووافق على ذلك السناتور الديمقراطى (دانيال موينهان) فقد قال ان الاسرائيليين فعلوا ما كان عليهم أن يفعلوه . واننى أؤيد أى شىء من شأنه محو أية منشأة نووية . وقد أعرب السناتور (آلن كرانستون) وهو أحد الزعماء فى لجنة العلاقات الخارجية ، عن أسفه العميق لقرار تأجيل تسليم اسرائيل طائرات اف ـ ١٦ .

وفى مواجهة هذا المأزق ، وجهت ادارة ريجـان بالفعل تأنيبا محدودا لاسرائيل ، وهو رد فعل محسوب جدا ، يوازن بين قلق اسرائيل ازاء التهديد النووى المحتمل ، وبين صدق الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط ، حينما قررت التحكم فى سياسة مبيعاتها من الاسلحة لاسرائيل غير أن وقف تسليم اسرائيل طائرات اف ـ ١٦ كان قرارا أقل عنفا من قرار معرفة مدى قيمة ومقدار العلاقات العسكرية بين الولايات المتحدة واسرائيل الذى قرره فى أغسطس ١٩٧٥ كل من الرئيس الامريكى الاسبق فورد ووزير خارجيته كيسنجر ، وذلك عندما أوقف اسحق رابين رئيس وزراء اسرائيل مفاوضات فك الاشتباك الثانى من سيناء .

ولقد أوضح المسئولون الامريكيون فى أحاديثهم الخاصة ، أن هـذه المسألة سياسية أكثر منها قانونية وهى مسألة يتعين اجراء مشاورات بشأنها مع الكونجرس . وقال أعضاء الكونجرس ان زعماء الاغلبية فى مجلس النواب يشعرون بتعاطف غريزى وفطرى ازاء محنة اسرائيل .

وكان (واينبرجر) وزير الدفاع يسعى الى عقاب اسرائيل عقـابا عنيفا ورغم ذلك لم تكن واشنطن لتتساهل بوضوح عن مثل هـذا العمل . ولم تكن هناك أية معارضة لوقف تسليم طائرات اف ـ ١٦ لاسرائيل ورغم ذلك كان المسئولون عن الامن القومى الامريكى يعربون فى أحاديثهم الخاصة عن اعجابهم بجسـارة وكفاءة الغـارة الجوية الاسرائيلية على حليف للاتحاد السوفيتى .

ولقـد هاجم بيجين شخصيا واينبرجر وزير الدفاع بسبب موقفه ازاء اسرائيل . والواقع أنه هاجم كلا من مستر واينبرجر وشيمون بيريز لدعايتهما المتعمدة الزائفة ضده وضد الدوافع الحقيقية وراء شن اسرائيل للغارة واتهم واينبرجر بمحاولة اقناع ريجان بخفض المساعدات العسكرية والاقتصـادية الامريكية لاسرائيل . وقد رد واينبرجر بقوله انه اتهام خاطىء .

ولقد تجادل الكثيرون سواء داخل اسرائيل أو فى غيرها من البلاد حول ان الخطأ الاكبر الذى ارتكبته حكومة بيجين لم يكن قرار شن الغارة . وانما الاعتراف بذلك . فلو أن اسرائيل لم تحـدد هوية الغـارة وتركتها تتسم بالغموض ، لكانت قد تجنبت الضـجة الحتمية التى تعالت فى أعقاب الغارة . ولكانت قد تجنبت ارباك الحكومة الامريكية التى تحاول تحسين علاقاتها مع العالم العربى .

وفى ١١ يونيو ، اجتمع ريجان مع مسئولين عرب واسرائيليين ، كل على حدة ، لتهدئة أزمة الشرق الاوسط ، ومع ذلك تراجع الرئيس عما أعلنه ، كما أكد للاسرائيليين أنه لن يجرى أى اعادة جوهرية لمعرفة مقدار ومدى

الأوسط . غير ان هذه الفكرة الاستراتيجية تعتبر فكرة غـير واقعية طالما ان الدول العربية المعتدلة ، مثل السـعودية والاردن ، تؤيد ، بل تتحالف فى الواقع مع العرب الرافضين مثل العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية .

وطالما ان جبهة الرفض العـربية تحصل على ما يلزمها من الاموال من شيوخ شبه الجزيرة العربية ، وأن الجيش العراقى يزود بالاسلحة السوفيتية فان ثمة فرصا ضئيلة لتكوين جبهة عربية اسرائيلية مشتركة ضد السوفييت. والواقع ان الاجمـاع الاستراتيجى قد طـرح كبديل للتـوازن الاستراتيجى ، وهى الصيغة الامريكية الخاصة بالشرق الأوسط طوال العقود الأربعة الماضية . ذلك أن الاعتبارات الاستراتيجية كانت تستند ، فى الماضى ، على أن تكون نسبة القوة العسكرية العـربية الاسرائيلية ١ الى ٣ ، وأن كلا من الولايات المتحدة واسرائيل كانتا تسعيان للحفاظ على هـذا التوازن . وكان هـذا التوازن يستند فى ذلك الوقت على قدرة الدول ، لا على طموحاتها وتطلعاتها .

ومن ثم ، سيغير المفهوم الجـديد ، فى الواقع ، التوازن العسـكرى فى الشرق الاوسط لصالح الدول العربية . ذلك أنه بمقتضى مبدأ الاجماع الاستراتيجى لن تكون الولايات المتحـدة فى حاجة الى الاجمـاع من الناحية العملية على أن تزود الشرق الاوسط والخليج بالاسلحة بدون أية حدود ، ويكون ذلك خاضعا فقط لنزوات كل دولة .

وبهذا يمكن للاجماع الاستراتيجى أن يصبح ترسانة عسكرية حتى ان الولايات المتحدة ، بالرغم من تواجدها فى مركز القيادة والمراقبة قد تجده يوما وقد أصبح جحيما ثوريا يسيطر عليـه قذافى سعودى أو ما هو أسوأ خومينى سنى سعودى . ذلك أن السـعودية تعتبر دولة ضعيفة . وبعض المحللين فى المخابرات المركزية الامريكية تساورهم الشكوك فى كون الأسرة الحاكمة السعودية ستستمر حتى نهاية الثمانينيات .

ولقد كان خطأ الاجماع الاستراتيجى يثير الاسرائيليين ويستفزهم بأكثر مما يستفز أقرانهم الامريكيين . ذلك أن العرب يعتبرون اسرائيل لا الاتحـاد السوفيتى ، عدوهم الاساسى ، ولعل أفضل بيان عن الوضع الامريكى هو ذلك الذى أدلى به جيمس شليزنجر وزير الدفاع الامريكى السابق ، وقد قال فيه :

« ان منهاج الادارة يركز على التهديد السـوفيتى والسعى الى تحقيق اجماع استراتيجى يصل فى النهاية الى عمل جماعى من جانب دول المنطقة بالنسبة لتحسين قدرتها على الردع العسكرى ضد التدخل السوفيتى . وعلى حين أن مثل هذه النتيجة سوف ترضى الى حد كبير الكثيرين منا ، الا أنه من قبيل الاستغراق فى الذات الامريكية أن تفترض أن دول المنطقة سوف تتخلى عن همومها المباشرة وتحتضن همومنا . ذلك أن كلا من اسرائيل وجيرانها العرب ، يساورهم القلق بشأن النوايا والاعمال التى من شأنها أن تشكل خطرا راهنا وواضحا بالنسبة لبعضهم . والتى لا يمكنهم ببساطة نسيانها

وتبنى قلقنا الذى يتمثل فى احتمال التهديد السوفيتى للمنطقة . ولذلك ، ينبغى التخلى عن أى أمل فى أن يتركز الاهتمام الاقليمى نحو الشمال ، فى ظل غياب معالجة فعالة متزامنة للتوترات الداخلية فى المنطقة . والواقع أن الغارة الاسرائيلية على المفاعل العراقى تعنى نهاية هذا الاتجاه الخاص فى أولويات السياسة الامريكية ، لأنها زادت من هذه المخاوف الخاصة بشأن الصراعات الداخلية التى لم يتم التوصل لحل لها بعد ، بينما تثير شكوكا متزايدة حول فعالية الدور الامريكى فى المنطقة .

وفيما يتعلق بهذه التوترات الاقليمية ، نجد أن الولايات المتحدة ربما فضلت أن تتجنب اتخاذ قرار بشأنها ، كسبا للوقت . ولكنه لم يعد فى وسعها ذلك بعد . فقد جعلت الغارة هذه التوترات أمرا رئيسيا ، وكشفت عجز الولايات المتحدة عن انجاز دورها المتوقع بشأن ضمان كبح الجماح الاسرائيلى . وعلى الولايات المتحدة أن تختار الآن . فمن ناحية ، قد تتغاضى صراحة عن الغارة بالاستمرار فى تزويد اسرائيل بالاسلحة . غير أن النتيجة الحتمية لذلك هى تحقيق مزيد من الخلاف بين الولايات المتحدة والكثير من دول العالم العربى . ومن ناحية أخرى ، سيثير وقف شحنات الاسلحة لاسرائيل تلقائيا مشكلة عمق الالتزام الامريكى بضمان أمن اسرائيل . ولقد كان فرصة هذا الاختيار على الولايات المتحدة ملائما للصالح الإسرائيلى .

ذلك أن ادانة الهجوم — وفى ذلك استخدام اسرائيل للأسلحة الامريكية على نحو مخالف للقانون الأمريكى — يقتضى منطق اعطاء الأولوية للسياسات المناهضة للانتشار النووى بدرجة اكبر مما تعطيها الادارة الأمريكية حتى الآن . وربما يجد (السناتور آلان كرانستون) وآخرون غيره ان الغارة الاسرائيلية لها ما يبررها فى ضوء اصرارهم منذ امد طويل على منع الأسلحة النووية . وهكذا كان يمكن لحكومة كارتر لسياستها المعلنة — وان كانت غير فعالة — بشأن منع الانتشار النووى . ولكن ادارة ريجان تعتبر حتى الآن ، غير مهتمة ، أو قدرية ، بشأن انتشار الاسلحة النووية ، ويبدو هذا بوضوح فى مساعدتها العسكرية لباكستان . ومن ثم ، اذا ما بادرت الادارة بادانة الغارة ، فانها ستجد ان من الصعب عليها بعد ذلك التغاضى عنها على اساس أهداف منع الانتشار النووى التى لا توليها أى اهتمام حتى الآن . واذا ما تدفقت الأسلحة على اسرائيل بالرغم من القانون الأمريكى ، فسوف يزداد عدم الثقة فى الدوافع الأمريكية وفى دورها كوسيط أمين فى حل الخلافات العربية الاسرائيلية .

ولما كانت القوة الخاصة باسرائيل محدودة تماما ، فان جهدها الفردى لمنع انتشار الأسلحة النووية فى المنطقة سوف يثبت انه امر عابر .
ذلك ان موضوعا تتفق عليه الدول العظمى — بالرغم من أن قدرتها محدودة بالنسبة للتصدى لمشاكله — من المؤكد ، والامر كذلك ، أن يتجاوزهذا

الموضوع قدرة اسرائيل المحدودة جدا . بل ان عمل اسرائيل قد يعزز تصميم العرب على الحصول على أسلحة نووية . وما هو اكثر اهمية ، أنه يتعين ان تتذكر ان الحركة الأولية نحو انتاج « قنبلة اسلامية » وطلب الدعم لهذا المشروع قد جاءت من جانب باكستان ابان حكم الرئيس ذو الفقار على بوتو فى منتصف السبعينيات . وعلى الرغم من بلاغة بيجين الاستفزازية تقع باكستان فى مكان لا تستطيع الطائرات الاسرائيلية ان تبلغه ، كما انها ، فضلا عن ذلك ، تستظل بالحماية الأمريكية .

وهكذا ، فان قدرة اسرائيل تعد محدودة جدا بالنسبة لمنع انتشار الأسلحة النووية فى المنطقة . ولعل افضل ما يمكن ان نرجو من جراء هذه الغارة التى كان التفكير فيها أمرا سيئا بالرغم من أن تنفيذها كان بارعا هو ان تركز الاهتمام الدولى مرة اخرى على مشكلة الانتشار النووى . غير انها ستفعل ذلك فى مناخ دولى يتدهور تدهورا بالغا .

(جيمس شليزنجر ، صحيفة « واشنطن
بوست » الأمريكية ، ١٢ يونيو ١٩٨١)

ان من الحماقة الزعم بان اسرائيل تعتبر بمثابة حامية ضد الاتحاد السوفيتى . ذلك ان حرب ١٩٧٣ لم تثبت ذلك . فلقد هبتامريكا فى الواقع ، وليس اسرائيل ، الى مساعدة ما يسمى « المدافع » الاسرائيلى المناهض للشيوعية . ولهذا ، لا يعتبر الاجماع الاستراتيجى سياسة بل هو كارثة . اذ أنه توجد سبل أخرى للتوصل الى تقارب اسرائيلى — سعودى . والواقع ان الاساس الوحيد الذى يمكن ان تقام عليه سياسة خاصة بالشرق الأوسط هو عملية كامب ديفيد ، وانه يمكن ان ينضج فى النهاية فى اطار هذه العملية استراتيجية أمريكية اسرائيلية عربية .

ولقد كانت الولايات المتحدة اعتبارا من الستينيات متحمسة على نحو يتصف بالشهرة السيئة ، بانتشار الأسلحة النووية عندما كان انتاج هذه الأسلحة النووية فى بدايته ، ثم انضمت الى العملية دول العالم الثالث الصغرى — الهند وباكستان وتايوان وجنوب افريقيا والعراق واسرائيل وليبيا ، وربما دول أخرى . ولقد وضعت الولايات المتحدة أخيرا قاعدة قانونية دولية هى معاهدة حظر انتشار الاسلحة النووية ، التى وقعت عليها معظم دول العالم الثالث وغيرها من الدول الصغرى غير ان اسرائيل والهند لم توقعا عليها .

ومع ذلك ، ليست معاهدة حظر الانتشار النووى اداة قوية تكفى لمنع الانتشار النووى . وليس ادل على ذلك من ان العراق وهى احدى الدول التى وقعت على المعاهدة — ماضية فى عملية خلق قدرة نووية خاصة بها . ولقد اصبحت معاهدة حظر الانتشار النووى ايديولوجية أمريكية ليبرالية

وكـذا وسيلة لضمان الا يتسع نطاق النـادى النووى الدولى . والواقع ان المنظمة الدولية للطاقة الذرية — هى احدى الوكالات التى انشأتها الأمم المتحدة لرصـد الانتشار النووى – تعتبر هيئة ذات صبغة سياسية الى حد كبير . ومن الواضح ، حتى اذا ما اخذنا حالة العراق مثلا — ان العـراق لا تسمح لاحـد باجـراء تفتيش على مفـاعلها النـووى الا ممثلى الدول التى ترى ان علاقاتها بهـا ودية .

وهكذا ، كان اتفاق المنظمة الدولية للطاقة الذرية امرا واضحا : لمـاذا لم تسحب اوراق اعتماد الهند فى عضويتهـا ، بالرغم من انه من المحتمل ان تطرد اسرائيل من عضويتها ، على حين أن الهند تعد الآن دولة أقوى من اسرائيل نوويا . وذلك السحب لاوراق الاعتماد ، والطرد من المنظمة هو من وجهة نظر المجتمع الدولى وخاصة الولايات المتحدة . ولقد كانت الولايات المتحدة تقوم بعد ١٩٦٠ بزيارات مستمرة لديمونا حيث يوجد المفاعل الاسرائيلى ، الا ان هذه الزيارات قد توقفت منذ تولت ادارة ريجان السلطة . ولقد كانت ادارة كارتر بصفة خاصة ، لا تشعر بارتياح لعدم امتثال اسرائيل لمعاهدة حظر الانتشار النووى . بيد أن الضغوط على اسرائيل فى هذا المجال كانت تتغير تبعا لتوجيهات الادارات الامريكية المتعاقبة . ومن المؤكد ان الولايات المتحدة كانت تشـعر بالقلق ازاء المفاعل العـــراقى ، وليس ادل على ذلك من ان ادارة كارتر قد ضغطت على فرنسا حتى لايستخدم الفرنسيون اليورانيوم المخصب الامريكى فى المعامل الفرنسية .

وهكذا ، كان رد الفعل الامريكى المفاجىء والغاضب ، بالرغم من انه كان متوقعا فى اسرائيل — كان يثير القلق . وخاصة عندما تشعر اسرائيل بان الولايات المتحدة قد اخفقت فى فهم مايثير قلقها ، وان وجود اسلحة نـــووية فى أيدى حكام دكتاتوريين متعصبين وارهابيين يلتزمون بابادة اسرائيل يعد سببا يبرر الحرب بالنسبة لها ، وانه لايسع اسرائيل ان تدع نفسها تحت رحمة اسلحة دمار فى حوزة اكثر النظم انحطاطا فى الشرق الاوسط فى الوقت الحاضر .

بل ان رد الفعل الامريكى على صعيد الراى العام لم يكن مفهوما بالنسبة لاسرائيل لماذا تهاجم اجهزة الاعلام الامريكية ، والمقالات الافتتاحية . لمعظم الصحف الامريكية المؤثرة اسرائيل بشدة ؟ هل هى حالة من حالات ســـوء الفهم ؟ ان اسرائيل كانت (جوليات) ، وأن العرب كانوا دواود ؟ أو أن العالم « المسيحى » يتناسى مرة أخرى الوجود اليهـودى والمخاطر التى تتهـدده ؟ لقد حدث كل ذلك . لقد ادانت أجهـزة الاعلام فى الايام الأولى التى أعقبت الغارة ، العمل الاسرائيلى (باستثناء صحيفة وول ستريت جورنال) وتعالت الاصوات فى الكونجرس — وفى ذلك اصدقاء اسرائيل — فى « كوراس » صاخب ضد اسرائيل ، وبلا تمييز .

وفى رد فعل عصبى وصفت صحيفتا « نيويورك تايمز » و « واشنطن بوست » الهجوم الاسرائيلى بانه « حقـير وجدير بالازدراء » وعمـل لايمكن تبريره ، وعدوان قصير النظر (٩ يونيو) . واستطردت صحيفة واشنطن بوست الى ماهو أبعد من ذلك قائلة « لقـــد ارتكب الاسرائيليون بتدميرهم للمفاعل العراقى خطأ جسيما . فقد تصرفوا ، فيما يعتقد ، على نحو معاكس لصالحهم طويلة الأمد ، وعلى نحو معاكس للمصالح الامريكية كذلك » (٩يونيو) ولقد كانت الحكومة الامريكية تدرك فى الواقع ، تمام الادراك التهديد العراقى وان الغارة الاسرائيلية قد اسهمت فى دعم المصالح الامريكية .

وفى أعقاب الغارة ، ارسل بيجين مذكرة تفسيرية الى ريجان قال فيها : انه اذا كان العراقيون قد قصفوا منطقة تل ابيب بقنبلة نووية ، فان ذلك كان من المتوقع ان يسفر عن مصرع ٦٠ الف اسرائيلى . ولم تنشر هذه الحقيقــة فى اسرائيل حتى لاتثير الذعر . ولقد قدر الجنرال شارون أن هجوما مماثلا من شانه ان يسفر عن مصرع ٥٠ الف شخص واصابة ٢٥٠ الف آخرين بالاشعاع النووى . والرئيس ريجان كان متعاطفا مع قلق اسرائيل ومخاوفها . ولكنه واجه — رغم ذلك — ورطة معينة بالنسبة لرد فعله الأولى ازاء الغارة . لقد كان يقر ضرورة ابعاد الولايات المتحدة عن الغارة ، والا تتساهل تجـاه اسرائيـل ، الا انــه كان يرى كذلك مبررا طيبا لعـدم طرح الموقف الامريكى الأساسى ازاء اسرائيل للمناقشة لقد ادان الغارة ، الا انه لم يفعل اى شىء لتغيير الدور الامريكى المستمر باعتبار الولايات المتحدة الحامية الوحيدة لاسرائيل والمصدر الأجنبى الوحيد لتسليحها . ولقد اكد الرئيس ريجان للسفير الاسرائيلى لدى واشنطن أن الهجوم لن يؤثر على العلاقات الامريكية الاسرائيلية . ولقد صرح السفير بأن الرئيس أكد العلاقة القوية والراسخة مع اسرائيل ، وقال انه لن يسمح بظهور اختلال نوعى فى القوة فى المنطقة » .

وقد كان هناك خلاف كبير داخل الادارة الامريكية بالنسبة لسبل عقاب اسرائيل على الغارة التى شنتها على العراق . وثمة سبب آخر لتفسير ذلك الخلاف وهو انه عندما أعرب الرئيس عن تعاطفه على ضـــحايا العدوان الاسرائيلى ، شعر المسئولون العاملون معه بالارتباك . ولقد كتب الصحفى المحترم « جورج ويل » يقــول : ان زعماء اسرائيل الذين كانــوا يعلمون ان استخدام سلاح نووى واحد ضد تل ابيب سيدمر اسرائيل ، لم يكن فى وسعهم ان يجعلوا امن اسرائيل يرتكز على تاكيد مسكن بأن اعداءها متخلفون تكنولوجيا ولكنهم متقدمون سياسيا . (واشنطن بوست ، ١٤ يونيو) .

وتساءلت المقالة الافتتاحية فى صحيفة « لوس انجلوس تايمز » هل حالة اسرائيل امر يمكن تصديقه ؟ واختتمت مقالها قائلة : « ان اسرائيل ستستمر فى اثارة قدر كبير من الغضب العالمى الموجه ضدها ، بسبب ما حدث . ومن

السخرية أن ما قامت به اسرائيل ــ من عمل مخيب للآمال قد يؤدى فى النهاية الى جعل الشرق الأوسط مكانا اكثر امنا لكل الاطراف المعنية . (١١ يونيو)

ولخصت صحيفة (وول ستريت جورنال) حــالة الانفصــام النفسى الامريكى بقولها :

« منذ الوقت الذى وقعت فيــه الغارة ، تصرفت الولايات المتحــدة كما لو كان ممكنا ان تتخــذ موقفا وســطا ازاء هــذه القضية وان نخرج منها دون أن تصاب بأى أضرار ، ومن ناحية اعرب الرئيس ريجان عن تعاطفه مع الورطة الاسرائيلية . غير انه من ناحية أخرى كانت هناك جهود كثيرة تبذل بقصد استمالة الرأى العام العربى . وباختصار ، لقــد تحولت العملية الى درس آخــر فى : كيف يمكننا أن نتصرف بحيث ننجح فى ألا تســوء علاقتنا باسرائيل ، والا نضعف وضعنا كوسيط موثوق به فى عملية اقرار الســلام فى الشرق الاوسط ، والا تسوء سمعتنا بالنسبة لزعامتنا فى العالم ؟

انها لعبة خاسرة . فلا يوجد سبيل الآن لمعاقبة اسرائيل عقــابا يرضى أعداءها دون أن تنال قضمات مخدرة من اسرائيل بينما نظهر لدول الشرق الاوسط الاخرى ما يمكننا ان نفعله لهم فى اطار استراتيجية تبشر بالنجــاح فى الوقت نفسه . لقــد أثبتت حكومة كارتر هذا بما حققته من فشل ومن نجاح على السواء . ونحن نعتقد أن رجال ريجان قد جاءوا الى الســلطة وهم يعرفون ذلك . ومن حسن الحظ أنه لا يزال يوجــد بعض الوقت للتعلم . (٧ يونيو) .

لقد فجر الهجوم الاسرائيلى رد فعل عنيفا وقويا فى الولايات المتحدة ، حيث أدانت رسميا الغارة فى ٨ يونيو ١٩٨١ باعتبــارها عملا (لا مثيل له من قبل) . وقالت السلطات الامريكية ان استخدام الاســلحة الامريكية فى الغارة قد يكون انتهاكا للقــانون الامريكى . ولقد أعــدت وزارة الخارجية الامريكية تقريرا صيغ بلغة عنيفة للغاية لم تستخدمها الادارة الامريكية من قبل للاحتجاج ضد عمل اسرائيلى ويتناول التقرير الانتهاك المحتمل للقــانون الامريكى بالنسبة لتصــدير الاســلحة . ويطــالب بعرضه على الكونجرس بسرعة .

ولقد جاء رد فعل الادارة فى أعقاب دعوة عدد من الســفراء العرب . كل منهم على حدة ، للولايات المتحدة الى أن تتنصل من الغارة . والواقع أن الولايات المتحدة التى فاجأتها الغارة ، قد جاء رد فعلها متأخرا .

وهكذا كانت الولايات المتحدة تجاهد للتوصل الى وسيلة لمعاقبة اسرائيل لاستخدامها الطائرات الامريكية الصنع فى شن غارتها الجوية ضد العراق ــ على ألا يؤدى هذا العقاب الى قطع المساعدات الامريكية لها على نحو مؤثر .

وكان المســئولون فى البيت الابيض ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع يجرون مناقشات حامية عما يتعين على الولايات المتحدة أن تفعله .

قال أحد المسئولين فى الخارجية الامريكية انه يوجد خلاف كبير داخل الادارة فى هذا الصدد ، ونحن نحاول الآن عملا يتسم بالاعتدال .

وبينما كان الرئيس ريجان يفكر مليا فى المشكلة ، كان واينبرجر وزير قد ارتكبت انتهاكا جوهريا للقانون الامريكى . وقال انه اذا تبين أن الانتهاك جوهرى فان اسرائيل لن تكون مؤهلة لأن تحصل فى المستقبل على أســلحة الدفاع يتخذ خطا واضحا . لقد طرح الامر فى ضوء احتمال أن تكون اسرائيل من الولايات المتحدة .

وفى ٩ يونيــو ، أبلغ الكسندر هيج وزير الخــارجية الكونجرس بأنه يحتمل أن تكون اسرائيل قد ارتكبت انتهاكا جسيما لاتفاقات الاسلحة المبرمة بينها وبين الولايات المتحدة باستخدامها الطائرات الامريكية الصنع فى قصف المفاعل . والواقع أنه يحق للرئيس بمقتضى الرقابة على صادرات الاســلحة أن يوقف المساعدات العسكرية اذا تبين ذلك . ثم قال هيج انه بينما كانت الادارة مستمرة فى المحــادثات مع اسرائيل وبينما كان الكونجرس يعقــد جلسات استماع حول الموضوع ، قرر الرئيس ريجــان وقف تزويد اسرائيل فى الوقت الحاضر باربع طائرات اف ــ ١٦ كان من المقرر أن تتسلمها خــلال الاسبوع الحالى .

وكانت استجابة زعماء الكونجرس لاجراء الرئيس هــذا ، ايجابية ، فقد انتقد (كلينت زابلوكى) رئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب الامريكى القصف الاسرائيلى للمفــاعل ، وقال ان قرار الرئيس كان قرارا حكيما ومدروسا كما أنه ضرورى . وقال السناتور (تشارلز بيرسى) رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الامريكى ــ وهو ليس من أصدقاء اسرائيل ــ أشد عنفا فى تعيقاته . فقد أعلن بأن الغارة قد تقوض الجهود الدبلوماسية التى يبذلها السفير فيليب حبيب (المبعوث الامريكى فى المنطقة) ، وتقلل احتمال اقرار ســلام فى الشرق الاوسط على أساس كامب ديفيد . وكان من السهل أن يصدر مثل هذا التصريح من الرياض أو عمان .

غير أن السناتور الجمهورى المحــافظ (الفونو داماتو) كان له رأى مختلف . فقــد قال « ان القصف كان عملا شرعيا ، وكان غارة وقائية كان علينا أن نتوقعها » . ووافق على ذلك السناتور الديمقراطى (دانيال موينهان) فقــد قال ان الاسرائيليين فعلوا ما كان عليهم أن يفعلوه . واننى أؤيد أى شئ من شأنه محو أية منشأة نووية . وقد أعرب السناتور (آلن كرانستون) وهو أحد الزعماء فى لجنة العلاقات الخارجية ، عن أسفه العميق لقرار تأجيل تسليم اسرائيل طائرات اف ــ ١٦ .

وفى مواجهة هذا المازق ، وجهت ادارة ريجان بالفعل تأنيبا محدودا لاسرائيل ، وهو رد فعل محسوب جدا ، يوازن بين قلق اسرائيل ازاء التهديد النووى المحتمل ، وبين صدق الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط ، حينما قررت التحكم فى سياسة مبيعاتها من الاسلحة لاسرائيل غير أن وقف تسليم اسرائيل طائرات اف ـ ١٦ كان قرارا أقل عنفا من قرار معرفة مدى قيمة ومقدار العلاقات العسكرية بين الولايات المتحدة واسرائيل الذى قرره فى أغسطس ١٩٧٥ كل من الرئيس الامريكى الاسبق فورد ووزير خارجيته كيسنجر ، وذلك عندما أوقف اسحق رابين رئيس وزراء اسرائيل مفاوضات فك الاشتباك الثانى من سيناء .

ولقد أوضح المسئولون الامريكيون فى أحاديثهم الخاصة ، ان هذه المسألة سياسية أكثر منها قانونية وهى مسألة يتعين اجراء مشاورات بشأنها مع الكونجرس . وقال أعضاء الكونجرس ان زعماء الاغلبية فى مجلس النواب يشعرون بتعاطف غريزى وفطرى ازاء محنة اسرائيل .

وكان (واينبرجر) وزير الدفاع يسعى الى عقاب اسرائيل عقابا عنيفا ورغم ذلك لم تكن واشنطن لتتساهل بوضوح عن مثل هذا العمل . ولم تكن هناك أية معارضة لوقف تسليم طائرات اف ـ ١٦ لاسرائيل ورغم ذلك كان المسئولون عن الامن القومى الامريكى يعربون فى أحاديثهم الخاصة عن اعجابهم بجسارة وكفاءة الغارة الجوية الاسرائيلية على حليف للاتحاد السوفيتى .

ولقد هاجم بيجين شخصيا واينبرجر وزير الدفاع بسبب موقفه ازاء اسرائيل . والواقع انه هاجم كلا من مستر واينبرجر وشيمون بيريز لدعايتهما المتعمدة الزائفة ضده وضد الدوافع الحقيقية وراء شن اسرائيل للغارة واتهم واينبرجر بمحاولة اقناع ريجان بخفض المساعدات العسكرية والاقتصادية الامريكية لاسرائيل . وقد رد واينبرجر بقوله انه اتهام خاطىء .

ولقد تجادل الكثيرون سواء داخل اسرائيل أو فى غيرها من البلاد حول ان الخطأ الاكبر الذى ارتكبته حكومة بيجين لم يكن قرار شن الغارة . وانما الاعتراف بذلك . فلو أن اسرائيل لم تحدد هوية الغارة وتركتها تتسم بالغموض ، لكانت قد تجنبت الضجة الحتمية التى تعالت فى أعقاب الغارة . ولكانت قد تجنبت ارباك الحكومة الامريكية التى تحاول تحسين علاقاتها مع العالم العربى .

وفى ١١ يونيو ، اجتمع ريجان مع مسئولين عرب واسرائيليين ، كل على حدة ، لتهدئة أزمة الشرق الاوسط ، ومع ذلك تراجع الرئيس عما أعلنه ، كما أكد للاسرائيليين انه لن يجرى أى اعادة جوهرية لمعرفة مقدار ومدى

العلاقة القائمة مع أمريكا . وأكد العلاقة القوية والراسخة مع اسرائيل ـ وعلى الرغم من مطالب السفراء العرب بأن تتخذ الولايات المتحدة اجراءات عنيفة ضد اسرائيل ، لم يتزحزح الرئيس عن موقفه .

وفى ٢٢ يونيو ، توقع الاسرائيليون أن تستأنف الولايات المتحدة قريبا شحن الطائرات اف ـ ١٦ لاسرائيل وهذا يعنى ضم الطائرات الاربع من طراز اف ـ ١٦ التى تأجل تسليمها فى ١٠ يونيو مع الدفعة التالية من هذه الطائرات التى كانت اسرائيل قد طلبتها من أمريكا . ومع ذلك ، تغير كل شىء فى ٢٣ يونيو عندما قصفت اسرائيل مقر منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت . فقد تأجل تسليم طلب طائرات اف ـ ١٦ ولم يرفع الحظر عنها الا فى ١٧ أغسطس وفى أول سبتمبر تقرر تسليم الطائرات الاربع من اف ـ ١٦ لاسرائيل .

ومن السخرية ، أنه فى ١١ أغسطس ، أصدرت وزارة الخارجية الاسرائيلية بيانا وصفت فيه الاجراء الامريكى بأنه غير عادل ومدمر وخرقا للعقد المبرم بين البلدين ، وفى هذا الوقت زار الرئيس السادات واشنطن ليوقع على صفقة أسلحة أمريكية لمصر (تتضمن دبابات وصواريخ) . وقالت الادارة الامريكية ان هذه الصفقة ضرورية للحفاظ على التوازن فى الشرق الاوسط .

٢٤ — راى اســـــرائيل

اتخـذ مجلس الوزراء الاسرائيلى فى اكتـوبر ١٩٨٠ قرار تدمير المفاعل النووى بعد مناقشة عاصفة وان لم تكن خطيرة وذلك بعد ان ارغمت الاقلية على الموافقة على اتخاذ القرار . ولم تنشر الصحف سوى لمحات من هذه المناقشة التى اقتصرت على الخبراء والهيكل الادنى من العاملين فى جهاز الامن . وقد تركزت المناقشة على توقيت الغارة وهو الامر الذى يرتبط بتطور مشروع تموز الذى كانت اجهزة اسرائيل ترصده عن كثب بقدر ما تستطيع . ولقد كان كل أعضاء اللجنة الوزارية الخاصة بالامن ، التابعـة لمجلس الوزراء ، التى تضم الحمائم التقليدية (يجال يادين) و (يوسف بورج) و (سـميحا ايرلينج) يؤيدون العمل ضد التسلح النووى العراقى . غير انه لم يكن هنـاك اجماع داخل هذه الجماعة بالنسبة لتوقيت الغارة او افضل اسلوب لتدمير المفاعل .

ولم تكن ثمة معارضة كثيرة ضد تدمير المفاعل — فلقد كان المعارضون يخشون فحسب ، الآثار السياسية التى يمكن توقعها فى حالة نجـاح الغـارة او فشـلها ، ومن هـذه الآثار احتمال نشـوب ازمة فى العـلاقات الأمريكية الاسرائيلية ، واضعاف نفوذ السادات فى العالم العربى ، واخماد أحلام العرب بشأن الوحدة فيما بينهم ، ورد الفعـل العراقى الذى قـد يستمر ويسرع فى الامكانيات النووية ، وفوق ذلك كله الآثار الخطيرة التى يمكن أن يسفر عنهـا فشل العمليـة .

والواقع ان المناقشة العاجلة التى جرت فى اكتوبر ١٩٨٠ لابد من النظر اليها فى ضوء الجدل الذى كان يجرى فى اسرائيل على امتداد ما يزيد على عشر سنوات . ذلك أن مناقشة السياسة النووية قد بدأت عندما بدأ تشغيل المفاعل الاسرائيلى فى وقت ما من عام ١٩٦٨ . وعندئذ ظهرت مدرستان للتفكير . فقـد كانت الصقور ذات النظرة الاستراتيجية تسعى الى ان تحقق اسرائيل احتكارا وتفوقا نوويا فى الشرق الاوسط (وهى مدرسة التفكير الذى انتصر بوضوح) . وكانوا ينادون بانتهاج نظرية الرد المرن . ويعتقـدون ان الاحتكار النـووى الاسرائيلى وتفوق اسرائيل سيؤدى فى النهاية الى حل النزاع العربى الاسرائيلى تبعا لشروط اسرائيل .

أما الحمائم الذين ينتمون عادة لحزب العمل أو اليسار فكانوا لا يرون أى مبرر لتأجيل الانتشار النووى — اى تطوير الامكانيات النووية فى الدول الأخرى فى الشرق الاوسط . وكانوا يرون أنه لا يمكن لاسرائيل أن تحتفظ بتفوقها العسكرى التقليدى لمدة طويلة ، ذلك ان العرب بحلول عام ١٩٨٥ سيتفوقون على اسرائيل من حيث العدد والمعدات العسكرية بنسبة خمسة الى واحد . وكانوا يتطلعون الى مستقبل تصبح فيه الحدود والأراضى غير ذات أهمية ذلك ان التفـوق التكنولوجى الاسرائيلى سـيكون كافيا لضمان الوجـود الاسرائيلى فى مواجهـة العـرب .

وفى اطار تبرير بيجين للهجـوم على المفـاعل العـراقى ، كان يرى ان اسرائيل هى الدولة المستقرة و (العقلانية) فى الشرق الأوسط ولا يمكنها ان تسمح لدولة غير مستقرة مثـل العراق بأن يكون لديها امكانية نووية . وكان موقف الصقور فى هذا الصدد هو ان الردع لن يعد سلاحا سياسيا . ذلك ان التماثل فى التوازن النووى فى الشرق الأوسط يمكن أن يكون فعالا فقط بالنسبة للجانب العاقل والمستقر . وباختصار ، كان الصقور يفضلون الوضع الثـابت للاحتكار النووى الاسرائيلى فى مواجهة الوضع المرن للحمائم .

ولقد كان شيمون بيريز زعيم حزب العمل ، وخصم بيجين فى الانتخابات القادمة ، ينتقد الغارة بشدة . وقد اتهم بيجين بأنه لم تكن هناك ثمة ضرورة لقصف المفاعل، وانه كان يمكن لاسرائيل ان تنتظر فى الواقع خمس سنوات قبل ان تفعـل ذلك . هـذا على الرغم من أن بيريز كان يرى ان الرئيس العراقى صدام حسين يعد شخصا غير مسئول . وكان بيريز يرى ان الضغوط الدولية ، ويقصد بها علاقته الوثيقـة مع الرئيس الفرنسى الاشتراكى فرانسوا ميتران ، يمكن ان تمحو على نحو ما المفاعل العراقى بالطريق الدبلوماسى .

وفى نوفمبر ١٩٨٠ ، اجتمع بيريز مع ميتران (الذى كان مرشحا للرئاسة للرئاسة الفرنسية آنذاك) وقـد اكد (ميتران) له ان فرنسا فى ظل حكمه ، لن تزود العراق باليورانيوم . وفى سبتمبر ، أبلغ بيجين بيريز انه يعتزم قصف المفاعل العراقى . ثم اجتمع بيريز فى يناير مرة أخرى مع مسـتر ميتران الذى كرر له وعده . وفى ١٠ مايو بعث بيريز برسالة سرية الى بيجين اعلن فيهـا معارضته للغارة المقترحة ، وحث بيجين على أن ينتظر الى ما بعد الانتخابات الفرنسية حتى يمكن لعلاقة بيريز بميتران أن تحقق الفائدة المرجوة منها .

وعندما وقعت الغارة فى النهاية . دب الانقسام فى حزب العمل واعترته الحيرة ازاء ما يمكن أن يكون عليه رد فعله . وقـد دعا بيريز الى أن يعترض الحزب على الغارة ووصفها بانها عمل سياسى بهلوانى . وكان يؤيده فى موقفه (موتا جور) رئيس الأركان الاسرائيلى السابق الذى قال ان الغـارة عمل غير مسئول ولا ضرورة له ، وحاييم هيرتزوج الذى قال انه ربما لم يكن فى وسع العراقيين انتاج أسلحة ذرية قبل عام ١٩٨٥ . ولقد حاول حزب العمل باصرار — وان كان على نحو غير بارع — ان يلصق ببيجين انه قـرر شن الغـارة لدوافع سياسية .

ومع ذلك ، زادت شعبية بيجين فى استطلاعات الرأى العام الاسرائيلى فى أعقاب الغارة بالنسبة لنواح عديدة مثل الاقتصاد وأداء الحكومة بصفـة عامة . غير أن موضوعا واحدا كان يمكن أن يكون للغارة تأثير خطير عليه وهو الدفاع ، فقد انخفضت نسبة المؤيدين لسياسـة بيجين الدفاعية من ٦٩٪ الى ٦٧٪ . بيد أن الخبراء فسروا الاستطلاعات على أنها تشير الى أن الناخبين قد بدأوا يدركون أن بيريز يعد شخصا غير بارع ، أو انه أسوأ من بيجين .

وكان من المفترض أن بيريز ما كان ليأمر بشن هذا الهجوم حتى لو كانت الاحداث والتاريخ تدعوان الى ذلك . والواقع أن القاعدة العسكرية والسياسية والثقافية التى ترتكز عليها اسرائيل ارتكازا شديدا هى مفهوم الامن ، وهذا يعنى أن اسرائيل لا يسعها تحمل أية مخاطرة . ولذا كان ينظر الى استمرار وجود المفاعل العراقى على أنه يشكل مخاطرة جسيمة بالنسبة لامن اسرائيل . وكذلك كان هناك ايمان بان وجود اسرائيل ، وسط دول عربية غير مسئولة مثل العراق وليبيا ، يقتضى أن تحقق اسرائيل التفوق النووى . ولقد اعتنق هذا المفهوم وسار على هديه كل من حزبى (الليكود) و (العمل) .

وكانت استطلاعات الرأى العــام التى أجريت قبل الانتخابات تبين بوضوح أنه كلما كان بيجين اكثر عنفا ، واقترابا من صورته التاريخية كلما كان ذلك أفضل بالنسبة لفرصته الانتخابية . ففى ٢ يونيو ، كشف استطلاع للرأى العام أعده الدكتور بيليه محلل الرأى العام الموالى لحزب العمل أنه على الرغم من تقارب الفجوة بين حزبى العمل والليكود ، يحرز حزب العمل تقدما ضئيلا على الليكود . وتقسم استطلاعات الرأى العام الاسرائيلى تبعا للموضوع وقد أعدت الاستطلاعات التالية فى أول يونيو فى أعقاب أزمة الصــواريخ السورية .

أداء الحكومة فى شئون الامن (أول يونيو ١٩٨١)

النسبة المئوية للناخبين	يناير ٨١	أزمة الصواريخ مارس ٨١	مايو ٨١
منخفض	٨٦٪	٨٠٪	٧٦٪
أداء منخفض بالنسبة لقضايا الامن العام	٧٩٪	٩٠٪	٦٩٪

وقد أعد الاستطلاع التالى (هانوش سميث) ــ أحد البارزين فى مجال اعداد الاستطلاعات ــ فى ٥ يونيو ١٩٨١ ، فى أعقاب هجوم بيجين على المستشار الالمانى الغربى هيلموت شميث وعلى الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان . وبعد قرار (يورام اريدور) وزير الخزانة الخاص بالاعفاء الضريبى على أجهزة التليفزيون وغيره من السلع الاجنبية المستوردة . وهنا يظهر مرة أخرى انه كلما كان بيجين عنيفا كلما زادت فرصته الانتخابية .

أداء الحكومة فى الشئون الاقتصادية (أول يونيو ١٩٨١)

	يناير	فبراير	مايو
منخفض	٨٣٪	٧٥٪	٦٦٪
الحكومة تطلب من المواطنين أكثر من اللازم	٥١٪	٣٧٪	٢٩٪

كيف كان انخفاض أداء الحكومة (٥ يونيو ١٩٨١)

	سبتمبر٧٩	سبتمبر٨٠	يناير٨١	مارس٨١	مايو٨١
اخفاق تام	١١٪	١٤٪	٩٪	١٥٪	٢٣٪
اجتماعى	١٨٪	١٨٪	١٦٪	٢١٪	٣٠٪
أمــن	٦٩٪	٥٦٪	٥٦٪	٦٧٪	٥٦٪
خارجى	٧٤٪	٣٧٪	٣٠٪	٢٠٪	٤١٪
عــام	٢٥٪	١٧٪	١٤٪	٢٠٪	٣٤٪

وتمثل نهــاية الشجار والخلاف بين المسئولين ارتفاعا فى الرأى الانتخابى للاداء الحكومى الافضل . ففى خلال أيام مفاوضات كامب ديفيد عندما كان ديان ووايزمان يتحديان باستمرار بيجين ، وعنــدما حذر يجال هوروويتز قائلا : « ليس لدى نقود » وكان يهدد استمرارا بتقديم استقالته ، كان الرأى الانتخابى أن الاداء الحكومى منخفض .

ثم حدث قصف المفاعل العراقى . وعندئذ كشفت استطلاعات سميث للرأى العــام فى الفترة من ٤ الى ١١ يونيو (وقع القصف يوم ٧ يونيو) عن زيادة بنسبة ٥٪ فى شعبية الليكود . وارتفع التأييد الحكومى لســياسة بيجين الدفاعية بنسبة ١١٪ وعادت شعبية الحكومة الى ما كانت عليــه فى ازهى أيامها من سبتمبر ١٩٧٩ عندما كان رجال أقوياء لا يزالون فى الحكومة (وخاصة وايزمان وديان) .

وكانت استطلاعات الرأى التى أجرتها صحيفة « جيروزاليم بوست » قبل الغارة قد توقعت أن يحصل الليكود على ٤٥ مقعــدا فى الكنيست فى أواخر مايو ، و ٤٦ مقعدا فى أوائل يونيو مقــابل ٤٢ مقعدا لحزب العمل ، و ٤٠ مقعدا فى أوائل يونيو . ثم حدث تغيرا ملحوظا بعــد الغارة بالنسبة لتوقع فوز الاحزاب بمقاعد الكنيست . فقد ذكرت الاستطلاعات أنه من المتوقع أن يحصل الليكود على ٤٦ مقعدا مقابل حصول حزب العمل على ٤٠ مقعدا .

والواقع أنه منذ شهر مايو لم تكن المنافسة بين الليكود والعمل بل كانت بين بيجين وبيريز . ومنذ السنوات الاولى لديفيد بن جوريون (١٩٤٨ حتى ١٩٥٦) لم تكن المنافسة الانتخابية تدور كثيرا حول الشخصيات ، ذلك ان الانتخابات الاسرائيلية فى عام ١٩٨١ كانت أول انتخابات تجرى فى اسرائيل على أساس الشخصيات لا القضايا ، على الرغم من أن القضايا المطروحة منذ منتصف عام ١٩٨٠ وحتى مايو ١٩٨١ كانت حاسمة وفى صالح حزب العمل وأبرزها : انخفاض أداء حكومة بيجين ، وتزايد معدل التضخم الاقتصادى ، وفلسطين (مباحثات اقرار الحكم الذاتى الفلسطينى) وميزانية الدفاع ، ونوعية الحياة فى اسرائيل ، والقضايا العرقية والاجتماعية غير أن أى قضية

من هذه القضايا لم تحظ بالتركيز عليها والاهتمام بها خلال الاشهر الحاسمة من مايو الى يونيو ولهذا قال أبا ايبان وزير خارجية اسرائيل الاسبق فى أوائل يونيو : ان علينا أن نجعل نقطة الصفر هى عامل بيجين .

ولقد كانت صورة بيجين كديماجوجى ومحرض ، وان كان يدير حملته الانتخابية باقتدار وفعالية ، وصورته كرجل قوى يمكنه أن يلقن الارهابيين ومنظمة التحرير الفلسطينية الدروس اللازمة ، هما سر قوته الانتخابية . ولقد كانت لبيجين جاذبية سياسية بالنسبة لجمهور الناخبين الذين تتعالى صيحاتهم الى حد العنف اللفظى ، بينما كان المثقفون والطبقة المتوسطة الحديثة من الاسرائيليين يمقتونه تماما .

ومع ذلك ، تركزت – فى النهاية – انتخابات ١٩٨١ حول شخصيتين متناقضتين : فقد فاز بيريز فى المناقشة التليفزيونية ، بينما فاز بيجين بالاصوات .

أداء الحكومة (من ٤ الى ١١ يونيو ١٩٨١)

	الأيام السعيدة لكامب ديفيد					
	سبتمبر ٧٩	سبتمبر ٨٠	يناير ٨١	مارس ٨١	مايو ٨١ (من ٢٠ حتى ٧ يونيو)	بعد الغارة يونيو ٨١
اقتصادى	٪١١	٪١٤	٪ ٩	٪١٥	٪٢٣	٪٢٧
اجتماعى	٪١٨	٪١٨	٪١٦	٪٢١	٪٣٠	٪٣١
أمن	٪٦٩	٪٥٦	٪٥٦	٪٦٧	٪٥٦	٪٦٧
سياسة خارجية	٪٧٤	٪٢٠	٪٣٠	٪٣٧	٪٤١	٪٤٦
عام	٪٢٥	٪١٧	٪١٤	٪٢٠	٪٣٤	٪٣٨

٢٥ – فك الارتباط الفرنسى

ان تورط فرنسا فى برنامج السلاح النووى العراقى لم يصدر من رغبتها فى الاسهام فى تقدم العلم والتكنولوجيا .

ذلك ان حكومة جيسكار ديستان لم تكن لتهتم ، فيما يبدو بأن يتورط الشرق الاوسط وبقية العالم – وفيه فرنسا فى حرب نووية . ذلك ان حجم الاتفاق الفرنسى العراقى قد تراوح ما بين مليار الى خمسة مليارات دولار (اعتمادا على المصادر) وهو قدر من المال ليس ضئيلا حتى بالنسبة للتجارة الدولية فى الوقت الحاضر . وفضلا عن ذلك كانت فرنسا تبيع ما لا يقل عن ربع صادراتها من السلاح الى العراق ، بينما تراودها الامال فى تحقيق صفقات أفضل فى المستقبل . وأخيرا ، لقد كان الفرنسيون مهتمين بضمان تدفق مستقر من العراق (تعد فرنسا ثانى الدول التى تحصل على البترول العراقى) العراقى) .

والواقع ان كل هذه الصفقات الفعلية والمحتملة لم يطرأ عليها أى تغيير من جراء الهجوم الاسرائيلى الناجح .

ومما لا شك فيه أن هذه السياسة قد سببت الأرق للعديد من السياسيين الفرنسيين المسئولين ومن بينهم الرئيس فرنسوا ميتران الذى انتخب فى ١٠ مايو ١٩٨١ ، أى قبل شهر من شن الغارة ، والذى كان قد وعد زعيم المعارضة الاسرائيلى فى مناسبات عديدة (منها عندما اجتمعا فى لشبونة فى فبراير ١٩٨١) بوقف المساعدات الفرنسية لبرنامج الاسلحة النووية العراقية ولقد أصبح هذا أحد شعارات الحملة الانتخابية لميتران ، وذلك ضمن أسباب أخرى ، حتى يجتذب الأصوات اليهودية فى فرنسا .

غير أنه فى أعقاب الانتخابات الفرنسية ، بادر كلود شيسون وزير الخارجية الجديد فى حكومة ميتران الى تأكيد التزام فرنسا بتنفيذ الاتفاقيات التى وقعتها حكومة جيسكار ديستان . وكانت هذه الاتفاقيات تتضمن ، بالطبع ، الدعم الفرنسى لمشروع تموز . ولقد كان هذا التحول فى كافة وعود ميتران السابقة على الانتخابات لزعماء اسرائيل ، ولناخبيه – سواء وعوده المعلنة أو الخاصة – أحد الاعتبارات الأساسية التى دفعت الحكومة الاسرائيلية الى اتخاذ القرار النهائى بشأن تدمير المفاعل العراقى .

والآن ، فى أعقاب الغارة توفرت للحكومة الفرنسية فرصة رائعة ، ومبرر ذهبى للتراجع عن مساعداتها للمشروع النووى العراقى . ويدرك الاسرائيليون أن هذا التراجع لم يكن دون حدوث واقعة سابقة . ذلك أن فرنسا فى ظل حكم شارل ديجول لم تتردد فى انهاء تعاونها مع اسرائيل عام ١٩٦٠ فى كافة مجالات البحث النووى . على الرغم من ان الفرنسيين ، فى هذه الحالة

المبكرة ، قد حصلوا على الكثير من الفوائد من الاسرائيليين بقدر ما قدموه من مساهمات لهم ·

غير أنه بعد يوم من الغارة ، اسرع (م · موروا) رئيس الوزراء الفرنسى الى ادانة الغارة الاسرائيلية ، ووصفها بأنها « عمل خطير جدا لايمكن قبوله » وبعد ذلك بعشرة أيام ، بدأ (موروا) أكثر اعتذارا فى حديث له مع صحيفة (واشنطن بوست) الامريكية ، بالرغم من أنه أدان قرار الحكومة الاسرائيلية بشن الهجوم على المفاعل ووصفه بأنه « لامبرر له ، وانذار خطير » ·

وبذلك ناقض تصريحاته التى أدلى بها قبل الانتخابات الفرنسية · ورغم كل شىء ، اذا لم يكن ثمة انذار من شىء خطير فلماذا وعد بسحب المساعدة الفرنسية من المشروع العراقى ؟ ويضيف « أنه كان سيرى الهجوم الاسرائيلى من ناحية مختلفة لو أن ، اسرائيل كانت تواجه خطرا فعليا ومباشرا » غير أن هذا لم يثبت على الاطلاق ·

ثم استطرد قائلا : انه ادان زعماء اسرائيل أى كلا من بيجين والحكومة – ولم يدن الشعب الاسرائيلى · وأوضح ان فرنسا كانت ضد فرض عقوبات ضد اسرائيل لأنه لا يجب على البلد كلها أن تعانى من أخطاء ارتكبها زعماؤها ·

ومما لا شك فيه أن حديث (موروا) هذا كان مناورة واضحة تجعل بيجين فى وضع سىء ، وذلك كجزء من محاولة ميتران لتأييد الحملة الانتخابية لصديقه القديم شيمون بيريز – فى وقت كانت حملته الانتخابية ضد بيجين تقترب من نهايتها ·

وبعد ذلك ، وفى أعقاب خطبة لصدام حسين – طالب فيها من كافة بلاد العالم المتقدمة أن تساعد العراق والعرب فى تحقيق الخيار النووى – أعلن كلود شيسون وزير الخارجية الفرنسى فى حديث للتليفزيون الفرنسى (٢٨ يولية ١٩٨١) أنه ليس واثقا فى الوقت الحاضر من كون فرنسا ستساهم مرة أخرى فى برنامج (البحث) العراقى (كما ادان فى نفس الحديث بيانا كان قد صدر فى بداية الأسبوع ذاته يشير الى أن لاسرائيل خيارا نوويا قصير الأمد للغاية) ·

ومن المؤكد ان الفرنسيين (سيزداد حذرهم من أن يتورطوا بعمق ، على نحو تورطهم السابق ، فى برنامج « البحث » النووى العراقى · غير أن هذا الذى سيحدث فى المستقبل لا يزال أمرا غير واضح تحت وطأة الضغوط العراقية المضادة وأساليب الابتزاز (مثل التهديد بعدم شراء مزيد من الأسلحة الفرنسية ، أو الغاء صفقات الاسلحة التى تم الاتفاق عليها من قبل ، او وقف تصدير البترول لفرنسا) · ومن المرجح أن يلجأ الفرنسيون الى استخدام

أساليب لتأجيل مساعدتهم النووية للعراق · كان يصروا على الاضطلاع بالمزيد من التفتيش والمراقبة الدقيقة للبرنامج النووى العراقى · بيد أنه من المرجح أن يستسلم الفرنسيون تحت وطأة الضغوط العراقية المستمرة كما استسلموا أكثر من مرة فى الماضى ·

وربما كان رد الفعل المخفف لفرنسا ازاء الغارة الاسرائيلية – بالرغم من تعاونها فى المشروع العراقى – لا يرجع ، فحسب الى أن اسرائيل قد أراحت الضمير الدامى للحكومة الفرنسية ·

وحلت مشكلة خطيرة بالنسبة لصانعى القرار الفرنسى(١) ، بل يرجع كذلك الى الخوف من أن اسرائيل فى ظل حكم بيجين لن تتردد فى نشر كافة المعلومات السرية للغاية المتاحة لديها ، والتى من شأنها أن تكشف عمق المدى الكريه للمساعدات التى قدمتها فرنسا لبرنامج الأسلحة النووية العراقية ·

(١) لقد لقى أحد الفنيين الفرنسيين مصرعه خلال الغارة على تموز – وهو الضحية الأجنبية الوحيدة للغارة · وقد قررت الحكومة الفرنسية بعد أسبوعين من الغارة دفع تعويض كامل لأسرته (على الرغم من أنها ليست ملزمة بفعل هذا طبقا للقانون الدولى) ·

٢٦ ـ العالم العربى : سد الفجوة النووية

كان العالم العربى فى صيف ١٩٨١ يسوده الانقسام ، كما هو المعتاد ، وأعاد الهجوم الاسرائيلى على مشروع تموز توحيده ـ لفترة قصيرة على الأقل ـ بشأن تأييد العراق فيما لحق بها من اذلال وما استبد بها من غضب .

بل ان النظام البعثى السورى ، الذى يعتبر النظام البعثى العراقى من أعدائه الاساسيين قد أعرب عن تعاطفه فجأة مع العراقيين ودعا راديو دمشق بصوت مرتفع وباستمرار الى التضامن العربى والقضاء على « الكيان الصهيونى » فى الشرق الأوسط . وكان رد الفعل الأردنى مماثلا لذلك ، على الرغم من أن الجيش الأردنى لا يزال عليه أن يشرح كيف تمكنت نجاح الطائرات الاسرائيلية طراز اف ـ ١٦ و اف ـ ١٥ من التحليق فوق الأراضى الاردنية دون أن تكتشفها شاشات الرادار الاردنى .

ولقد أدينت اسرائيل مرات ومرات لهجومها الغادر بدءا من المغرب فى الغرب الى الكويت فى الشرق .

ومع ذلك ، يتعين علينا أن نرقب عن كثب رد فعل دولتين اساسيتين فى العالم العربى هما : السعودية ومصر .

والواقع أن هاتين الدولتين قد انضمتا من الناحية الرسمية لحملة ادانة اسرائيل والدعوة للتضامن العربى . ففى مصر ، اتحد أعضاء المعارضة والحكومة فى البرلمان مرة أخرى منذ شهور طويلة ، لادانة العملية الاسرائيلية ودعا الرئيس السادات موشى ساسون السفير الاسرائيلى لدى القاهرة وأبلغه بقلقه . ولقد كانت الغارة بالنسبة للسادات اهانة شخصية . ذلك أنه بعد ثلاثة أيام فقط من عقد اجتماع مع بيجين فى شرم الشيخ (أوفيرا) قصف السلاح الجوى الاسرائيلى المفاعل العراقى ، جاعلا بذلك السادات فى نظر بقية العالم العربى متواطئا فى هذا العمل الاجرامى . ولقد شعر السادات بأن بيجين قد أساء معاملته ، وقال للسفير الاسرائيلى :

« لقد وضعنى بيجين فى وضع لا يطاق . لقد عملت ، بجد ، لمساعدة اسرائيل على أن تغير من صورتها المتغطرسة ، والتى لاتقهر ، وذات الذراع الطويلة . وكنت أريدها أن تكتسب صورة البلد التى يمكن العيش معها فى سلام ، والتى يمكن معها توقيع اتفاقات السلام . لقد فعلت الكثير لأوائم الحاجز النفسى الذى كان يمنع الدول العربية من حتى مجرد التفكير فى احتمال اقرار السلام مع اسرائيل . والآن ، لقد خربت عمليتكم الاخيرة كل ما بذلته من جهود ، وألحقت ضررا بليغا لما حاولت بجد أن أبنيه خلال السنوات الثلاث الماضية .

ومن المرجح أن كلمات السادات هذه تشرح رد فعله العاجل ازاء الغارة . وباعتباره واحدا من أكثر الحكام المعتدلين فى العالم العربى كان

يراها من خلال منظار الدمار الذى سببته الغارة للعلاقات المصرية الاسرائيلية ومن الأثر الذى أحدثته الغارة فى وجهة نظر ، وموقف ، العالم العربى تجاه اسرائيل . ولكن من الناحية الأخرى ، لا بد أن الرئيس المصرى كان يعرف كذلك أن المشروع النووى العراقى كان موجها أيضا ضد مصر واى دولة عربية أخرى فى الشرق الأوسط ، مثلما كان موجها ضد اسرائيل .

وربما كان آخر الأشياء التى يريدها هو قنبلة نووية عراقية قد تهدد أية دولة عربية فى حالة نزاع مع العراق . وفى ضوء التفكير فى هذه الحقيقة، ربما توصل السادات الى نتيجة مفادها على الرغم من أن الغارة الاسرائيلية قد دمرت بعض الجهود الرامية لبناء اطار جديد للعلاقات بين اسرائيل والعالم العربى ، على الرغم من ذلك حررت الغارة العالم ـ كذلك ـ من واحد من أخطر التطورات التى يمكن أن تحدث ، فى المستقبل القريب على الاقل ، وهو تحقيق الخيار النووى العراقى المستقل . ولعل هذا النسق من التفكير كان يشاركه فيه أولئك الذين يشغلون المناصب العليا فى مصر والذين يرون الآن أن اسرائيل ليست العدو الرئيسى الذى يريد أن يحتل أراضى مجاورة ، وانما هى دولة ستفعل كل شىء ضرورى لضمان وجودها .

أما رد الفعل السعودى فقد كان من الناحية الرسمية ، مثل رد الفعل السائد فى بقية العالم العربى . لقد أدانت السعودية الموقف العربى ، ودعت الى اتخاذ الاجراءات اللازمة ضد الدولة اليهودية . غير أنه كانت هناك ردود فعل أخرى لم يشر اليها قط راديو السعودية .

فلقد أعرب الملك خالد ملك السعودية ، الذى كان يزور المملكة المتحدة وغيرها من البلاد الاوربية وقت شن الغارة الاسرائيلية ، أعرب على نحو غير رسمى بالطبع ، عن شىء من الارتياح لهذا الهجوم . كما أعرب أعضاء آخرون فى الاسرة المالكة السعودية ، خلال مأدبة غداء رسمية ، عن ارتياحهم لتدمير المشروع النووى العراقى . ولم يكن فى وسعهم بالطبع أن يعبروا عن مشاعرهم بحرية ـ لأنه يعتبر بمثابة خيانة للقضية العربية ـ غير أنهم اعترفوا فى أحاديثهم الخاصة ، بأنهم كانوا يشعرون بالقلق ازاء حصول العراق على قنبلة ذرية مثل قلقهم ازاء التهديد الاسرائيلى للعالم العربى .

والواقع أن هذا الموقف هو نموذج لموقف معظم الدول العربية التى كانت تخشى المخططات العراقية الخاصة بالهيمنة . ولقد كان هذا التهديد العراقى موجها أساسا ، فى المدى القصير على الاقل ـ ضد الخليج الفارسى . ذلك أن الحرب العراقية الايرانية كانت الخطوة الاولى لتحقيق هذه الهيمنة ، وكان حصول العراق على قنبلة ، وسيلة أخرى لتحقيق هذه الغاية .

كان فى وسع كل النظم العربية أن تدين الهجوم الاسرائيلى بأعنف كلمات ممكنة ، لكن هذا الهجوم ، كان ، مع ذلك يخدم أغراضها مثلما يخدم

اغراض اسرائيل . وحتى اذا ما كان الامر كذلك ، فان الغـــارة الاسرائيلية
على المفاعل العراقى قد أثرت كذلك على المواقف العربية تجـاه اسرائيل .
لقد اعتبرت الغارة كاهانة للعالم العربى باسره ، وكعمل من شانه استمرار
الفجوة بين اسرائيل الحديثة المتقدمة علميا ، والتى تمتلك خيـارا نوويا ،
وبين العالم العربى الذى ترك دون أن يكون لديه خيار نووى . ولقـد كان
هذا ، ومن المرجح أنه لا يزال هو الادراك والشعور الحقيقى لـكل عربى .
لقد تعززت لدى العرب صورة الطيـار الاسرائيلى باعتباره « سـوبرمان » ـ
وهى نفس الصورة التى ظهرت فى أعقاب حرب الايام الستة .

ولذلك ، فان الغارة الاسرائيلية قد أثرت فى العـالم العربى باسره من
ثلاث نواح **أولاهما** ، وهى الاكثر سطحية أن الغارة أدت الى اعادة توحيد العرب
ومحاولة التوصل الى نوع من التضامن العربى . **وثانيتها** ، انه من المرجح
أن معظم الحكام شعروا بارتياح عميق بعد الغارة الاسرائيلية . والواقع أن
تضافر الجهود العربية للتوصل الى قنبلة يعـد هدفا شرعيا بالنسبة لمعظم
الحكام العرب غير أن وجود قنبلة عراقية مستقلة ، يعد حكاية مختلفة تماما .
انها ستهدد كل أعداء العراق ـ وللعراق عدد ليس بالقليل منهم فى العالم
العربى فى الماضى والحاضر ، وربما يزيد عدد أعدائها فى المستقبل . ومن
ثم ، وعلى صعيد المصلحة الوطنية هـذا ، خدم الهجوم الاسرائيلى الاهداف
العامة للحكام العرب .

وثالثتها ، وعلى الصعيد الشـخصى ، شهد كل مواطن عربى أن الغـارة
الاسرائيلية كانت اذلالا شخصيا له وللأمة العـربية على السواء . لقد شعر
العرب بالاحباط من جراء النجاح الاسرائيلى ، الذى أظهر ـ مرة ثانية ـ البون
الشاسع بين القدرات والامكانيات الاسرائيلية والعربية .

ومن الطبيعى أنه توجد تناقضات بين هـذه المستويات الثلاثة لردود
الفعل ، وعلى حيث أن رد الفعل الاول عام ، ويمكن أن يؤدى للاحباط الشخصى
لايوجد حاكم عربى كان يود رؤية قنبلة ذرية لـدى حاكم شـقيق فى دولـة
عربية مجاورة . وكل منهم يعرف ذلك ، ولكنه لن يعترف به قط . ولذلك
نجد أن الوسيلة الوحيدة التى سيوافقون عليها بشأن الحصـول على قنبلة
عربية هى أن يتم التوصل اليها من خلال جهود مشتركة من جانب كل الدول
العربية . ولكن عندئذ يثور السـؤال : من سيضغط باصبعه على زر اطلاق
القنبلة ؟ ان شخصا واحدا فقط يمكنه أن يفعل ذلك ، وأن دولة عربية فقط
يمكنها أن تمتلك قنبلة عربية . ولذلك ، يبدو فى الوقت الحاضر ، وفى اطار
رد الفعل ازاء الغارة الاسرائيلية التى جعلت اسرائيل الدولة الوحيـدة التى
تملك الاحتكار النووى فى الشرق الاوسط ، لذلك يبدو أنه لا تزال هنـاك
فرص ضئيلة لبذل جهد عربى مشترك للحصول على القنبلة الذرية .

ان الدولة التى تنتمى للعالم الثالث والتى يحتمل كثيرا ان تحقق خيارا نوويا مستقلا فى المستقبل القريب ـ وهى الدولة الأكثر تعاطفا مـع الاهداف العربية الاسلامية ـ هى دولة ، عـلى عكس العـراق ، لا يمـكن ان تتعرض للاصـــابة من النـاحية العملية من جانب غارة وقائية اسرائيلية . ذلك انه لا الضرورة الاستراتيجية فى المدى القصير . ولا براعة السلاح الجوى الاسرائيلى ولا مخاوف رئيس الوزراء بيجين من المذبحة الجماعية يمكن أن تغرى اسرائيل على شن غارة فى المستقبـل على باكستان ، وهـى الدولـة التى تركز الآن ، بمساعدة فرنسا وليبيا ، الكثير من مواردها ، لتطوير ما يمكن ان يكون ـ فى ضـوء العداوات القائمة بين باكستان والهند ـ اخطر تهديد للتوازن النووى العالمى فى الثمانينات وهـو المشروع ٧٠٦ ـ اى القنبلة الاسلامية .

خـــــاتمة

ان الغارة الاسرائيلية على المفاعل النووى العراقى تعد تاريخا الآن ، ومع ذلك لاتزال الاسئلة الحفيفية باقية ومثارة . ماذا سيكون عليه شكل السباق النووى فى الشرق الاوسط ، وماذا سيكون اثر هذا السباق على مستقبل المنطقة والعالم بأسره ؟

وعلى حين ان التدمير الاسرائيلى للمفاعل النووى العراقى قد اجل بالتأكيد حيازة العراق لاسلحة نووية - لا يمكن فى المدى الابعد تجنب حيازة العراق أو أى بلد عربى أو اسلامى غيرها للاسلحة النووية ومن الممكن أن يحدث هذا بعد خمس سنوات اعتبارا من الآن،اى فى غضون عقد أربعة قرون - ولكنه يبدو أمرا حتميا . ذلك ان التقدم التكنولوجى ، والرغبة فى الحصول على احدث الاسلحة ، والمكانة التى تستمد من الحصول على اسلحة الدمار الجماعى كل ذلك يشكل اغراء قويا ويقدم حلا سريعا ، حتى بالنسبة للزعماء الاكثر شعورا بالمسئولية من أولئك الموجودين فى الشرق الاوسط .

ويأمل البعض فى أنه اذا كان تجنب الانتشار النووى غير ممكن ، فالمرجو ان يسهم التوصل اليه فى تحقيق توازن رعب اقليمى على غرار نفس المستوى الاستقرار والسلوك المسئول ، كما هو الحال بين القوى العظمى التى حصلت على أسلحة نووية منذ عام ١٩٤٥ (أى الاتحاد السوفيتى والمملكة المتحدة وفرنسا والصين والهند) لم تتورط فى صراعات مباشرة مع بعضها خلال الخمسة والثلاثين عاما الماضية (وتعد الصين والهند استثناء لذلك ، بالرغم من ان الهند لم تكن لديها اسلحة نووية عندما تورطت فى حرب محدودة مع الصين) .

غير أنه لا يمكن القول بان شيئا من هذا يصدق بالنسبة لبلاد الشرق الاوسط التى توجد فى حالة توتر ونزاع مستمر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . ولا يمكن أن يوصف أى بلد من هذه البلاد بانه يمثل نظما مستقرة بصفة خاصة . ذلك ان النزاع فى الشرق الاوسط ليس ناشبا بين اسرائيل والدول العربية فقط ، بل هو ناشب كذلك بين الدول العربية نفسها فالنزاع قائم بين ايران والعراق ، وبين العراق وسوريا وبين سوريا ولبنان ، وبين مصر وليبيا ، وبين الجزائر والمغرب .. وهكذا .

ومن ثم نجد أنه لو أمكن تحقيق توازن رعب اقليمى ، ولو تمت السيطرة عليه عن طريق التفاهم المشترك ، أو حتى التعاون المحدود ، لبقيت المخاطر ماثلة . ذلك انه كلما استمر النزاع الاقليمى على مستوى تقليدى او شبه تقليدى ، فان خطر تصعيد حرب مفاجئة يظل ماثلا دائما . والواقع ان الاسلحة النووية لا يمكن أن تمنع نزاعا على مستوى محدود .

ولذا ، وعندما تنتشر الاسلحة النووية فى النهاية فى الشرق الاوسط فان الوسيلة الوحيدة لضمان عدم استخدامها هى اقرار السلام فى المنطقة ٠ غير انه من سوء الحظ ان اقرار السلام لايزال امرا بعيد المنال على الرغم من آمال الملايين وصلواتهم – ولذلك ، يمكن ان تكون الوسيلة الوحيدة لتجنب وقوع كارثة نووية فى الشرق الاوسط ، يمكن ان تكون هى التوصل الى اقرار سلام يقبله الجميع قبل ان يبدأ الانتشار النووى فى المنطقة ٠ ولا ينطبق هذا على النزاع العربى الاسرائيلى فقط ، بل ينسحب كذلك على كل النزاعات الاخرى فى المنطقة ٠ غير ان توقع ان يصبح الشرق الاوسط منطقة سلام مثل اوربا الغربية لا يبدو امرا واقعيا فى الوقت الحاضر أو حتى فى المستقبل ، ولهذا كلما تأجل الانتشار النووى ، كلما كان ذلك افضل .

وما ان يحدث الانتشار النووى ، حتى يزيد على الفور خطر اندلاع حرب نووية ٠ واذا توقعنا أن تتجه دول المنطقة الى نزع السلاح عندما تصل الى هذه المرحلة ، فانه سيكون توقعا عقيما كما هو الحال فى أى منطقة أخرى فى العالم ٠ وذلك ان المخاطر جسيمة جدا ، والشكوك المتبادلة قوية للغاية .

كما ستكون الاغراءات مضطردة ٠ اذ أن مجرد قنبلة نووية واحدة قد تدمر تماما دولة أخرى فى ثوان ٠ والواقع أنه لم تنجح دول عربية قط فى الحاق الهزيمة باسرائيل ، وقد فشل ١٠٠ مليون عربى فى ابادة مليونى يهودى ٠ بيد أن عددا قليلا من الاسلحة النووية يمكن أن يدمر تماما دولة صغيرة مثل اسرائيل ٠

ان قنبلة مثل قنبلة هيروشيما التى تبلغ زنتها ما بين ٢٠ الى ٣٠ كيلوجراما من المرجح – اذا ما أسقطت فوق مدينة تل‌أبيب – أن تسفر عن مصرع ٥٠ ألف نسمة وعن اصابة ١٥٠ ألفا آخرين ، على الاقل ، نتيجة للتعرض للحرارة والاشعاع النووى ، والانفجار ، والضغط والضوء ، وكل الآثار الاخرى الناجمة عن الانفجار النووى – واذا ما القيت ثلاث (الى ست) من كتل هذه القنابل فان ٥٠٪ من المراكز السكانية والصناعية الاسرائيلية ستدمر ٠ ويمكن القول بأن عددا مماثلا أو أكبر قليلا من القنابل النووية يمكن أيضا أن يسبب دمارا هائلا لمصر او اى دولة اخرى فى الشرق الاوسط .

ذلك أن كل الدول العربية الاساسية تعتمد على نهر أو نهرين كبيرين وعلى ما لديها من سدود ، وأن سكانها يتركزون فى مدينة أو مدينتين فقط ، ومن ثم ، يؤدى أى هجوم نووى الى رد انتقامى وثأرى سريع سواء كان يخدم غرضا معقولا أم لا ٠ والواقع أن مثل هذا الدمار قد يشكل خطرا بالنسبة لبقية العالم كذلك ٠ ويمكن أن يحدث هذا ، اما عن طريق جر القوى الكبرى للدخول فى مواجهة نووية لا يرغبون فيها ، او عن طريق تدمير الموارد البترولية فى المنطقة .

وسوف تكون ذروة السخرية اذا ادت الثقافات التى كانت معا مهد حضارة العالم الى اشعال نيران الحرب الفاصلة .

المحتويات

رقم الصفحة



مطابع
الهيئة العامة للاستعلامات